(١)

معالم الفكر العربي المعاصر

(مدخل إلى الفكر الإسلامي المعاصر)

هذا العمل تم كله عام ١٩٦٥ (تجربة)
ابتداء من مارس حتى ظهر ٦ مايو ١٩٦٦

يضاف إلى هذا البحث
الصحافة الفكر الإسلامي

أنور الجندي

بسم الله الرحمن الرحيم

مطبعة الرسالة
شارع [illegible] ت ٥٠٢٤٠

(مدخل)

من خلال دراسة واسعة مستفيضة للأدب العربى المعاصر ، تكشف أن هناك مجالا واسعا خصبا ما زال بكراً ، فى حاجة للدراسة ، ذلك هو مجال «الفكر العربى» ، وهو مجال رحيب ، نابض بالحياة موصول بالحياة والمجتمع والدين والتراث والتاريخ واللغة ، بل لا نبالغ إذا قلنا أن الأدب قطاع منه ، ومن هنا توسعت النظرة والدراسة ، ولا شك أن دراسة الأدب العربى المعاصر كانت فى جذورها دراسة للفكر العربى أساساً ، وبعد أن كانت المهمة التى انتدبت لها نفسى تقف عند دراسة الأدب العربى المعاصر ، فقد توسعت لدراسة الفكر العربى والثقافة العربية فى مرحلتين : الأولى مرحلة الاستعمار وقيام النفوذ الغربى ، والثانية مرحلة نهاية الاستعمار وقيام نفوذ التغريب والشعوبية بديلا عنه .

وكان أن فتحت لى دراسة (الفكر[1] العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية) التى تناولت مرحلة الاستعمار والنفوذ الغربى منذ فجر الاحتلال إلى أوائل الحرب العالمية الثانية (١٨٧١ — ١٩٣٩) فتحت هذه الدراسة بابا واسعا للتعرف على أدواء فكرنا وقضاياه وأزماته فى مواجهة الفكر الغربى بشقيه ، وكيف واجه فكرنا الالتقاء بالنظريات والمذاهب الجديدة التى قدمت له فى ظل النفوذ الأجنبى القائم إذ ذاك فى قلب الوطن العربى والتى كانت تهدف فى الأغلب إلى عمل سياسى عميق الجذور هو القضاء على مقوماته الأصلية بما يمكن للاستعمار من بسط نفوذه ودعمه واستمراره ، ولما كانت مقومات الفكر العربى الإسلامى تعطى أساساً تلك الروح القادرة على المقاومة فقد قامت أزمة صراع بين القوى الفكرية الغازية وأسس فكرنا الحى المتفتح القادر على الحركة والتلقى والاستجابة والإذابة فى كيانه دون أن يتحول ، أو يصبح تابعا ، فهو قادر دائما على التلقى والأخذ والاقتباس وفق حاجته ، لا بالرأى المفروض .

---

(١) صدرت هذه الدراسة عام ١٩٦١ .

ومن هنا بدأت تظهر عشرات المسائل التى اختلفت فيها وجهة نظر الفكر الغربى عن فكرنا العربى الإسلامى على نحو أصبح من الضرورى معه البحث عن جذور هذه القضايا وعرضها عرضا منصفا لا ينكر فضل الغرب فى تطوره وحضارته ولا يقضى على المقومات الأساسية للفكر العربى .

وقد حاولت فى هذه الدراسة تناول التطورات فى المرحلة الدقيقة بين الاحتلال والجلاء عن العالم العربى .

ولا شك أن يقظة العالم العربى الجديدة التى بدأت فى ظل الثورة ويقظة القومية العربية وبروز فجر نهضة حقيقية للأمة العربية والفكر العربى قد أتاحت وضع أسس جديدة إيجابية بحيث يمكن الفصل بخط واضح معمق بين مرحلة ومرحلة فى تاريخ الفكر العربى المعاصر .

وغاية ما يمكن أن يقال أن المرحلة التى تمثل سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية واندلاع دعوة القومية العربية قد أتاحت فرصة واسعة لدراسة المرحلة التى عاشها العالم العربى فى مرحلتين مر بهما الفكر العربى الإسلامى فى العصر الأخير :

المرحلة الأولى : الفترة من ١٥١٧ إلى حوالى ١٨٣٠ تقريباً وهى ثلاثمائة عام تقريبا من حكم الدولة العثمانية للعالم العربى وقد كانت هذه الفترة مرحلة ضعف عام للفكر العربى الإسلامى ، مصدره أن العالم الإسلامى والأمة العربية جزء منه كان قد جرى شوطا طويلا فى خلال ألف عام كاملة منذ بزوغ فجر الإسلام ، وشارك مشاركة فعالة فى مقاومة الفكر الإنسانى والحضارة البشرية وعمل على إنماء الجذور التى قامت عليها الحضارة الحديثة المسماة بالحضارة الغربية نسبة إلى مكان نموها وتوسعها أساساً ، وكذلك كانت الحضارة الإسلامية العربية دورة مستأنفة للتاريخ بعد سقوط الحضارة اليونانية والرومانية ، وكذلك كانت الحضارة الغربية دورة مستأنفة بعد ضعف الحضارة الإسلامية ، غير أن الفكر العربى الإسلامى لم يسقط يوم تلاشت الحضارة الإسلامية العربية وعند ما انطوت الدولة الكبرى المتمثلة فى الأمبراطورية العثمانية ولكنه ظل موجودا وإن خبأ ضوءه وعلاه الصدأ ، وإن لم يعد يتفاعل مع الحياة ، فقد ظل مستمر الحياة حتى إذا انبعثت منه الصيحة مرة أخرى

بالدعوة إلى اليقظة ، تفتحت آفاقه مرة أخرى للنهضة ، وذلك قبل قدوم الحملة الفرنسية بقرن من الزمان حين بدأت اليقظة فى الفكر العربى الإسلامى ترسم طريقا جديدا .

٢ — ثم كانت هذه المرحلة الثانية التى يمكن أن تسمى مرحلة الاحتلال العسكرى والسياسى للعالم العربى (١٨٣٠ — ١٩٥٢) والتى برزت خلالها أصوات جريئة وقوية من دعاة الإصلاح والتجديد فى مجال اللغة والأدب والدين والاجتماع والتاريخ ، هذه المرحلة يمكن أن يطلق عليها مرحلة فجر اليقظة ، فقد قاوم فيها هؤلاء المصلحون قوى ضخمة من النفوذ الأجنبى والتبشير والتغريب والغزو السياسى والاجتماعى والفكرى فى ظل مرحلة كان الفكر العربى خلالها يحاول أن يستعيد مكانته ويصحح مفاهيمه وينفض عن نفسه غبار القرون التى جمدته وأصابته بالضعف ومن هنا فتحت أبواب التجديد والاجتهاد ، وبدأت تنكشف صورة هذا الفكر على حقيقته ، ويبدو جوهره النقى ليؤكد حياته وقدرته على الاستمرار والتفاعل مع النهضات والحضارة ، وليثبت أنه كان دائما قادراً على الإيجابية والفاعلية ، وقد كان ولا يزال يحمل لواء التقدمية والعصرية متطاولا مع الأزمان المتتالية والبيئات المختلفة .

ولكن الاستعمار كان يبغض هذه اليقظة التى تعمل أساساً على شجب نفوذه ومن هنا وجدت من النفوذ الأجنبى تحدياضخما ، هو تحدى القادر الممتلك لمختلف عناصر القدرة فى السيطرة السياسية والعسكرية ووسائل الثقافة من صحافة ومدرسة وجامعة ، ومن هنا كانت مواجهة التحدى بتلك الروح التى عرفت بها هذه الأمة حين تمر بها الأحداث الكبرى والأزمات العاصفة .

* * *

وأعتقد أن فترة الاحتلال وسيطرة النفوذ الأجنبى التى بدأت قبل منتصف القرن الماضى والتى أوشكت على الانتهاء خلال العقد الخامس من هذا القرن قد كان لها أثرها البعيد فى التكوين العقلى والروحى للأمة العربية والعالم الإسلامى عن طريق نفوذها فى المدرسة والصحافة وبث الفلسفات المادية ، ودفع ثقافات الغرائز والجنس ، واتخاذ المفاهيم الغربية أساساً لفهم القيم الإنسانية ، والاعتماد على مصادر الغرب فى فهم أنفسنا ومحاولة

خلق جو متقبل لاعتناق نظريات الغرب فى التربية والنفس والاجتماع والأدب ، وفى هذا محاولة الفصل بين الدين والفكر والقومية والإسلام، وقد ظل هذا الأثر واضحا إلى وقت طويل .

ولقد كان أبرز ما فى مرحلة ما قبل الاستقلال ظهور مدرسة ذات نفوذ تفصل بين معركة الحرية وبين القيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى ، ومن هنا مضت حركة المقاومة منفصلة عن مقومات فكرنا ، كانت السياسة تغلب الوطنية ، وكانت الوطنية ضيقة إقليمية ، وكانت الحركات الأربع العربية والإسلامية والشرقية والإقليمية تتصارع بتوجيه النفوذ الأجنبى .

وكانت معاهد التعليم تحت سيطرة النفوذ الأجنبى تخرج المؤمنين بالغرب المعجبين به ، الساخرين بالفكر العربى الإسلامى وقيمه ، والذين تملأهم نزعات الشكوك والريب ، منصرفين عنه إلى الفكر الغربى ومظاهر الحضارة باعتبارها المثل الأعلى .

وقد تعمقت فى العالم العربى خلال فترة ما بين الحربين وما بعدها فى ظل الاحتلال مدرسة « لا أخلاقية السياسة » البعيدة عن القيم الفكرية والروحية العربية الإسلامية والتى كانت تنظر إلى الدين نظرة الغرب وتنظر إلى الإسلام على أنه دين ، وتفصل بينه وبين نتاجه الفكرى والحضارى والثقافى المتفاعل مع الفكر الإنسانى والذى هو عصارة فكر الشرق كله فى أديانه وثقافاته .

وفى ظل النفوذ الأجنبى قامت مدرسة التغريب ودعوته ، وبرزت دعوة الشعوبية ونمت ، وتعمقت مفاهيم الغرب فى مختلف مجالات الصحافة والتربية والتعليم والثقافة وحلت مفاهيم غربية للقيم العربية الإسلامية الإنسانية .

وبذلك تعمقت الهوة التى تفصل بين الأمة العربية ومفاهيمها واضطرب الخط المتصل وبذلك انحرفت الشخصية العربية عن مقوماتها ومفاهيمها واستطاع الاستعمار والنفوذ الغربى خلال مرحلة الاحتلال للعالم العربى أن يعمق خطته الرامية إلى هدم :

(١) مقومات الأمة (٢) شخصيتها (٣) فكرها ، هذه الخطة التى جرت بأعمال

التبشير والتغريب والشعوبية وفى ظل خدمات الاستشراق فى مراحل متعددة وفى مخطط دقيق ، وقد عمق النفوذ الأجنبى خطته على مراحل متعددة بوسائل تزييف الحقائق والتشكيك فى المفاهيم ، وإحلال مفاهيمه للقيم الإنسانية بدلا من مفاهيم الفكر العربى .

ويمكن أن نلخص الشبهات والاتهامات التى وجهها التغريب ووجهتها الشعوبية للفكر العربى الإسلامى ونوجزها حتى نكشف الطريق بين يدى الباحث :

(أولا) التجزئة بين العروبة والإسلام . على أساس المفهوم الغربى لكلمة الدين . والمعروف أن الغرب فصل القومية عن المسيحية ، لأن المسيحية دخلت على أوربا من الخارج فكانت أجنبية عن طبيعتها وتاريخها فى حين أن الإسلام بالنسبة للعرب فى غير مجال العربية : ثقافة وفكر وحضارة وتاريخ .

(ثانيا) فرضية قبول الثقافة والحضارة الغربيين معا « حلوها ومرها ، خيرها وشرها ، ما يحمد منها وما يعاب » وهنا يبدو الخلط بين الثقافة والحضارة ، فالثقافة فكر والحضارة مادة ، والحضارة ملك للانسانية ولكن الثقافة تستمد جذورها من وجدان الأمة وضميرها وروحها . والمعرفة غير الثقافة ، فالمعرفة كالحضارة ليس شرط أن تكون ثقافة ، ولكن هى ملك إنسانى عام تأخذ الثقافات منها وتدع .

(ثالثا) الفلسفة العربية الإسلامية هى فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية وهذا غير الحق ، فقد كان للعرب طابعهم الواضح ، المستمد من روح القرآن والإسلام والتوحيد ، هذا الطابع الذى أخذ ورفض وأضاف وعدل .

(رابعا) الانفصال عن الماضى كلية باعتباره مصدر التأخر ، وهذا القول خطأ على إطلاقه ، فإن الغرب نفسه لم ينفصل فى حضارته وثقافته القائمة عن مصادر التراث اليونانى والرومانى . بالرغم من انفصاله عن هذا التراث ألفى عام وضياع اللغة اللاتينية . بينما بقى الفكر العربى الإسلامى وما زال متصل بجذوره ، وما زال مستمر الأثر والفاعلية .

(خامسا) « روحية الثقافة العربية » هذا خطأ محض ، فإن الفكر العربى الإسلامى يتسم بالمزيج المتفاعل بين الروح والمادة والعقل والقلب والدنيا والآخرة .

(سادسا) احتقار آسيا واتهامنا بأننا آسيويون ، على أساس أن ذلك مصدر تخلف عن أوربا ، والواقع يؤكد والتاريخ يثبت أن آسيا قدمت للعالم سلسلة من الحضارات العريقة : كالأكادية والشمرية والبابلية والأشورية والهندية والصينية وقدمت للانسانية ديانات أرضية كالبوذية والبرهمية وديانات سماوية كاليهودية والنصرانية والإسلام .

(سابعا) المحاكمة إلى فترة الضعف ؛ هذه الفترة التى انتهت بها دورة من دورات الحضارة وبدأت دورة جديدة لا يمكن أن تمثل حقيقة القيم والمفاهيم الأساسية للفكر الإسلامى . بعد أن غلبت نزعات الجمود والتقليد .

(ثامنا) الرأى الغربى فى كلمة « الدين » ، هذا الرأى ينطبق على مفهوم المسيحية الغربية وعلى تاريخها ومراحل التقائها واختلافها مع النهضة الغربية ، ولا يصلح هذا الرأى بتطبيقه على (الإسلام) أو الفكر العربى الإسلامى بصفة عامة . إن مفهوم المسيحية الغربية يختلف عن مفهوم المسيحية السمحة النابعة من الشرق ، ثم أن مفهوم الإسلام يختلف عن مفهوم الدين ، باعتبار الإسلام دين وفكر ومجتمع وحضارة ، وهو فى تطوره وحركته وإيجابيته وتقدميته وقدرته على النماء والإخذ والعطاء تختلف كثيرا عن غيره من الأديان .

(تاسعا) دعوات الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية وغيرها ، هذه الدعوات التى استغلت للتفرقة بين أجزاء الوطن الواحد ، واتخذت وسيلة لإحياء خلافات مذهبية قديمة مثل الإسلام ومحاولة تغليبها لخلق قوميات ضيقة ودعوات إقليمية مسرفة فى التخلص من روح الفكر العربى الإسلامى الذى شمل المنطقة ووحدها بعد الإسلام ، وقد أثبت عديد من الباحثين بدلائل قوية أن الفرعونية والأشورية والبابلية والفينيقية والبربرية ما هى إلا موجات عربية متتالية تدفقت من قلب الجزيرة العربية وانساحت فى المنطقة كلها حيث لم يكن من الممكن أن تبنى حضارة شامخة فى جو حار وعلى رمال ساخنة إلى أطراف الجزيرة ووديان العراق وسهول مصر والشام الخصبة وإلى سواحل البحار والأنهار .

(عاشرا) دور الحضارة الإسلامية العربية فى الحضارة الإنسانية . وقد تجاهل هذا الدور كثير من الباحثين وتجاهلوا أوليات فكرنا العربى الاسلامى فى مختلف العلوم والفنون ، كالفلك والجبر والهندسة وارتياد البحار ونظرية الضوء والطب وغيرها .

(حادى عشر) العالم العربى أيقظته أوربا : وخطأ هذا هو أن العالم العربى استيقظ قبل الارساليات وقبل الحملة الفرنسية بأمد طويل ، ويمكن القول بأن الحركة الوهابية (١٧٤٠م تقريبا) تعد أولى علامات اليقظة وتسبق نابليون بخمسين عاما . ولا ننسى الوثيقة التى حصل عليها العلماء من الحكام المماليك قبل الحملة الفرنسية والتى يمكن أن تعد بحق الوثيقة العربية لحقوق الإنسان .

(ثانى عشر) اللغة العربية لغة ميتة كاللغة اللاتينية ، وخطأ هذا أن اللغة اللاتينية كانت لغة دولة ولم تكن لغة أمة ، وكانت لغة أرستقراطية لا يمارسها إلا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل فى طبقات العوام ، أما اللغة العربية فقد كانت لغة الإسلام والقرآن ، عاشت معهما ونمت فى ظلها ، وكانت تامة كاملة قبل الإسلام والقرآن ، وقد استطاعت بحيويتها وقوتها أن تصرع كل لغات العالم الإسلامى وتأخذ المكان الأول وستظل حية لأنها كانت قادرة على التجاوب مع الحضارات والمدنيات دوما .

واقد استطاع الفكر العربى فى فترة الاحتلال (١٨٣٠ — ١٩٥٦) تقريبا أن يقاوم هذه النظريات والشبهات وأن يدحضها غير أن النفوذ الغربى المغلف وراء التغريب والشعوبية أجرى محاولات جديدة لبسط هذه الشبهات بأساليب جديدة .

* * *

هذا هو الموقف الذى واجه الفكر العربى فى أوائل مرحلة الاستقلال وإنهاء النفوذ الأجنبى والذى حاول أن يثير الشبهات حول يقظة العالم العربى الجديدة ، وأن يوجه ظلال الشكوك حول الحرية والاشتراكية والوحدة ، هذه الشكوك التى تحاول أن تعوق العالم العربى وقد أوشك على التحرر من النفوذ الأجنبى العسكرى والسياسى حتى تفرض عليه أن يواجه معركة جديدة هى التخلص من التغريب والشعوبية ، وقد وضح الاتجاه نحو تأصيل النهضة وكشف تآمر التغريب عليها فى كلمات مضيئة :

« نحن فى حاجة إلى الوحدة الفكرية حتى ندعم هذا التضامن العربى ، أن التحرر الفكرى ضرورى لها فى هذا المجال ، وهناك واجب أساسى فى إقامة أدب عربى مستقل خال من السيطرة الأجنبية أو التوجيه الأجنبى فلا نكون ذيلا لكتلة من الكتل .. فكرنا ينبع من ضميرنا ، مع وعى عميق بالتاريخ وأثره على الإنسان المعاصر من ناحية ومن ناحية أخرى بقدرة الإنسان بدوره على التأثير فى التاريخ ومع فكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية يأخذ منها ويعطيها ، ولا يبعدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد مع إيمان لا يتزعزع بالله ورسله ورسالاته القدسية التى نعيشها بالحق والهدى » .

وعصارة هذه الفترة تتمثل فى عناصر محددة :

أولا : نحن لسنا خصوما للحضارة الغربية أصلا ، فالحضارة الغربية مدنية إنسانية عالمية شاركنا فى بنائها وكان لنا دورنا فى تكوينها ، وهى حق مشاع لكل الأمم والشعوب ، وقد أخذنا منها أرق ما وصلت إليه ، واستطعنا فى ظل اليقظة التى عرفها العالم العربى كله منذ عام ١٩٥٢ أن نصل منها إلى مرحلة كبرى فى مجال الصناعة والتسلح وبناء الطائرات والتكتيك العلمى وما يتصل بالذرة والفضاء بحيث لا تمكن أن نتهم اليوم بالقصور أو التخلف ، وبحيث نكون قد عدونا الطوق الذى كان يضربه الاستعمار والنفوذ الغربى حول الأمم حتى لا تصل من الحضارة إلى جوانب القوة فيها .

ثانياً : لسنا خصوما للفكر الغربى أصلا إلا حين يحاول هذا الفكر أن يسيطر علينا لحساب النفوذ الأجنبى ، أما فيما عدا ذلك فالفكر الغربى يحمل عصارات من الإبداع والعبقرية فى مجالات الفلسفة والفن والأدب والتاريخ تتجه نحو ترقية الإنسانية ولكنا نقف منه موقفين واضحين :

الأول : لنا أولية فى مجال النهضة والحضارة وكان فكرنا العربى الإسلامى له دور وأثر واضح أكيد لا سبيل إلى إنكاره أو غمطه أو تجاوزه[1] .

---

(١) اقرأ كتابنا (صفحات من أمجادنا) ، وكتابنا (أضواء على الفكر العربى الإسلامى) .

الثانى : أن الفكر الغربى — عن طريق النفوذ الاستعمارى المختفى وراء التغريب والشعوبية ، يحاول أن يفرض علينا بعض النظريات والأفكار والمذاهب التى لا تتفق أساساً مع مقومات فكرنا العربى الإسلامى فى مجال : الجنس والتربية وعلم النفس والمادية التاريخية وغيرها ، ونحن نرى أن هذه النظريات إنما هى مراحل فى تطور الفكر الغربى تتصل بحضارته وثقافته المستمدة من مصادر اليونان والرومان أساساً ، ونحن بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية ننظر فى هذه النظريات بروح الاستقلال والرشد الفكرى ، ونقف منها موقف القدرة على الأخذ والرد ، والقبول والرفض ، فقاعدتنا أساساً أن لنا مقومات وقيم أصيلة ترسم ثقافتنا وشخصيتنا وفى ضوئها نأخذ وندع ، ولن يتحقق أبدا أن نكون تابعين أو مستوردين ، أو أن نذوب فى فكر الغرب .

ولعل أبرز ما أعطتنا يقظتنا العربية هى هذه القدرة على مواجهة الفكر الغربى دون استسلام له ، لقد أعطتنا القدرة على إسقاط « عقدة الأجنبى » وذلك ببلوغنا مداه فى الحضارة والمدينة والتقنية «التكنيك» . ومن هنا أصبح فى مقدورنا ألا ننظر إليه نظرة المغلوب إلى الغالب ، لقد توارت هذه النظرة ونشأ فى عالمنا العربى اليوم تيار ضخم قوى : أننا أمة لها مقوماتها وفكرها وقيمها أساساً ، وأن هذه المقومات قادرة على أن تقوم وتحيا ، وهذا هو سر مفهوم الثورة : « التحرر الفكرى من كل سيطرة أجنبية أو توجيه أجنبى » ولكنا فى نفس الوقت نعيش « بفكر مفتوح لكل التجارب الإنسانية » فلا نخشى أن نواجه كل أفكار الأمم وثقافاتنا فنحن ندرسها ونتنفع بكل الخبرات والتجارب العالمية والبشرية والإنسانية فى مجالات الاقتصاد والاجتماع ، ما دمنا ثابتين على قاعدتنا .

(الثالث) أن فكرنا العربى الإسلامى ليس أساساً فكر جامد ولا متخلف ، ولا متوقف عند الماضى ، ولا دافع إلى الارتداد . أو الرفض لمنطق الحياة والتطور ، بل هو متبلور حى قادر على الحركة ، مواجه للنهضات والثقافات ، قادر على الانتفاع بكل جديد يأخذ منها ويعطى ، لا يبعدها عنه بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد » وفوق ذلك فهو

مؤمن بأنه فكر تمترج فيه الروحية والمادية والعقل والقلب ، والحياة والآخرة ، إيمانه بالله ورسله ورسالاته القدسية لا يتزعزع .

(الرابع) أن وحدة فكرنا العربى الإسلامى هى مصدر الوحدة العربية أساساً ، وأننا فى ظل يقظتنا نحس بأن فكرنا العربى قد أخذ طريقه الحق ، المتعمق ، الحى ، على الطريق الذى كان قد عجز عنه فى خلال فترة الاحتلال ، ولذلك فهو قادر اليوم على أن يواجه حملات التغريب والشعوبية التى يقودها النفوذ الاستعمارى أساساً عن طريق منظمات وصحف مشبوهة تصدر فى بعض أنحاء العالم العربى ، وتهدف أساساً إلى مقاومة الوحدة العربية ، واليقظة ، والنمو والبناء الذى تقوم به بلادنا من أجل دعم العالم الثالث ، ودعم الأمة العربية فى مجال الحضارة والعلم والقوة والصناعة والاقتصاد وبناء الإخاء الإسلامى والرابطة الإنسانية ولذلك فنحن نرى أساساً أن حركة الشعوبية والتغريب هى بديل النفوذ الأجنبى والاستعمار ونحن نحاربها ونقاوم آرائها على هذا النحو .

(الخامس) نحن فى ظل يقظتنا العربية الواعية العصرية التقدمية ، سنبقى متحررين من كل المذاهب : مذاهب الجمود والتعصب أو مذاهب التحلل والإباحة والإلحاد ، وفكرنا هنا هو فكر الأمة الوسط ، يأخذويعطى على قاعدته الأساسية المستمدة من جوهر الأمة العربية فى مفاهيمها وتراثها وتاريخها وروحها وثقافتها ، فلن تنحرف مفاهيمنا ، ما دامت مستمدة من ميثاقنا ومنهجنا ، فنحن فى مرحلة ما بعد الاحتلال فى العالم العربى نجعل من تجاربنا ومفاهيمنا ضوءاً كاشفا وهاديا للطريق ، مرتبطا بقيمنا أساساً ، لا نذهب مذهب الجمود والتعصب ، ولا التحلل والإباحة ، نرى فى التغريب والشعوبية بديل النفوذ الأجنبى وأداته ، فقد تكشف أن كل حملات التغريب والشعوبية إنما تستهدف الوحدة العربية واللغة العربيةوالتاريخ العربىوتحاول الغضمن قدر أمةمتجددة تنشىء الحياة وتبنى فى مجال الحضارة والعلم والصناعة ، ومقاومتنا لهذه الحركة التى تلجأ إلى إذاعة بعض المذاهب الفكرية الغربية الجانحة ، إنما هو مقاومة أساساً لتيار مشبوه ، ولا زلنا نذكر كيف قال أشكول فى إسرائيل

أنهم يحاربون وجود لغة واحـدة فى الشرق الأوسط هى اللغة العربية أساس الوحدة الفـكرية وجوهرها .

وبعد فإن فـكرنا العربى المعاصر هو امتـداد معمق موسع تقدمى لفـكرنا العربى الإسلامى على قاعدة الحركة والقدرة على الأخذ والعطاء دون أن ننحاز أو نستورد أو نـكون تابعين ونحن فى طريق البناء نحاول أن نصحح الأخطاء ونرسم فلسفة تقدمية لفـكرنا العربى من خلال يقظتنا الجديدة البناءة .

(السادس) القومية والديمقراطية والاشتراكية نظرات منبعثة أساساً من فـكرنا العربى الإسلامى ، ولها جذور أصيلة فى مقومات فـكرنا ، ونحن اليوم نعاملها باعتبارها قيما إنسانية أساسية للفـكر الإنسانى كله ، وقد كانت واضحة الدلالة فى فـكرنا ، ومن هنا فنحن لا نأخذ مفاهيم الفـكر الغربى لها ولا نعتنق تفسيراته ، وإنما نحن نستمد مقوماتها من واقعنا وفـكرنا وتراثنا أصلا ، وليس لنا أن نشجبها وإلا كنا متخلفين عن تطور فـكرنا أصلا قبل تطور الفـكر الإنسانى الذى استمد مفاهيمه للقوميـة والديمقراطية والاشتراكية من فـكرنا العربى الإسلامى أساساً ثم نماه ، وتطور به مع تطور الزمن والحضارات وجريان النهر البشرى الذى لا يتوقف عن الحركة والحياة . ومن ناحية أخرى فإن عمق فـكرنا ووضوح مقوماته وشمولها يقضى على التعارض الذى يواجهه الفـكر الغربى فيما بين هذه المذاهب .

* * *

هذه بعض المعالم التى تـكشف عنها دراسة هذه الفترة ، وهى كما قلت فترة لم تبعد بعد عن نظر الباحث المعاصر حتى تـكون الأحكام فيها سديدة ومقررة . وليس عملنا إلا إلقاء الضوء على الواقع ورسم صورة له . ولا شك أن الصورة تعطى فـكرة واضحة ، قوامها : أن الفـكر العربى قد انتقل إلى مرحلة جديدة . وأن المرحلة السابقة قد أوشكت على أن تنتهى ، وأن المرحلة الجديدة واضحة فى أنها أكثر اتصالا بروح العصر مع الاعتماد على الجذور ، وأكثر تعميقا لهذه الجذور ، وأكثر استنارة فى فهمها والأخذ منها ، وتعميمها ، وأنها تؤمن أساساً بأنها لا تتلقى من الفـكر الغربى تلقى التابع أو المستورد أو غير القادر ، وإنما يقودها إيمان

بحقها فى أن تأخذ الحضارة فقد ساهمت فى بنائها أصلا وكان لها دورها ، وهى تفرق بين الحضارة والثقافة ، أما فى مجال الفكر فهى تؤمن بأن لها فكراً له طابعه ومعالمه وشخصيته ، وأنها ليست مستعدة للتفريط فيه ، هذا الفكر نفسه وعلى قاعدته نستطيع أن نتقبل بحرية وطلاقة تجارب الفكر الإنسانى وندرسها ونأخذ منها وندع ، بما يتفق مع مقوماتنا وحاجتنا وظروف الزمان والمكان .

ولا شك أن الفكر العربى المعاصر فى عصر التحرر من الاستعمار والتجمع للوحدة قد بدأ يصحح مفاهيمه ، ويكشف روح التغريب والشعوبية ويشجبهما ، وهو يحاول أن يشق طريقه حثيثا ، بعيدا عن أخطار التعصب والجمود من ناحية والتحلل والإلحاد من ناحية أخرى ملتزما بمقومات فكره الأساسية : امتزاج الروح والمادة والعقل والقلب .

وهو بسبيل التقدم خطوة أخرى ، هذه هى خطوة العطاء وتقديم عصارة فكره للانسانية التى تتطلع إلى ضياء جديد ، سيكون مصدره بحق هذا العالم الأوسط المتمثل فى الشرق العربى الإسلامى وفكره العربى الإسلامى ، هذا الفكر الإنسانى الوسط .

عناصر البحث

أولا : مقومات الفكر العربى ومعطياته .

ثانيا : مقومات الفكر الغربى ومعطياته .

ثالثا : التغريب والشعوبية الفكرية الحديثة .

رابعا : نحن والحضارة الغربية .

خامسا : نحن والفكر الغربى :

دراسات مقارنة : للثقافة والدين والتراث والتاريخ واللغة والأدب والقومية والأجناس بين الفكر العربى والفكر الغربى .

الكتاب الأول

الفكر العربى الإسلامى

(مقوماته ومعطياته)

مقومات الفكر العربى الإسلامى

يتميز الفكر العربى الإسلامى فى مقوماته، ويختلف عن فكرين واضحين فى مقوماتهما فى العالم الحديث : أولها « فكر الغرب » . وثانيهما « فكر الشرق » .

فالفكر الغربى الذى قام أساساً فى أوربا وامتد إلى أمريكا له طابعه ومقوماته ومفاهيمه الأساسية التى تتمثل فى مزيج من الوثنية الأغريقية والمسيحية الغربية المستقاة من المسيحية الأصيلة ، ويتمثل جوهر هذا الفكر فى « المادية » العلمانية الخالصة . وإلى هذه المنابع ترد كل اتجاهات الفكر الغربى ومفاهيمه .

وفكر « الشرق » الذى قام أساساً فى أواسط آسيا وامتد إلى الصين واليابان يقوم على أساس الروحية الخالصة ممثلة فى فلسفات وديانات البوذية والهندوكية والكنفوشيوسية وغيرها . وهو فكر يؤمن بالروحية الخالصة جوهرا لكل مقوماته ومفاهيمه الأساسية .

أما « الفكر العربى الإسلامى » فهو فكر العالم الإسلامى وقوامه الأمة العربية وتركيا وإيران وأفغانستان والباكستان وأندونيسيا وأفريقيا ومجموعة من يتكلمون اللغة العربية أو يدينون بالإسلام فى هذه المنطقة الممتدة فوق أفريقيا وآسيا والتى تتوسط المجموعتين الأخريين من حيث المكان والجغرافيا والمناخ ، وتتوسطهما أيضا من حيث مفاهيمها وقيمها التى تجمع بين الروح والمادة وتمزج بينهما وهى الأمة الوسطى والقارة الوسطى.

فإذا قيل أن الفكر العربى الإسلامى هو الفكر « الأوسط » فإن ذلك يكون مساويا لما يقال من أنه يعيش فى المنطقة الوسطى من العالم « وكذلك جعلناكم أمة وسطا » .

* * *

وهو فكر إسلامى عربى لأنه مزيج من الإسلام واللغة العربية . فهو فكر أساسه الإسلام وجوهره « التوحيد » وطابعه ذلك المزيج الجامع للروح والمادة ، والعقل والقلب ، والعلم والدين ، والدنيا والآخرة ، والحياة والموت ، وهو فكر موحد لا يقبل النظرة

الجزئية وإنما يقوم على النظرة الكلية أساساً ،وقوام هذا الفهم أن الإسلام ليس دينا فحسب ، بل هو دين وفكر وحضارة ومجتمع ،فالدين بمعناه العلمى جزء منه ولكنه ليس هو كله. «واللغة العربية » هى مادة هذا الفكر ووعاؤه وهى رمز على هذه الأمة التى نشأ فيها ومنها امتد إلى العالم كله ، فمضى شرقا إلى الصين ومضى مغربا حتى عبر إلى الأندلس .

والعروبة والإسلام شقين لحقيقة واحدة ، يكمل كليهما الآخر فليس يضير أن يتسمى باسمهما معا ، حتى لا يفهم أنه فكر عربى « قومى » يدحل فيه العرب وحدهم ، وحتى لا يوصف بأنه فكر إسلامى يقوم على الإسلام وحده ، ذلك أن الفكر العربى الإسلامى فى الحق هو عصارة فكر الأجيال والثقافات المختلفة التى عاشت فى هذه المنطقة ، وهو مزيج من ثقافات الفرس والهند والرومان واليونان والمسيحية التى تبلورت كلها فى بوتقة واحدة ، وحملت طابع الإسلام الذى ليس دينا فحسب ،ولكنه فكر وحضارة ومجتمع؛ ومن هنا كان هو فكر كل الأديان والثقافات والأمم والشعوب التى عاشت تحت اسم العالم الإسلامى وما تزال تعيش — من مسيحيين ويهود ، من فرس وترك وأفغان وهنود وجاويين وغيرهم .

ومن هنا لا ينطبق على الإسلام ما ينطبق الأديان الأخرى التى تعرف فى الفكر الغربى باسم «اللاهوت»أو مجموعة الطقوس والعبادات... وتتمثل فيها الأنظمة الكهنوتية،والمقارنة هنا بين الدين والإسلام مقارنة بين الجزء والكل ،فالإسلام يحمل فى كيانه جزئية هى « الدين »ولكنه إذا ورد اسمه « الإسلام » فليس يعنى الدين وحده وليس يمكن وضعه موضع المقارنة مع المسيحية أو اليهودية أو البوذية .

* * *

وإذا قيل الفكر العربى الإسلامى فليس ذلك يمنع أن يكون مكتوبا بالفارسية أو التركية أو الأوردية أو غيرها من اللغات المبثوثة فى العالم الإسلامى والتى بدأت متصلة باللغة العربية أو مكتوبة بحروفها أساساً ، فإن جوهر هذا الفكر هو أساساً « عربى إسلامى » بمفاهيمه ومقوماته التى تتمثل فى امتزاج الروحية والمادية أساساً ، وهذا هو ما يكشف عن طابعه المتميز عن الفكر الشرقى والغربى على السواء .

ولعل أبرز الأزمات التى مرت بالعالم الإسلامى إنما جاءت من الفصل بين هذه القوى المتلاقية الممتزجة فى كيانه ، فإذا غلبت المادة تقلصت الروح ، وإذا امتد العقل تقلص

الضمير ، أو العكس ، فهنا يقع الاضطراب الذى يبعث على التخلف ، والهزيمة .

ولقد كان جوهر فكرنا المتمثل فى الروحية والمادية ممتزجتين هو سر الأسرار فى كل ما عرف عن الفكر العربى الإسلامى من تجدد وانفساح واتساع فى آفاقه على نحو بهر الباحثين والمؤرخين ، حيث لم تبلغ حضارة من الحضارات ما بلغه فى التوسع فى زمن قليل لا تزيد عن قرن من الزمان .

كذلك كان لجوهر فكرنا الأثر الواضح فى البقاء والحياة والاستمرار بالرغم من اضطراب الدولة وسقوطها تحت سلطان الغزاة : التتار والصليبيين والاستعمار الحديث .

فهذه النظرة الكاملة الشاملة للمادى والمعنوى معا ، هى سر القوة والحياة ، ومنها يصدر ذلك الروح الواضح من القدرة على المقاومة والتحدى للغزاة ومنها تتمثل الملامح الاستقلالية الذاتية التى تطبع الأمة بطابع لا يمكن أن يندمج أو يذوب أو يضيع فى غمار المذاهب والنظريات التى يحملها الفكر البشرى من الشرق أو الغرب .

ومن هنا كان إصرار النفوذ الغربى على غزو هذا الفكر للقضاء على طابعه الأساسى فى امتزاج الروحية والمادية الممتزجة فيه بطابع الفكر الغربى « المادى الخالص » ومن هنا نشأ الصراع بين الفكر العربى الإسلامى وبين دعوات التغريب التى تحاول أن تحل مفاهيم غربية لقيمه الأساسية أو تحل قيما غربية مكان القيم التى يحملها الفكر العربى الإسلامى .

ولعل أخطر ما حمل عليه الفكر العربى الإسلامى هو « جزئية النظرة » لتحل محل النظرة الكلية الشاملة التى هى طابعه الأصلى ، والتى تحول دون تجزئة الأحكام بين النفس والاجتماع أو بين الدين والتربية أو بين الأدب الخلق على النحو الذى يتمثل فى النظرة الغربية .

فالفكر العربى الإسلامى يؤمن بقاعدة الأساس الممتزج من الروح والمادة والتوازن المتسق بين العقل والروح ، فحيثما توقف إشعاع الروح تجمد إشعاع العقل .

ولا يوجد قطاع من الفكر العربى الإسلامى يمكن فهمه لو أخذ بمفرده وعزل عن



القطاعات الأخرى ، وأى جزئية لا يمكن فهمها وتفسيرها إلا إذا درست متصلة اتصالا وثيقا بالأجزاء الأخرى ، ذلك أن بناء الفكر العربى الإسلامى يقوم على رابطة أساسية تمثل الهدف وهو بناء « الإنسان » فلا بد من الترابط بين الجوانب المختلفة ، فى أى قضية فنحن لا نستطيع أن ندرس الأدب دون أخلاقيته ، ولا ندرس التربية منفصلة عن روح الدين ، ولا نحل مشكلة ما دون تقدير جوانبها الاجتماعية والنفسية والروحية والعقلية فى وقت واحد . وهنا يبرز جوهر الفكر العربى الإسلامى الذى يمزج فى تفاعل بين القيم الروحية والمادية ولا يفصل إحداها عن الأخرى .

أبرز مقومات الفكر العربى الإسلامى أنه يمثل الإنسان كائنا حيا محبا للحياة يعمل لدنياه كأنه يعيش أبدا ويعمل لآخرته كأنه يموت غدا ، فى ظل من الأخوة والمحبة ، مع إيمان بالله وإيمان بسيادة الإنسان على الكون تحت ظل الله بوصفه صاحب الخلافة فى الأرض .

وتتلاقى فى الفكر العربى الإسلامى : العاطفة والعقل ، الروح والمادة ، العلم والدين ، الفكر والشعور ، النفس والجسم ثم يظهر طابع الأخلاقية العليا واضحا فى الاتجاه نحو الإنسانية والمجموع أكثر من الاتجاه نحو الفردية والذاتية والتضحية بالنفس فى سبيل الكل ، ومقاومة الغاصب وجهاد المعتدى ، مع زهاده فيما ليس ملكا له أو حق وتقدير للشرف والفضيلة والصداقة . واستعداد للجود بما يملك ،وإقامة العدل الاجتماعى وإقامة بنيان المجتمع على أساس التضامن والمساواة .

وجوهر الفكر العربى الإسلامى يجمع بين المحافظة والانطلاق ، والتحليل والتأليف ، والمثال والواقع والبساطة والوضوح . يحب القصد « لا وتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط » . ينظر فى كل شىء بفكر مفتوح وبغير عقيدة مسبقة وينقده ولا يراه مقدسا فوق النقد ، لا تقوم نظرته إلا على الاقتناع العقلى مع لإيمان الروحى . يمزج بين القيمة والمصلحة . له قدرة كاملة على الحركة ومع الحيوية له القدرة على الامتصاص مع سعة فى الأفق ، واعتدال الملكات فيه البساطة مع المرونة ، وله القدرة على الأخذ والعطاء ، والقدرة على التأقلم ، يربط بين الماضى والحاضر ، آفاقه مفتوحة على الثقافات والحضارات والمذاهب ، يرى الحكمة ضالته أنى وجدها ، ويرى الموت فى الحق هو عين البقاء ، قادر أن يقول لا إذاسيم الخسف ، الإنسان عنده ليس إمعة يجرى مع التيار ، ولكنه قادر دائما على أن يقول أحسنت وأسأت ثم هو يجمع بين الحق والعدل والخير

ويتمثل جوهر الفكر العربى الإسلامى فى الاستعلاء على فوارق الجنس واللون والعنصر، مع الإيمان بالعلم والبحث« طلب العلم فريضة »،اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد،يتصل بالثقافات اتصالا حراً لا تحده قيود إلا الحفاظ على مقوماته وشخصيته . يؤمن بالحركة على الأساس الثابت لا يقر العبودية الفكرية ولا التبعية ، تمتزج فيها الإنسانية بالإقليمية .

ويتمثل طابع الفكر العربى الإسلامى فى حرية العقل وسعة الأفق ، واعتبار التاريخ مرآة واللغة أساس ، مع القدرة على الهضم والتمثل والامتصاص ، فى ظل التقاء الملكات واعتدالها ودون تعارضها ومع التعاون على البر والحق ، والوفاء بالعهد والإنسان سيد الكون تحت حكم الله ؛ وسيادته ليست سيادة مادية ، بل سيادة القيم الإنسانية من العدل الحرية إلى الإخاء والمساواة . والانسجام بين الفرد والمجتمع ورق النفس عنده يجرى مع الرق المادى .

وفى مجال العلم قوامه الإيمان بالتجربة «قل هاتوا برهانكم» حيث يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء: وفى كل نظرة : الاعتدال . الخلق . الكرامة . العفة ، العرض ، الشرف ، الشورى . لا إسراف ، لا انحراف ، لا تعصب ، لا تفرقة عنصرية . لا تفنى شخصية المرأة فى شخصية الرجل ، لا يقدم الرجل المرأة كالرقيق لمتعته وفائدته المادية . التكامل والتكافل والزكاة والعدل فى الاقتصاد والاجتماع . وضوح سلطان العقل على البدن والغرائز ، المنزلة الوسطى ، لا عقوبة بلا مسئولية ، الإخاء والمجد والسلام ، لا شىء يفرض بالقوة ولكن بالاقناع والبرهان .

وهكذا يقدم الفكر العربى الإسلامى نظرة كاملة للحياة والإنسان على أساس الالتقاء والامتزاج بين الذهن والقلب والروح والمادة ، فالفكر العربى الإسلامى لا يحتقر الحياة ولا الأمور المادية ، ولا يذهب مغربا إلى الروحيه والغيبيات . وهو يدعو إلى الاتصال بالحياة والارتباط بها والتفاعل معها دون أن يتجاوز حد القصد والاعتدال . وفق مثل أعلى رفيع . مع استعلاء على النفعية والرهبانية على السواء ، يقيم أحكامه على أساس العقل والعدل . ويوفق بين الاتجاهات المتقابلة ويجمع بين الدنيا والدين . على أساس الزهد فى مجال الثراء ، والإباء فى مجال الفقر ، فى انسجام والتقاء متكامل .

هذه لمحة من المقومات التى تكون « قاعدة الأساس » فى بناء الفكر العربى الإسلامى المتفتح القابل للالتقاء بالفكر الإنسانى فى مختلف مذاهبه وأفكاره ونظرياته ، القادر على أن يأخذ منها ويدع ، ويجرى فى مجال الحياة والتطور دون أن يتوقف أو يجمد ، وهذا عندى سر بقائه واستمراره حيا متفاعلا بالرغم من سقوط الدولة التى كانت تحمل اسمه .

ومن هذه النظرة يتكشف لنا أنه من العسير جداً أن يذوب الفكر العربى الإسلامى فى الفكر الغربى أو الشرقى أو يتخلى عن أساسه الأصيل ، وهو امتزاج الروحية بالمادية ، هذا الأساس الذى تقوم عليه النظرة الشاملة فى مختلف مجالات الاجتماع والسياسة والدين والفكر والنفس والتربية .

معطيات الفكر العربي الإسلامي

استطاع الفكر العربي الإسلامي أن يقدم للفكر العالمي والحضارة الإنسانية الخطوط العريضة للثقافة والعلم والفن ، بعد أن تبلورت في بوتقته عصارات الثقافات اليونانية والرومانية والفارسية والهندية ، وأن يخلق من هذا المعطيات المضافة إلى أصوله الأساسية فكراً واضح المقومات والقيم .

ولم يكن الفكر العربي الإسلامي ناقلا أو مترجما فحسب ، بل ومبدعا وبانيا وفي خلال هذه المرحلة التي تسلم الفكر العربي الإسلامي فيها أمانة الحضارة ، فاستطاع أن يضيف كثيرا من الثمرات وأن يبدع الجديد أيضا ، وكانت أبرز معطياتنا هي طبع الحضارة بطابع سيادة الخلق ومبادىء الشرف ومعاني العدل والإخاء والتكافل الاجتماعي . وكان الرقي في نظرنا هو تغلب الإنسان على المادة وعلى أهوائه في نفس الوقت .

ولعل أبرز ما أعطى الفكر العربي الإسلامي للحضارة الحديثة « المنهج العلمي » فالعرب المسلمون هم أول من وضع قواعده وأسسه ، وطبقوها تطبيقا كاملا على كل ما إتصل بهم من قضايا الفكر . وقد كان الإسلام في أسسه الأولى والقرآن في مطالع آياته قد دعا إلى « البرهان » في كل قضية ، ومن هنا نشأ في مجال الفكر العربي الإسلامي ما يسمى بالبحث عن الدليل ، مع النهي عن التقليد ، وتحرير النص بعد مراجعته ومطابقته للعقل مع إقرار مصدره .

وقد وصل الفكر العربي الإسلامي في ذلك إلى غايته نضوجا وقوة فحينما ترجمت آثار اليونان والإغريق لم يأخذها المفكرون العرب والمسلمون قضايا مسلماً بها ولكنهم ناقشوها وراجعوها ، وقبلوا منها ورفضوا . فابن سينا يخالف أرسطو وأفلاطون وغيرهما في كثير من النظريات والآراء فلا يتقيد بها ، بل يأخذ منهما يقتنع به ويوافق مزاجه الفكري ويزيد عليه ، وعنده أن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس ، ولذلك فهو لا يتقيد بآراء من سبقوه بل يبحث فيها ويدرسها ويعرضها على المنطق والعقل ، وعبارته مشهورة

حيث يقول « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا » .

وابن رشد يمضى فى طريق البحث العلمى خطوات أشد عمقا واتساعا، فيدعوا إلى النظر فيما قدمته الأمم وفق شرائط البرهان ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم .

وابن الهيثم والبيرونى يصلان فى هذا إلى المدى[1] البعيد ، ويضع القاضى عياض « علم المصطلح فى الحديث » متحريا الدقة فى التفكير والاستنتاج وقد سار « النظام » فى بحوثه على أساس الشك والتجربة، فاعتبر الشك أساسا للنجح ، وأشار إلى ذلك أبى هاشم البصرى والجاحظ ودعا جابر بن حيان إلى إجراء التجربة ، وقال أن المعرفة لا تحصل إلا بها ، وللجاحظ وابن حزم نظرات فى هذا المجال تستطيع بالإضافة إلى ما سبق أن تكون فى مجموعها أسس البحث العلمى كما عرفه الفكر العربى الإسلامى على نحو تطبيقى لا نظرى، قوامه : الاستقراء والقياس والتمثيل . مع قصر البحث العلمى على المشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجارب وربطها وتبويبها. ثم ربط الحقائق المستخلصة منها على النحو الذى يجعلها قانونا طبيعيا أو نظرية علمية ثم استنباط النتائج التى تفضى إليها وبحث صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع .

وقد نضج هذا المنهج على يد ابن الهيثم) ١٠٣٩ م وسبق به فرنسيس باكون ١٦٢٦م ويرى قدرى طوقان ومصطفى نظيف وغيرهم من العلماء المعاصرين أن ابن الهيثم لم يسبق بيكون فحسب ، ولكنه سما عليه فقد كان أوسع منه أفقا وأعمق تفكيرا .

وقد أشار إلى ذلك منصف من الغرب هو الأستاذ بريفولت الذى قال « إن ما ندعوه العلم فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات إلى صور لم يعرفها اليونان وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربى .

وقال بريفولت أن روجر بيكون قد نقل مذهب العرب فى البحث العلمى بعد أن درس

---

(١) راجع فصل البحث العلمى فى الفكر العربى الإسلامى .

اللغة العربية والعلوم العربية الإسلامية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه فى الأندلس، وليس لروجر بيكون ولا لسميه فرنسيس بيكون الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلامى إلى أوربا المسيحية . وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه اللغة العربية وعلوم العرب بوصفها الطريق الوحيد لمعرفة الحق » .

* * *

ومن عشرات الشهادات المنصفة يتبين أن الفكر العربى الإسلامى كان مبدعا؛ شهد بذلك : لاروملاندو .ليبرى .كاجورى . هوى لين . جول لابوم ،وليم أوسلر ، سارطون ، ماكس مايرهوف . برنارد لويس ، درابر ، بريفو ، ديلاس أوليرى . سيديو . لونجى ربنالدى . دولامبر ، جوستاف لوبون » هؤلاء جميعا شهدوا بفضل الفكر العربى الاسلامى على علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والكيمياء والنبات والآداب والفنون والفلسفة والموسيقى .

وملخص شهاداتهم: (١) أن العرب المسلمين عرفوا التشريح ومارسوه (٢)الأطباء العرب المسلمون فى القرن العاشر يعلموا تشريح الجثث فى قاعات مدرجة خصصت لذلك فى جامعة صقلية(٣)ابن النفيس الدمشقى المصرى اكتشف الدورة الدموية ونقلها(هارفى) (٤) الكشافة العرب والمسلمون اكتشفوا أمريكا عام ١١٠٠م قبل كولمبس ١٤٩٢م .

(٥) الفكر العربى الاسلامى لم ينسخ من المصادر اليونانية والسنسكرينية نسخا ولكن رجاله جمعوا بين المصدرين ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية (٦) علم الضوء أسدوا إليه عظمة الابتكار ، و كذلك علم المثلثات(٧)الفكر العربى الإسلامى علم العرب أن يضعوا العقل أولا(٨) اكتشفوا وجود العدوى وطبيعتها لأمراض الجدرى والطاعون والكوليرا .

(٩)حتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش فى جامعة مونبليه بفرنسا ، وقد عاشت جامعات الغرب خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة،(١٠)أن العرب هم الذين

مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق وهم الذين علموا العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين (١٠) عد (لكرك) فى تاريخ الطب العربى ثلاثمائة كتاب نقلها الغرب من الفكر العربى الاسلامى إلى اللاتينية .

(١١) اخترعوا الساعات الدقاقة والزوالية واكتشفوا قوانين نقل الأجسام(١٢) عرفوا تركيب النار اليونانية(١٣) أول من استخدم البوصلة فى الملاحة(١٤) واكتشفوا الإبرة المغنطيسية ، (١٥) وضعوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات(١٦) سجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقار لم يعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار والألف اكتشفها العرب ١٧) عللوا صعود الماء فى العيون ،(١٨) بحثوا فى الصوت وعللوا حدوث الصدى ،والجذب فى المغناطيس(١٩) ودرسوا نظرية النشوء والترقى وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن(٢٠) أنشأوا المراصد واخترعوا إلى الاسطرلابات الدقيقه ، وحسبوا طول السنة الشمسية . وصححوا أخطاء بطليموس(٢١) وضعوا أسس علم الكيمياء ومارسوا التقطير والترشيح(٢٢) فتت الأطباء العرب المسلمين لأول مرة الحصى فى المثانة وسدوا الشرايين النازفة واستعملوا المرقد (المخدر) فى العمليات الجراحية .

(٢٣) صححوا آراء بقراط وجالينوس فى التشريح ووظائف الأعضاء(٢٤) عرفوا «الصفر» ولم يعرفه الغرب إلا فى القرن الثانى عشر .

* * *

كما قدم الفكر العربى الإسلامى فلسفات الاجتماع وأصل الأنواع فقد سبق (ابن مسكويه) دارون إلى نظريتى أصل الأنواع والتطور ،فقد ذكر ابن مسكويه فى كتبه نشوء الحيوان من النبات ، وأن الإنسان ناشىء من آخر سلسلة البهائم « وأنه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقى حتى رتبه أعلى من مراتب البشر » كما سبق ابن خلدون ادم سمث فى نظرية قوانين الاجتماع .

وقد تأثر دانتى فى قصته « الكوميديا الآلهية » بالمعرى فى رسالة الغفران .

وسجل الفكر العربى الإسلامى أوليته فى مجال كتابات المكفوفين التى عرفت

بالحروف البارز سجل ذلك على بن أحمد بن يوسف الآمدى فى مؤلفاته وذكره صلاح الدين الصفدى فى كتابه نكث الهميان فى نكث العميان .

وسبق أبو بكر الطرطوشى فى التأليف عن سياسة الملوك الكاتب الإيطالى (ميكافيلى) وكتاب الطرطوشى (سراج الملوك) مصدر الكتاب (الأمير) وسابق له بخمسة قرون فقد اكتشف الباحثون أن معظم مواد كتاب الطرطوشى قد نسقت فى كتاب الأمير .

* * *

وكان للفكر العربى الإسلامى أوليته فى الموسيقى ، واعترف الدكتور هنرى فارمر فى بحثه عن تاريخ الموسيقى العربية (١٩١٤) بفضل العرب المسلمين على نظرية الموسيقى العربية وأن ابن سينا والفارابى وغيرهم من علماء المسلمين قد زادوا على الموسيقى اليونانية وأدخلوا تحسينات واضحة ، وأثبت أن العرب أجادوا فى بحوث التموجات الكريه للصوت . وأن العرب أضافوا آلات جديدة ، وابتكر الفارابى الآلة المعروفة بالقانون وهو أول من ركبها هذا التركيب الذى لا تزال عليه حتى الآن . ويرجح فارمر أن الكندى أول من كتب نظرية الموسيقى ، ويذهب إلى نفس الحقيقة الدكتور أدموندو كورايا لوبس فيقول إن الموسيقى العربية هى أم الموسيقى الأسبانية . وإن أسبانيا هى أم الموسيقى العالمية .

وأعلن المستشرق خوليان ريباراً أن موسيقى القرون الوسطى ترجع إلى أصل عربى .

* * *

والواقع أن هــذه الحقائق تكفى للرد على الاتهامات التى وجهت للفكر العربى الإسلامى بأنه تراث Legacy ولا شك أن كلمة «التراث» تعنى ما تخلفه الحضارات البائدة والثقافات المنقرضة ،وقد ينطبق ذلك على تراث الاغريق والرومان والفراعنة ، لأن مدنية هذه الشعوب ولغاتها قد انتهت ، أما الفكر العربى الإسلامى فما زال حيا باقيا وقد اتصل بالثقافات المختلفة اتصالا حراً ، لم يقيده نفوذ ولم يفرض عليه اخيتار ، فامتص واقتبس ما ناسب مقوماته الأساسية . ثم خطا به خطوات ، وابتدع فنونا جديدة ، ولقد كان هدف الفكر العربى الإسلامى أساساً هو تحرر الإنسانية من الوثنيات وكان طابعه التقدم

فى مجال العلم مع سيادة الخلق والعدل والحق وفق قاعدة تـكريم الإنسان ورفع قدره ، وعلى نحو لا يجعله عبداً للمادة فظل هو المسيطر عليها .

والواقع أننا فى حاجة إلى أن نفهم مدى دورنا وقوة معطياتنا للحضارة الإنسانية والثقافة والفـكر العالمى . وسنجد أن أوليات الفـكر الإنسانى وبذور العلوم والثقافات قد بدأت فى حصانة فـكرنا فإذا هى عادت إلينا اليوم فإنما ذلك حق فى دورة التاريخ ، وقد شاركنا أساساً فى إبداعها والإضافة إليها .

* * *

ولقد حاول كثير من الباحثين إنـكار مرحلة الحضارة العربية الإسلامية وردد القول بأن (الحضارة الرومانية) انتهت فى القرن الرابع الميلادى وأن (الحضارة الغربية) بدأت فى القرن الرابع عشر وأن فترة الألف عام فى عمر الإنسانية كانت فترة القرون الوسطى المظلمة (٤٧٦ — ١٤٥٣) والواقع أن هذه الفترة كانت فترة ظلام وركود وانحطاط بالنسبة لأوربا والغرب وحده ، أما بالنسبة للعالم العربى الإسلامى فقد كانت فترة يقظة وضياء لا حد له ، فقد ظهر الإسلام فى هذه الفترة واتسع نطاق اليقظة وامتد حتى بلغ الصين شرقا والأندلس غربا وزحف على أوربا نفسها وكاد أن يطوقها .

وقد اعترف الباحثون المنصفون : جوستاف لوبون ، لويجى رينالدى ، برنس دافن ، سيديو ؛ بأن الفـكر العربى الإسلامى قام كالمنار المضىء فى القرون الوسطى الأوربية فأعاد نور الحضارة والمدنية .

يقول لوبون « كان تأثير الإسلام والعرب فى الغرب عظيما ، وإليهم يرجع الفضل فى حضارة أوربا ، فإذا ما رجعنا إلى القرنين التاسع والعاشر للميلاد يوم كانت المدنية الإسلامية فى أسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بأنهم أميون ،لا يقرأون ولا يكتبون وكانت الطبقة العامة المستنيرة عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت بالتـكسب فى ديارهم بنسخ كتب القدماء .

وطال عهد الجهالة فى أوربا ولم يبد منها بعض الميل للعلم إلا فى القرن الحـادى عشر

عند ما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة إلى نفض كفن الجهل الثقيل ، فطرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذلك العصر ، وما عرفت القرون الوسطى المدنية إلا بعد أن مرت من لسان أتباع محمد ، فإلى العرب وإلى العرب وحدهم لا إلى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى اللغة اليونانية يرجع الفضل فى معرفة الأقدمين والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز الثمين » .

* • *

وقد أشار الأستاذ ماكييل فى كتاب (تراث الإسلام) إلى أن أوربا مدينة للفكر العربى الإسلامى بنزعتها المجازية الحماسية **Romance** وقال : إننا مدينون لبطحاء العرب وسورية بمعظم القوى التى جعلت القرون الوسطى مخالفة فى الروح والخيال للعالم الذى كانت تحكمه روما ، وقال إن القصة الأوربية فى نشأتها قد تأثرت بما كان عند العرب من فنون القصص فى القرون الوسطى وهى المقامات ومغامرات الفرسان ويرى كثير من النقاد الأوربيين أن رحلات جيلفر التى ألفها سويفت ورحلة روبنسون كروزو التى ألفها ديفوى مدينة لألف ليلة وليلة ورسالة حى بن يقظان .

وقد أشار برتراند رسل فى شأن مقام الفكر العربى الإسلامى من العلم إلى « أن العرب كانوا أميل إلى التجريب من الإغريق وخاصة فى الكيمياء » .

* * *

وإذا كان كتاب « التغريب » الذين يحملون لواء الخصومة الجاحدة للفكر العربى الإسلامى قد هاجموا معطيات هذا الفكر فإن الانصاف قد وجد طريقه إلى أقلام كثير من الباحثين الغربيين الذين حاولوا أن يقولوا كلمة الحق . وفى مقدمة هؤلاء الكاتبة الدكتورة سيجردهونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) .

ولعل أبرز ما تنبهت إليه الكاتبة المنصفة تصوير مدى الفوارق العميقة بين الفكر العربى الاسلامى والفكر الغربى تقول :

« إنه لمن السخف أن تعيش العبقرية العربية الإسلامية على مقياس العبقرية الإغريقية وتلومها لافتقارها إلى التعليل الفلسفى للكون . إن لكل عبقرية طابعها الخاص وطريقتها الخاصة ، وأن مأثرة الفكر العربى الإسلامى الخالدة لتقوم فى تطويرهم بواسطة المشاهدة والتجربة بالمعنى الدقيق للكلمة ، وهم الخالقون الحقيقيون للاستقصاء العلمى ، فقد كانوا أول من جعل من الوقائع المعزولة عن متنها نقطة الانطلاق لكل بحث ، وعندئذ أصبح الارتقاء الصبور من الخاص إلى العام أو من الطريقة الاستقرائية إلى الطريقة العلمية الأساسية .

إن المنجزات التى حققها رواد العلم العربى على أساس المشاهدة والتجربة سوف تحدد الحركة الأولية لتحرر الفكر الغربى عن طريق روجر بيكون وألبير الكبير وليوناردو دى فنسى وغاليلوس . . » .

ويقول : لشد ما يغبن حقهم حين يكتفى بالقول أنهم نقلوا التراث القديم إلى العالم الغربى بعد ما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى فى الواقع التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير . والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى الغرب مدموغة بآثارهم .

الكتاب الثاني

الفكر الغربي

مقوماته ومعطياته

مقومات الفكر الغربى

من المعتقد أن « الحضارة » غير « الفكر » وأن الحضارة ملك مشاع للانسانية من حق كل الشعوب والأمم أن تأخذ منها ما تشاء . فهى متصلة بالحياة والاختراعات والآلات والعلوم التجريبية .

أما « الفكر » فيختلف عن ذلك ، ويرتبط أساساً بالنفس الإنسانية فى ميولها وقيمها ومفاهيمها الروحية والاجتماعية والعقائدية . ولذلك فليس من السهل أن ينقل كالحضارة . وإن كان من الحقائق المقررة أن الثقافات الحية تكون مفتوحة دائماً على الثقافات الإنسانية تأخذ منها وتعطى على قدر ما تمدها بالقوة والحيوية والتطور . وتجعلها مضطردة النمو والاستمرار مع موكب الحياة الذى لا يتوقف . ولكل فكر « مقوماته الأساسية » التى لا تتحول عنها ، هذه المقومات التى امتدت من القرون الطويلة وتكونت نتيجة للذوق والضمير والبصيرة والروح الأصيلة للأمة أو القوم . ولقد تأكد بصورة قاطعة أن هناك ثلاث ثقافات أساسية فى العالم الحديث تبدو كل منها ولها طابعها الواضح الصريح .

× الثقافة الغربية (بشطريها المادى والماركسى) .

× الثقافة الشرقية .

× الثقافة العربية الإسلامية .

وفى تفريق شامل أساسى سريع يتبين : أن الثقافة الغربية أساسها مادى خالص ، وأن الثقافة الشرقية أساسها روحى خالص ، وأن الثقافة العربية الإسلامية أساسها مزيج متفاعل من المادة والروح . ومن هنا يتبين مدى اختلاف وجهات النظر فى المقومات الأساسية للفوارق بين الثقافات الثلاث .

وإذا كان هناك مصدر لهذه الثقافة أساساً فهى الأديان والمعتقدات وتراث الأدب والفن والفلسفة ، أما الثقافة العربية الإسلامية فقد قامت أساساً على مفاهيم الإسلام بوصفه دينا

وثقافة ونظام حياة كما قامت الثقافة الغربية على مزيج من المسيحية الشرقية والوثنية الاغريقية والعلم الحديث . أما الثقافة الشرقية فقد قامت على أساس مفاهيم الدينين الكبيرين: البوذية والكنفوشيوسية .

ويمكن القول بأن الثقافة الغربية تتمثل فى أوربا وأمريكا وأن الثقافة الشرقية تتمثل فيما يطلق عليه الشرق الأقصى وهى الأجزاء غير الاسلامية والعربية من آسيا .

وأن الفكر العربى الاسلامى يتمثل فى المنطقة الوسطى التى تتكلم اللغة العربية (العالم العربى) أو التى تدين بالاسلام (العالم الاسلامى) .

* * *

وعند ما تنعقد المقارنة بين الثقافتين العربية والغربية يتبين مدى الاختلاف الجذرى بينهما بحيث لا يمكن التقائهما فى أساس . وإنما يمكن تبادل الامتصاص أو الاقتباس بين الثقافتين من جوانبهما المختلفة وبالنسبة للثقافة العربية يمكن نقل أساليب الفكر الغربى ومناهجها للانتفاع بها فى تجديد عرض جوانب هذه الثقافة واغنائها وإعطائها قوة جديدة على الحياة والحركة والتطور دون أن يؤثر ذلك فى مقوماتها الأساسية .

والفكر الغربى يقوم أساساً على الوثنية الاغريقية + المسيحية، وفى ظل النظرة المادية التى قدمتها النظرية الرومانية ومن عصارة هذا المزيج أقام الفكر الغربى أساس نظرته إلى الله والحياة والانسان وأساس حضارته وطابعها .

* * *

(أولا) الوثنية الاغريقية .

(ثانيا) النظرة الرومانية التى تتمثل فى إن كل ما غير روما فهو أرض العبيد .

(ثالثا) المسيحية الوافدة من الشرق .

١ — الوثنية الإغريقية

هى أحد الدعائم الثلاث التى يقوم على الفكر الغربى . وتتمثل فى التراث الاغريقى الذى يصور العقلية الهلينية الحرة المنطلقة التى تتميز بأسس واضحة هى : (١) تعدد الآلهة (٢) صراع الانسان مع الآلهة والطبيعة (٣) حرية الغريزة والجنس (٤) تقديس الجسد (٥) غلبة النزعة الأسطورية (٦) تأليه العقل .

وقد صور دعاة الفكر الغربى مفهوم الوثنية الاغريقية مبينا مدى الخلاف الجذرى بينها وبين فكر الشرق الاسلامى . فقال « أول عنصر من عناصر القوة فى حضارتهم إنهم لم يكونوا يوما عبيدا للتقليد لم تكبلهم الطقوس والعادات ، آلهتهم تسرح وتمرح على جبال أولمبوس وتتصرف تصرف البشر . كانوا يحبون ويكرهون ويخطبون نساء بعضهم بعضا ، كانت آلهة اليونان أناسا ولكن جبابرة ، لم يستولى على خاصة الإغريق خوف ولا رهبة ولا جمود أمام الآلهة . لم يشعر اليونانى أمام ربه أنه عبد ذليل بحاجة إلى الرحمة والشفقة ، بل ظل سيد نفسه متغطرساً ، موقنا أنه سيد الأرض ، لم ترق الكون قوة لسحقه ، إجلال العقل وإحلاله مرتبة مقدسة ، لم يرض بالأسطورة والخرافة تعليلا لمظاهر الكون وأسراره بل حاول أن يجدوا لها تعليلا عن طريق العقل والمنطق فى ظاهرة تأليه العقل وهم بذلك يختلفون عن الشعوب السامية التى أحلت « الأيمان » المحل الأول . وإذا كان هم السامى إماتة الجسد والانصراف إلى الروح الخالدة وكان همه عالم بعد الموت والإعراض عن الدنيا فإن الإغريقى قدس الجسد وجمالة ، وكان انصرافه إلى الحياة الدنيا بالدرجة الأولى فكان عنده الغناء والرقص والشعر والتمثيل والتصوير والنحت ، وهى التى أعرض عنها السامى إعراضا كليا على أنها من مطالب الجسد [١] » .

* * *

ومن دراسات متعددة للتراث الإغريقى يبدو أن هناك خطان أساسيان : (الأول) العداء

---

(١) أنيس صايغ : مجلة الأبحاث م ..

بين الآلهة والبشر وانتقام الآلهة ، وصراع الإنسان مع الآلهة ومحاولة الانتصار عليها (الثانى) عبادة الإنسان وقداسته وإعلاء جانب الماديات والجنس والغرائز وإهدار جانب الروح ، وتكشف هذه النظرة عن المخالفة الواضحة الخلاف بين الفكر العربى الإسلامى وأسس الوثنية اليونانية فى نظرتها إلى الآلهة والكون والإنسان .

ومن هنا تبدو النظرة الإغريقية ــ وبالتالى النظرة الغربية ــ ناقصة جزئية بينما تبدو النظرة العربية الاسلامية شاملة .

فليس فى النظرة الاسلامية إماتة الجسد والانصراف إلى الروح أو عالم ما بعد الموت أو الاعراض عن الدنيا كلية ، وربما كانت هذه نظرة الفلسفة الشرقية أو الفكر الشرقى . أما نظرة الفكر العربى الاسلامى فهى جماع الروح والجسد والعقل والقلب ، وهى لا تنصرف عن الحياة ولكنها لا تسرف فى الاندفاع وراء الغرائز ، وهى تؤمن بالله والموت والغيب ولكن ذلك لا يصرفها عن الحركة والتطور والعمل فى الدنيا والابداع ، وتجربتها فى ذلك معروفة وواضحة وليست فى حاجة إلى الدفاع عنها ، فقد استطاع الفكر العربى الاسلامى أن ينشىء حضارة وثقافة لها فاعليتها وحيويتها وأولياتها فى عالم الفلسفة والعلوم التجريبية والموسيقى والطب والفلك دون أن تتخلى عن إيمانها بالله وكانت ولا تزال متفتحة على الثقافات الانسانية ، ترجمت فى عصر ازدهارها فكر اليونان والرومان ونقدته وأضافت إليه واعترضت على بعض جوانبه التى لا تتفق مع منطوق فكرها ومقوماتها ونحته وامتصت عصارات الفكر المسيحى والهندى والفارسى جميعا وأساغته وبلورته فى بوتقة شخصيتها فامتد به كيانها وتوسع ، وهى فى هذا العصر لا تتوقف عن الامتصاص من عصارة الفكر الانسانى ما يزيدها قوة وحياة ، وسوف تظل قادرة على الأخذ منه بحرية مهما كانت ظروف الضغط التى يقوم بها الغزو الفكرى أو التغريب أو الشعوبية لحملها على الذوبان فيه والتحول عن طابعها وكيانها إليه تحولا كاملا .

ولقد كانت الثقافة العربية الاسلامية قادرة دائما على أن تأخذ وتدع وتعطى فى أصالة دون أن تتحول أو تذوب أو تتنازل عن قيمها الأساسية ودون أن تكون تابعة أو مقودة.

وقد أولى الفكر الغربى الحديث ولاءاً وتبعية وترابطا مع التراث اليونانى لاحد له بالرغم من فواصل الزمن وتحول المفاهيم ، بينما عارض رجاله ذلك بالنسبة للفكر العربى المعاصر فى ارتباطه بمقوماته الأساسية .

٢ – النزعة الرومانية

تتمثل نظرة الحضارة الرومانية فى قاعدة أساسية هى : « كل من عدا الرومان برابرة » وهى نفس النظرة التى اتخذتها الحضارة الحديثة . فالعدل والحرية والمساواة للرومان فقط أما غيرهم فعبيد ولا تنطبق عليهم أى قواعد العدل . وقد استمد هذا الاتجاه «مونتسيكو» فى كتابه «روح» القوانين فقال : إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيداً فإنى أقول أن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بداً من أن تستعبد شعوب أفريقيا كى تستخدمها فى استغلال هذه الأقطار الفسيحة والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة ، ولا يمكن للانسان أن يتصور أن الله ، وهو ذو الحكمة السامية قد خلق روحا طيبة فى داخل جسم حالك السواد » .

هذه النظرة الأساسية فى الحضارة الرومانية ، وقد ورثتها الحضارة الغربية الحديثة واتخذتها قاعدة لها فى عملية الاستعمار الضخمة التى قامت عليها النهضة ، تختلف اختلافا واضحا وجذريا مع مقومات الفكر العربى الاسلامى الذى لا يرى فوارق بين السود والبيض ، وإن أكرم الناس هو أتقاهم وإن تمييزهم إنما يكون بالأعمال والقدرات وموازين الأخلاق والقيم لا بالألوان أو الأجناس ، ولذلك أنكر الفكر العربى الاسلامى النظرية العنصرية وحاربها .

وإذا كانت الوثنية قد امتزجت بالمسيحية (كما يقول دريبر فى كتابه بين الدين والعلم) فإنه نتيجة لذلك — وعلى حد قول دريبر — قد نشأ دين جديد تمتزج فيه الوثنية بالنصرانية . وعنده أن الامبراطور قسطنطين حاكم روما وأول نصير للمسيحية قد عمل على مزج الوثنية بالمسيحية ، لمصلحة الحزبين المتنافسين (النصرانى والوثنى) وذلك رجاء التأليف بينهما ، وأن المسيحية الغربية كانت تحكم بالقانون الرومانى ولم تستمد شريعتها من التوراة . وتتمثل الصورة التى عرفها التاريخ كلها فى فرض الكنيسة للضرائب الفادحة ، واحتجاز ملكوت السماء لأوليائهم والتعذيب والحرمان لكل دعاة العلم النظرى والتجريبى أمثال جرادنو برونو وكوبرنيكوس وجاليليو ، والحق أن هذه الصورة ليست مستمدة من المسيحية الأصلية ولكنها مستمدة من المفاهيم الرومانية .

فإذا أضيف إلى هذا مفاهيم النزعة الرومانية فى الاغراق إيمانا بالمادة ، وأعطاء اللذائذ الجسدية غايتها ، وتضخيم عالم الحس ، وإراقة الدماء والقتل والتمثيل والتعذيب ، تمثل مدى ما ورثته الحضارة الغربية الحديثة من جذور الحضارة الرومانية .

٣ – المسيحية «الغربية»

تمثل «المسيحية» العنصر الثالث من عناصر الفكر الغربى ، فقد امتدت المسيحية السمحة التى كان مهبطها الشرق إلى أوربا واستطاعت أن تحتل مكانا فى الدولة الرومانية حين أعلن الأمبراطور «قسطنطين» اعتناقها فأصبحت دين الدولة الرسمى . وذلك بعد صراع طويل واجهت فيه المسيحيه العسف والاضطهاد والاستشهاد .

غير أن الفكر الغربى لم يتقبل المسيحية كما جاءت من الشرق ، وكان للعقل الغربى بمكوناته الأصلية قدرة خارقة على امتصاصها وتحويلها إلى كيانه الوثنى الأصيل ، ومن ثم امتزجت المسيحية بالوثنية الإغريقية فكان من هذا المزاج ما عرف من بعد باسم «المسيحية الغربية».

ثم لم يلبث الفكر الغربى أن واجه عصر النهضة وهنا تحول تحولات كثيرة غيرت مفاهيمه إزاء المسيحية بل إزاء الدين بصفة عامة . فقد كان تأثر الفكر الغربى بالفكر العربى الإسلامى فى أوائل عصر النهضة عاملا من العوامل الضخمة التى أثرت فيه وحولته عن اتجاهه الأصلى .

كان لسريان الفكر العربى الإسلامى فى دم الفكر الغربى أثره البعيد المدى فى (١) قيام نهضة الإصلاح التى حمل لوائها لوثر وكلفن ومن بعدهما . فقد كانت المسيحية بالصورة التى عرفها الغرب مجموعة من الوصايا ، ويمكن القول بأنها كانت «نظاما روحيا وإرشاداً خلقيا» دون أن يكون لها أساس واضح فى التشريع والاقتصاد والسياسة كما نتمثل الإسلام «دين وحضارة ونظام مجتمع كامل» ، والسر فى هذا أن نظامها كان موجودا فى اليهودية ، إذ المعروف أن المسيحية جاءت تحمل الروح لمادية اليهودية . وطلعت لتكسر من حدة القسوة التى عرفتها اليهودية ، فجاءت المسيحية تحمل كلمات السلام والبر والخير والتسامح . ومن هنا كان وصف الغربيين لها بالسلبية والنسك والاتجاه إلى الآخرة دون الدنيا ، وقد هاجمها على هذا النحو أعلام الفكر الغربى أمثال : رينان ونيتشة وسفيتزر .

وقد صاحب المسيحية أول ظهورها فى الغرب الخلاف الطبيعى فى الرأى واصطدمت بالتحليلات والتأويلات فى مسائل الآلهة والروح ، مما كان لابد معه أن تؤسس كنيسة تصرف الرأى فى أمر كل هذه المناقشات والمجادلات . غير أن هذه الكنيسة لم تلبث أن أصبحت هى أبرز ما فى المسيحية الغربية ، وأصبح لها سلطانها القوى الضاغط الذى اختفت وراءه حقيقة المسيحية ، ثم ساد سلطان الكنيسة حتى أصبح عنيفا رهيبا على النحو الذى تصوره كتب التاريخ .

ولم يقف هذا السلطان عند حد فرض الضرائب الفادحة وتأييد نفوذ الإقطاع ، بل أنه امتد إلى حد قتل حرية الرأى وإعدام كل من يقول برأى جديد يخالف رأى الكنيسة التى كانت تتمثل فى سلطان الكهنوت كما حدث لجاليلو وغيره ومن هنا كانت ثورة «لوثر» تستمد أسسها من مفاهيم الفكر الإسلامى العربى .

(٢) ظهور المدرسة « الرشدية » التى استمدت من ابن رشد مفاهيمه الحرة وفلسفته العربية الإسلامية التى هزت أركان العقيدة المسيحية والفكر الغربى كله ودفعته دفعة قوية إلى التحرر والانطلاق وكسر قيود الجمود الكنسى .

وبهذا يمكن القول دون أن يتجاوز ذلك نطاق البحث العلمى أنه قامت فى أوربا ما يطلق عليه « المسيحية الغربية » .

ولطالما واجه الباحثون الغربيون الماديون فكرة استيراد الغرب للمسيحية بازدراء عجيب كأنما عز على الفكر الغربى أن يلقح بأثر من آثار الفكر الشرقى الذى لم يولد فى غير بيئتهم .

يقول إسماعيل أدهم أحمد (وهو مستشرق مسيحى روسى تركى الأصل) : قامت المدنية الرومانية على تراث الإغريق ، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وهبت عليها حاملة معها نزعات المنطق الآسيوى ، والروح الشرقية ، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها وتمثلتها . وكان فى هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الآسيوية ، ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير ، مرنة بطبيعتها غير حاملة فى طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة ، لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التى هبت بها على أوربا .

ولقد نضب معين مدينة رومية لعوامل داخلية فهاجمها البربر من الجرمان والصقلب والسلاف والهون ، وسقطت امبراطورية الرومان على ضفاف التيبر ، فكانت عصور ظلام فى أوربا ، غير أن الشعوب البربرية التى ورثت امبراطورية الرومان احتفظت بالكثير من نظم الرومان وعاداتهم وكان ذلك مقدمة للعهد الاقطاعى .

ثم طغت موجة العرب على الغرب غير أن الغربيين نجحوا فى وقف الموجة العربية عند تفاقم أمرها ، وكان نجاح شارل مارتل على العرب على نهر اللوار كنجاح الاغريق على الفرس سببا فى إنقاذ العقلية الغربية من روح النسك الآسيوية .

فى ذلك الوقت كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسى الذى قام بروما رقيبا على النفوس والعقول ، محملا بكل سيئات روح النسك الآسيوية .

غير أن العقلية الجرمانية لم تر فى رقابة روما وتسلط البابا إلا روحا آسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربى فعملت الجهد على تقطيع أوصالها .

وبدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الذهنية والجرمانية الخالصة ممثلة العقلية الأوربية وبين العقلية البابوية التى تحمل فى طياتها شيئا من روح النسك الآسيوية . . » .

ومعنى هذا الفهم للعلاقة بين المسيحية السمحة والغرب، هو أن الفكر الغربى فى استعلائه بجوهره الوثنى المستمد من الفكر اليونانى والرومانى قد استطاع أن يقاوم المسيحية ولا يستسلم لها وحاول أن يحورها ويحولها إلى شىء آخر، ثم لم يلبث أن تخلص من المسيحية نهائيا .

* * *

ومن هنا لم تكن المسيحية فى الفكر الغربى هى المسيحية السمحة التى عرفها الشرق وإنما هى مسيحية أخرى صنعها العقل الأوربى فكانت مزيجا من الوثنية والمسيحية .

ثم لم تلبث أن مرت المسيحية الغربية بالمرحلة الدقيقة الخطيرة حين حمل عليها العلم التجريبى وأقصاها نهائيا من مجال الفكر الغربى حين وقفت فى وجهه وحاربت مقدراته واكتشافاته ورأت فى نور العلم ما يصرع سلطانها الكنسى ونفوذها القائم على استسلام العقل الغربى .

ومن نظرة الفكر الغربى للمسيحية التى قاومت العلم وحملت لواء الاستبداد وحمت الإقطاع والأمراء وأثارت روح الإرهاب والتسلط ، كون نظرته لا إلى المسيحية وحدها بل إلى « الدين » بصفة عامة .

ثم لم يلبث أن طبق هذه النظرة على الإسلام فكان ذلك مصدر خطأه الذى لا حد له . فليس الدين هو المسيحية وحدها وليس الإسلام دين فحسب، وإنما هو دين وفكر وحضارة ونظام مجتمع .

وإذا قيل «الدين» فهو فى منطق البحث العلمى ذلك الجانب الروحى الذى يتصل بالألوهية والتوحيد ويربط بين الإنسان وخالقه وقد كان هذا الجانب فى مسيحية الغرب مضطربا على النحو الذى تكون به حين أضاف روح الوثنية واستمد من أساطيرها .

أما الإسلام فإنه يجمع إلى جانب الدين الذى يمثل علاقة الإنسان بربه ، جوانب أخرى تتعلق بالعلاقات والروابط الاجتماعية والسياسية والأخلاقية والدولية .

ومن هنا اختلف الفكر العربى الاسلامى فى جذوره ومقوماته وأسسه عن الفكر الغربى ، فقد أمده الاسلام بنظام كامل فى هذا المجال ، ورسم له إطاراً كاملا لحياة مجتمع ومعاملاته فى مختلف جوانبه ، بينما لم يجد الفكر الغربى هذا فى المسيحية فكانت نظرته إلى الاسلام على أنه دين نظرة قاصرة ، إذ أن الاسلام جمع بين جانبين : الجانب الروحى أو اللاهوتى وهو مايطلق الغرب عليه كلمة «دين» والجانب الاجتماعى المتصل بالحياة والسياسة والفكر والأخلاق ، ومن مزيج هذين الجانبين قامت الثقافة العربية الاسلامية وأنشئت الحضارة العربية الاسلامية .

وعلى هذه الفوارق الجذرية يقوم جوهر الخلاف بين الفكر العربى الاسلامى والفكر الغربى عميقا بعيد المدى، ومن هنا يبدو ضلال القول الذى يقول «إن شأن الاسلام[1] فى الشرق شأن المسيحية فى الغرب لم يغير العقلية » . وإذا كان هذا القول قد صدق بالنسبة للمسيحية فى الغرب فإنه لم يصدق بالنسبة للاسلام فى الشرق، ذلك أن المسيحية كانت عند الغرب طابعاً روحيا وإرشاداً خلقيا ولم تكن نظام مجتمع متكامل فيه أساس التشريع والاقتصاد والسياسة كما فعل الإسلام .

* * *

غير أن الفكر الغربى فى تطوره بعد النهضة من العقلية إلى التجريبية وقد نحا المسيحية عنه وصرفها وانخلع عنها على ذلك النحو المعروف ، ظل يحمل فى أعماقه الخصومة العميقة والتعصب العنيف للفكر العربى الإسلامى .

لقد ثار الفكر الغربى على المسيحية وسيطرتها وتعسف كهنتها (على حد تعبير أنيس صايغ) ولكنه جعلها معقد الخصومة بينه وبين العالم الإسلامى . فكانت حملاته الضخمة على الإسلام وفكره ولغته وكتابه باعتباره المقوم الأصلى الذى يعطى العالم الاسلامى قوة

---

(١) وردت هذه العبارة فى كتاب مستقبل الثقافة للدكتور طه حسين .

المقاومة للاستعمار الغربى ، فكان اندفاعه فى القضاء على مقومات هذا الفكر عملا رآه ممهداً أساسياً لبقاء سيطرته .

وقد تطورت هذه الحركة من التبشير إلى التغريب إلى دعوة الشعوبية والغزو الثقافى فى مراحل متعددة خلال أكثر من مائة عام ، ولكنها ظلت تحمل فى أعماقها كلمة جمال الدين الأفغانى التى ما زالت تدوى فى آذان العالم الاسلامى كله منذ مائة عام :

« لم تبرح الروح الصليبية كامنة فى قلوب أهل أوربا حتى اليوم كما كانت كامنة فى قلب بطرس الناسك من قبل ، فالنصرانية (الغربية) لم يزل التعصب مستقرا فى عناصرها متغلغلا فى أحشائها وهى أبدا ناظرة إلى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الممقوت » .

وهذا يختلف اختلافاً جذرياً مع موقف الفكر الأسلامى من المسيحية وهو موقف التقدير والترابط الزمنى والإعتراف بها كمرحلة على طريق الإنسانية وإعزاز رسولها وتكريم معتنقيها والتآخى معهم .

* * *

وقد بدت هذه الروح فى الحروب الصليبية، ثم ألقى اللورد اللنبى ١٩١٨ فى فلسطين كلمته المدوية وقال : « الآن انتهت الحروب الصليبية » دليلا على أن الاحتلال الغربى للعالم الاسلامى كان امتداداً للحروب الصليبية التى ظن أنها انتهت منذ ثمانية قرون والتى عرف من بعد أنها كانت مستمرة فى حركة التفاف ضخمة حول العالم الإسلامى . وأن نهايتها هى سقوط العالم الاسلامى كله تحت سلطان الغرب .

وقد هاجم المفكرون الغربيون «المسيحية الغربية» هجوما عنيفا ومع ذلك فقدا تسمت حضارتهم واتسم فكرهم باسمها . كما ظهرت دعوات مختلفة لتحريرها وتحويرها ، وقد حملت هذه الدعوات فكرة تصادم الدين مع العقل فى المسيحية . كما هاجم كتاب الغرب دعوتها إلى السلام والرحمة والحنان . وكان فى مقدمه هؤلاء نيتشه : ثم كانت الماركسية حملة ضخمة على المسيحية الغربية والدين كله. وقد وصفها كارل ماركس بأنها «ديانة الكلاب الضالة الضائعة».

وكلما ذكر الغرب كلمة « القرون المظلمة » كان هدفهم منصبا على المسيحية الغربية

يقول سلامه موسى : كلما ذكر الانسان القرون الوسطى خطر للذهن تسلط الكنيسة على التفكير وحجرها على الحرية الذهنية . وليس شك من هذا التسلط وهذا الحجر ، فمنذ القرون الأولى للمسيحية أخذ الناس يدرسون لغاية واحدة هى خدمة الدين . ولقد أصبح الرجل المثقف راهباً ، وهو يفعل هذا لأن الكنيسة تمنعه من درس الطبيعة والعلم » .

وإذا كنا فى حاجة إلى أن نستشهد بموقف المسيحية الغربية من العلم وحرية الفكر فإننا نستشهد برجل من أشد المسيحيين إيمانا بالمسيحية والفكر الغربى معا حتى لا يرمى رأينا بالغلو أو التحيز : يقول سلامه موسى : « أنت[1] عند ما تقرأ الانجيل تجد أن المسيح لم يكن يقصد إلى وضع نظام كنسى جديد له كهنة وحكومة ، وأن المسيحى الصادق فى نظره هو الذى يدخل غرفته ويصلى لربه . والحق أن لهجة المسيح كلها توهم القارىء أن يوم القيامة قد أزف فليس هناك ما يدعو إلى إيجاد نظام وحكومة ، وإنما يجب على الناس أن يعيشوا فى سلام ، . . ولكن المسيحية نشأت فى حضن اليهودية وعاشت مدة غير قصيرة والمؤمنون بها يعتبرون أنفسهم يهودا لهم مذهبهم الخاص ، ولذلك جرت المسيحية فى نظامها على ما رأت من النظم اليهودية فصار لها كهنة ، وكان هؤلاء الكهنة هم المضطهدون للعلم والفلسفة مدة ألف عام تقريبا ، فالكنيسة اضطهدت العلماء والمسيح الذى كان يطلب من المسيحى أن يدخل غرفته ويقفل على نفسه ويصلى ، لم يفكر قط فى إنشاء كنيسة وإقامة كهنة عليها. وإنما جاءت هذه الفكرة من « بولس »، فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول للميلاد هى مسيحية بولس وليست مسيحية المسيح . ونقول بعبارة أخرى أن الدين للمسيح وأن الكنيسة لبولس. وأن الدين إذا كان قد عاق العلم أحيانا ببعض عقائده فإن الكنيسة هى التى اضطهدت العلماء .

ولما ظهرت المسيحية دخلتها طائفة كبيرة من العقائد الفاشية فى ذلك الوقت من تلك الأديان ومازلنا نحن المصريين نعرف فى المسيحية فكرة الثالوث : الآب والابن والروح القدس وأنها هى الفكرة التى كانت فاشية عند المصريين باسم أوسوريس وإيسيس وهورس » .

ويقول سلامه موسى : إن الكهنة رأو أنهم أمام تيار قوى من الثقافة — فى أوائل

---

(١) (ك) حرية الفكر وأبطالها فى التاريخ : سلامه موسى ص ٣٦ .

النهضة ــ يكاد يطمو بهم ويغرقهم فألفوا المجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التى لا توافق الكنيسة على نشرها [١] . . ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتتبع الاضطهادات التى نالت المؤلفين والطباعين من الكنيسة والحكومات ، وأشار سلامه موسى إلى محاكم التفتيش وذكر جاليلو فقال أنه لما بلغ محكمة التفتيش فى إيطاليا آرائه كتبت إلى الكردينال بلارمين بأمر تأمره أن ينهى جاليلو عن هذه الآراء وفى حالة مخالفته يسجن . وسكت جاليلو لأن شبح النار الذى أوقدت لبرونو سنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريبا . فلما نشر جاليلو كتابه الذى وافق عليه البابا هاج رجال الدين ومنعوا نشر الكتاب وانعقدت محكمة التفتيش وحكمت عليه » .

* * *

ولا عجب إذا قلنا أن المسيحيه الغربية لم تحمل روح المسيحية الحقيق ولم تعرفه ويتمثل هذا فى أمرين (الأول) هــذه الحروب الضخمة والمجازر الشنيعة التى قامت فى أوربا فى الصراع بين البروتستانت والكاثوليك وأبرزها معركة سانت بارتلمى .

(الثانى) هذه الحرب التى شنها الغرب على العالم الإسلامى وسيطرته عليه ومحاولة سحق قيمه ومفاهيمه ومحاربة الإسلام واللغة العربية والقضاء على الفكر الغربى الإسلامى .

ذلك أننا إذا أردنا أن نتمثل المسيحية والمسيح فى صورتهما الأصيلة لوجدنا البون شاسعاً ، فقد دعا المسيح إلى السلام وكل ما يتصل بالفكر العربى والحضارة الغربية لا يطابق مفهوم المسيحية الحقيق .

فليست المسيحية التى شعارها « على الأرض السلام وللناس المسرة » هى مسيحية الغرب التى شنت الحملات الصليبية على المسلمين مائتى عام كاملة (١٠٩٦ — ١٢٩١) ثم عادت تغزو العالم الإسلامى مرة أخرى باحتلال الجزائر ١٨٣٠ فالعالم العربى والاسلامى متصلا حتى انتهت الغزوة عام ١٩١٨ حين وقف اللورد اللنبى فى فلسطين وأعلن قوله : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

* * *

(١) فى احصاء أن عدد الكتب التى حرقتها الكنيسة ولا تزال حتى الآن تبلغ أكثر من خمسة آلاف كتاب .

وقد عنى كثير من المفكرين الغربيين بتفسير هذه الظاهرة الذين يرون أن الخلق المسيحى قد انتهى فى الغرب ، وأنه قد ضاعت من نفوس الكثيرين الثقة بما يسمونه فى أوربا بالخلق المسيحى ، فقد انهار هذا الخلق فى كثير من البلدان[1] ، وفى هذا قول برتراند رسل : إنه لم يعتنق المسيحية منذ نشأتها سوى فرد واحد ، هـــذا الفرد مات على الصليب .

* * *

ويقول سبنسر فى حديث له مع الشيخ محمد عبده : وقد أكد كثير من الباحثين أن الفكرة الرئيسية للمسيحية كما حاولت أن تصورها الكنيسة لا تمثل حقيقة هذا الدين « وخاصة ما يتعلق بالخطيئة التى تنسب إلى آدم ويحمل الإنسانية من الأزلى إلى الأبد مسئوليتها » .

وقد أفاض الباحثون فى القول حول وثنية المسيحية أو امتزاج الوثنيـــة بالمسيحية فى الفكر الغربى ويرى إسماعيل أدهم أحمد : أن العقل الأوربى لم يلبث حين تفتح فى عصر النهضة أن رفض الدين المسيحى كله وأن أوربا قد عادت من جديد إلى حالتها الأولى من الوثنية وخلقت آلهة جديدة تسميها تارة العقل وأخرى العلم وأخيرا الإنسان ويقول « عادت عقلية أوربا وحضارتها إلى جذورها الأرضية وقطعت علاقتها الروحية بالسماء » .

ومن ثم اصطبغت المسيحية بلون الفكر الإغريقى فى طابعها الوثنى الأسطورى ، المتمثل فى الطلاق الجنسى والغرائز .

ويقول أنسى الحاج أن المسيحية كما طبقت كانت إغريقية رغم ما فيها عبريات . ولذلك فإن المسيحية لم تكن ثورة وإنما كانت امتداداً وانتعاشا لحضارة سابقة ، لذلك لم تر مانعا من أن تقتبس الكثير من الوثنية .

---

(١) امير بقطر : الهلال (١٩٤٠) .

أساس الفكر الغربى

« مادية الحياة والتربية والجنس »

يقوم الفكر الغربى أساساً على الوثنية الإغريقية + النظرة الرومانيه إلى الإنسانيه (كل ماعدا روما عبيد) + المسيحية المستوردة من الشرق (المسيحية الغربية).

فقد كانت المسيحية التى بزغت اضواءها فى الشرق قد عبرت إلى أوربا ، مازال نظرة العقل الأوربى إليها تتمثل فى نظرته إلى الوافد الغريب بينما ظلت نظرته إلى تراث الإغريق على أنه المنبع الأصيل ، لذلك فهو لم يتقبلها ككل ، وإنما قبل منها ما وافق مزاجه الوثنى وإضافه إلى الأصل ، ومن هنا نشأ مزاج أغريقى رومانى مسيحى للفكر الغربى . ثم كان للنهضة العلمية التجريبية أثرها البعيد المدى فى بروز النزعة المادية الخالصة التى لم تلبث أن حاربت الدين وأقصته عن مجال الفكر ، وأصبحت هى القاعدة الأساسية لهذا الفكر بظهور نظرية دارون وتأصلها . فقد أصبحت النظرة المادية بما تحمل من معنى التطور وحيوانية الانسان مصدر كل نظريات الغرب وفكره فى مجال النفس والاجتماع والفلسفة والأخلاق والاقتصاد والأدب والتربية .

ثم لم يلبث هذا الفكر أن تولدت منه النظريه المادية الماركسيه فأصبحت الشق الثانى له . وهنا تمثلت أسس الفكر الغربى فى (١) إلغاء فكرة الألوهيه والدين (٢) مادية الحياة (٣) حيوانية الانسان وإطلاق غرائزه .

ويمكن القول بأن أبرز النظريات ذات الفعالية فى الفكر الغربى هى :

× نظرية المادية التاريخية (ماركس) .

× نظرية العدم (الوجودية) .

× مادية السلوك والتربية (جيمس وديوى) .

× نظرية الجنس (فرويد) .

١ – المادية التاريخية : ماركس

كان ظهور « الماركسية » إيذانا بانقسام الفكر العربى وتمزق جبهته ، وإن كان هو أساساً وليد هذا الفكر ، قام على أسسه المادية والدارونية وعلى نظرته إلى الله والكون والتطور وإن اختلفت نظرته إلى الإنسان والمجتمع . وهو نفس الخط الذى سار عليه من بعد فرويد، وهو إنزال الإنسان من مجال إنسانيته وتعريته مضافا إليه نظرة التفسير المادى للتاريخ الذى يستمد الأسباب والمسببات من الاقتصاد وحده. ويرى ماركس أن التاريخ يمثل صراعا عنيفا بين الطبقات ، سواء فى ميدان السياسة أو الدين أو الفلسفة أو الاجتماع فهو يرده جميعا إلى الاقتصاد والمادة ، ولا شك أن نظرة ماركس فيها شىء غير قليل من الحقيقة التى اكتشفها من قبل ابن خلدون ونماها كثيرون قبل ماركس حتى وصلت على يديه إلى هذا الحد ، غير أنها فى نظر الفكر العربى الإسلامى لا تمثل الحقيقة كاملة ، فليس الاقتصاد والمادية هى المصدر الوحيد لكل دوافع التحول فى التاريخ وإنما هناك عوامل أخرى روحية ومناخية ، وتقوم الماركسية التى هى فلسفة اقتصاد وسياسة ومجتمع على تغليب المادة واسقاط الدين فهى ترى أن المادة أصل كل الأشياء وأنها تسبق الفكر ، بل أن الفكر والروح وعندها هو تطور المادة إلى أعلى درجات التطور .

وعندها أن الدين هو مظهر عجز الإنسان أمام القوى الاجتماعية والنظم الاقطاعية ، وأنه يوم يجد الانسان الطمأنينة على رزقه وحياته سيختفى الدين وستنقضى الحاجة إليه ، ولا تنادى الماركسية باضطهاد الدين أو القضاء عليه ولكنها تقول بسحب الأرض من تحته بالقضاء على الأسس المادية والمعنوية لوجوده .

ويرى ماركس أن التاريخ العام للبشرية يسير وفق حتمية عبر العنصر الصناعى . هذه الحتمية التاريخية نفسها هى التى تحفز العمال إلى أن ينتزعوا الدولة من البرجوازيه شيئا فشيئا بالطرق الدستورية ، ولما كان فعل التاريخ والطرق الدستورية بطىء فلابد من الاسراع فى تطوير التاريخ ومساعدته وذلك إنما يكون بثورة العمال ضد البرجوازية لانتزاع الدولة .

ويرى ماركس بأن الأحوال الاجتماعية فى الأمة ليست سوى المظهر الخارجى لنظامها

الاقتصادي وأن الظروف والقوى التى يخضع الانسان لتأثيرها هى بدورها تخضع لتأثير فعل الانسان نفسه . وحتمية التاريخ الذى نادى به ماركس هى الحتمية التى تتحقق بسيادة الطبقة العاملة (البروليتاريا) .

وبالجملة فإن فلسفة ماركس تقوم على (١) حقيقة العالم تنحصر فى ماديته (٢) لا إلة والحياة مادة (٣) الدين أفيون الشعوب (٤) القيم مجرد انعكاس للوضع الاقتصادى وهى غير ثابتة (٥) الدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح (٦) تفسير الحياة الانسانية من خلال التفسير المادى (٧) إغفال القيم وأثرها فى الحياة وفى توجيه سلوك الناس (٨) اعتبار القيم الأخلاقية قيما متطورة لا ثبات لها .

* * *

وقد استطاعت فلسفة ماركس بتطورها وتحولها إلى نظام اقتصادى واجتماعى يتمثل فى الدولة البلشفية التى قامت عام ١٩١٧ فى روسيا أن تقسم الفكر الغربى إلى قسمين : فكر غربى مادى وفكر ماركسى ومن ثم برزت خلافات كثيرة بين الفكرين بالرغم من امتدادهما من الأصل المادى الصرف .

ويرى أرنولد توينبى أن الماركسية إنما تمثل « أزمة » فى الفكر الغربى المسيحى وعندنا أنها وليدة الفكر الغربى وثمرته وتحول طبيعى فى مجراه ، فقد كان من الطبيعى أن ينبثق من أعماق الرأسمالية فى عنفها وجموحها وضخامة ثرواتها دعوة تحمل لوائها الطبقة التى تعمل فى الصناعة وأن تسعى هذه الطبقة إلى السيطرة على مصادر الانتاج ، وإذا كانت الرأسمالية تمثل طرف الخيط فإن الماركسية تمثل طرف الخيط من الناحية الأخرى ، وأن كلا المذهبين الاقتصاديين لا بد أن يصدر عنه مع تطور الزمن وفى ظل حركته الدافعة مزيج وسط يتمثل فى طور « الاشتراكية » .

غير أن الفكر العربى الاسلامى وقد عرف « العدل الاجتماعى » فى فلسفته الأساسية يرى أن الفكر الغربى ما زال يجرى على طريقته فى التجربة والخطأ فى الدرب الطويل إلى الكمال ، بينما لا يرى الفكر العربى الإسلامى جديداً فى مفهوم العدل الاجتماعى والاشتراكية باعتبارها مقوماً أساسياً وجذرياً فى أعماق فكره .

وفى ظل مفاهيم « الفكر العربى الاسلامى » الذى يمزج بين المادة والروح فى قاعدته

الأساسية تبدو مادية النظرة إلى التاريخ وليست هى العامل الوحيد فى حركة التاريخ ، فليست العوامل المادية هى وحدها مصدر تحركات الانسانية وتطورها ، وأن ثمة عوامل مختلفة ومنها الدين لها أثرها بجانب الأثر المادى .

أما الماركسية فهى تطور فلسفى طبيعى على النحو الذى سارت عليه الفلسفة الغربية فى قيامها على مراحل وطبقات، وهى مستمدة أساساً من نظرية هيجل التى تمثل تياراً من الفلسفة الغربية التى تحمل أساساً وجهات نظر كثيرة حول تفسير التاريخ تختلف عن نظرة ماركس المادية.

وفى مفاهيم فكرنا العربى الاسلامى أن الاقتصاد يمثل جانبا من جوانب تفسير التاريخ وأن هناك جوانب أخرى ذات تأثير لا يمكن إغفالها كالعوامل الفكرية والروحية ، والتى كان لها فى الأغلب قوة العامل الحاسم .

ولا شك أن التاريخ من صنع البشر الذين يتأثرون بعوامل كثيرة مختلفة؛ ولا يمكن إنكار الدور الذى تقوم به الشخصيات التاريخية العظيمة ، بالاضافة إلى دور الجماهير والطبقات الشعبية فى هذه التحولات . ولا يمكن إنكار أثر الشخصية التاريخية التى تتقدم شعبها وتقوم بعملية التنوير فالتغيير النفسى الذى يكون مقدمة للتحول .

هذا فضلا عن أن حتمية التطور التاريخى للانسان لا يمكن أن تسير فى طريق مسدود بين الرأسمالية والشيوعية . ولا شك أن الفكر الانسانى أرحب من هذه الدائرة المغلقة ، ومن رأى الكثيرين أن النظرية الماركسية بتطورها اللنينى والبلشفى ليست هى نهاية الفكر الانسانى ولن تكون .

أما « الدين » الذى تنكر النظرية الماركسية فاعليته فقد لعب أدواراً إيجابية فى تاريخ الانسانية كان لها أثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى البعيد المدى ، ولا يزال الدين قادراً إعطاء الانسانية وإعطائها ما ينقصها من المفاهيم الروحية والفكرية والنفسية ولا تزال رسالة الدين قادرة على رد الانسانية عن هذا القلق والتفكك والضياع الذى تسير إليه بقدم ثابتة .

وقد ظهرت قبل الماركسية نظم سياسية واقتصادية واجتماعية عديدة تحدت العقيدة الدينية واتهمتها بتعويق التطور والنهضه ، ثم اندثرت تلك النظم أو تطورت إلى نظم

أخرى ، وبقيت العقيدة كامنة فى قرارة السلوك الانسانى تحفظ الحياةوقيمها الرفيعةفى خضم القلق والثورات والحروب . وتلهم الناس أسباب الطمأنينة والثقة بالعــدالة الالهية والاستقرار النفسانى الاجتماعى .

* * *

وقد قسمت الماركسية الفكر الغربى إلى شطرين يتصارعان اليوم فى ميدان السياسة والاجتماع للاختلاف الجــذرى بينهما حيث تختلف مفاهيم المــادية الغربية والماركسية فى مختلف المجالات .

وبالرغم من تحول التطبيق البلشفى والشيوعى عن مفاهيم ماركس فما تزال نظرية ماركس تمثل قطاعا من الفكر الغربى المعاصر منعزلا عنه ومتصلا به ، فهى على خلاف مع النظرة المادية الغربية ، ثم مع الوجودية أيضا ، ونحن على ضوء فكرنا العربى الاسلامى ننظر إلى هذه المذاهب كلها نظرة واضحة : أنها تجارب وتطورت من أجل البحث عن الكمال فى المجتمع الغربى الذى يحاول منذ عصر النهضة إلى الآن رسم منهج كامل للانسان والمجتمع ومازال يجرى تجاربه منتقلا بين الديمقراطية والديكتاتورية والنازية والفاشية وبين الرأسمالية والشيوعية .

أما نحن فلنا أساس فكرنا عن الله والإنسان والكون . وعلى ضوء هذا الأساس ننظر بفكر متفتح إلى كل هذه التجارب ونأخذ منها وندع ، نأخذ منها ما يعطى شخصيتنا قوة وحياة وتطوراً واستمراراً فى الحركة موكب الإنسانية .

ومهما يقول الذين ينظرون إلى علاقة ماركس بنظريته فى ضوء نفسيته حيث نجد رجلا يهوديا عاش فى جو صراع واضطهاد عنيف لليهود فترك اليهودية إلى المسيحية ، وتأثرت نفسيته بخصومة شديدة للفكر الغربى ومفاهيمه ، هذه المفاهيم التى غلبت عليها طابع الرأسماليه وأنه كان يحاول هدم هذا النظام وتدميره .

وإذا كان ماركس شأن بنى جنسه يعيش فى عزلة تامة عن المجتمع مما يدفع علماء النفس إلى إتهــام ماركس بأنه كان منحــــرفا أنانيا موسوسا بالغرور والحقــــد والغيرة. يحقد على المشهورين ويتمنى أن يكون ذائع الصيت ومن هنا أخذ وجهة نظر جديدة مثيرة تحمل لواءها ودعا إليها مهما يكن من قيمة لهذه الآراء ، فإن نظرية ماركس كانت ذا أثر عميق وبعيد المدى فى الفكر الغربى خاصة والفكر الإنسانى عامة . و فى بروتوكولات صهيون تصوير آخر لفلسفة ماركس .

٢ـ نظرية العدم (الوجودية)

دفعت الحرب الفكر الغربي إلى التطرف في نزعته المادية ، وأعطته روح القلق والضياع . فقد كان لسقوط أكثر من عشرة ملايين في الحرب الأولى وضعفها من الملايين في الحرب الثانية أثره البعيد المدى في النفس الإنسانية وبالتالي في الفلسفات والمذاهب السياسية والاجتماعية . فقد زادت فكرة التحلل من القيم والاندفاع وراء الغرائز وإطلاق اللذات والشهوات والجنس على النحو الذي كشفت عنه هذه الفلسفات : السريالية والوجودية، وقد تناول الباحثون الاجتماعيون هذه الظاهرة بالدرس ، فكشفوا عن أن الحرب قد خلقت في أوربا مدرسة فكرية يطلق عليها مدرسة ما بعد الحرب وهي مدرسة الهزائم والانهيارات والكوارث ، وقد تحولت مثلها العليا إلى أشباح . وفي هذا يقول فولنجانج بورخرت « إننا جيل بلا أمل ، جيل بلا عمق ، وبلا مستقبل . إن عمقنا هو الهاوية وحبنا هو الوحشية ، وشبابنا بلا شباب ، وحياتنا علب من الورق ، فارغة وقابلة للتمزق » .

ويرى بعض الباحثين « أن الوجودية ليست إلا تعبيرا عن هذا الانحراف، فإن شباب أوربا لم يجد غير اليأس والفراغ والضياع ، واليأس مريح والأمل فهم لا يشبع ، هذا الشباب الذي لم يثق بأحد ولا بأي شيء كبير على حد تعبير سارتر . أو ما عبر عنه مارسيل جبريل حين قال : إن الناس يعيشون في ذلك التفريغ الخاطف القاتل الذي يحدثه انفجار قنبلة كبيرة ، وعنده أن « الحياة حطام : الوحدة والعزلة والسلبية » والواقع أنه في ظل نهاية الحرب الأولى والثانية ظهرت فلسفتي السريالية والوجودية .

ظهرت السريالية على أثر الحرب العالمية الأولى وانبعثت الوجودية على أثر الحرب العالمية الثانية . والسريالية تستمد فلسفتها من مذهب فرويد الذي يرى « أن الإنسان في جوهره حيوان كغيره من الحيوانات وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هي الأساس المادي لسلوكه في الحياة ، غير أن ضروريات الحياة الاجتماعية وما صحبها من ديانات وفلسفات أخلاقية قد حتمت تنظيم هذه الغرائز والميول والحاجات ، وأن خضاعها لا مفر منه

لكى تستقيم الحياة الاجتماعية ، وكثير من هذه القيود يؤدى إلى كبت تلك الغرائز والميول والحاجات التى تنتقل من عقلنا الظاهر إلى عقلنا الباطن لترسب فى جب سحيق داخل النفس البشرية ، ومن داخل هذا الجب تبرز من جديد تلك المكبوتات كلما سنحت لها الفرصة » ومن هنا أطلق على «السريالية» مذهب ما خلف الواقع ، فهى بهذا الفهم تعمل على تسجيل ما يرد على المخيلة من صور على أساس أنها منبعثة من العقل الباطل ، بصرف النظر عن جمال هذه الصور أو قيمتها أو مطابقتها للمقاييس الاجتماعية أو منافرتها لها .

وهم يعتقدون أن الفن الصحيح هو رسم الانعكاسات التى تتولد نتيجة التفاعل القائم بين نضالنا الخارجى وذاتنا المجردة بعيدا عن دائرة المنطق أو توجيه الفكر[١] » .

ولا شك أن هذه النزعة الفكرية المنحرفة عن أصول الفن نفسه لا تمثل إلا مرحلة معينة هى مرحلة الاضطراب النفسى الذى عم الغرب بعد الحرب العالمية الأولية والفزع من نهاية الحياة المتمثلة فى فناء الجنس البشرى ، ومن هنا فهى دعوة إلى الإسراع بالاندفاع نحو المتعة وإطلاق قيود الغرائز والسخرية بالدين والقيم والأخلاق حيث أنها لا تحول دون فناء البشرية .

أما الوجودية : فقد برزت بعد الحرب العالمية الثانية كرد فعل لأزمة شك فى الأخلاق والروحية وقد عجزتا عن أن يحولا بين البشر وبين النتائج الخطيرة التى واجهتها البشرية من الحرب ومن ثم فهى ترى أن الدين والأحلاق والقيم قد فشلت .

ويذهب الوجوديون إلى أبعد مدى فى إنكار هذه القيم فينكر سارتر فكرة « الاله » ذاتها .

والوجودية نظر بعض الباحثين ليست إلا بمثابة احتجاج الفرد على طغيان الجماعة وتهوينها من شأن الاستقلال الفردى فى الحركات الاجتماعية ، وتقوم الوجودية على النظرة المادية الخالصة ، بل على النظرة الماركسية أيضا ، فيقول سارتر أننا نعيش فى المادة فيجب أن نخضع للطبيعة ونتركها تفعل ما تريد .

---

(١) مندور — مجلة الكاتب (مايو ١٩٦١) .

وترى الفلسفة الوجودية أن العالم هو كل شيء ، وهو الحقيقة الوحيدة ، وعندها أن الإنسان هو أرقى الكائنات ، لهذا ينبغى أن يتمتع بوجوده كل الاستمتاع ويطلق لحريته العنان فيحقق ذاتة ، باعتباره اله نفسه ، وسيد كيانه .

وقد صورت الوجودية موقفها من فكرة الألوهية فى هذا النص من قصة الذباب « لسارتر » :

« سيدى الإله : ما أن خلقتنى حتى انفصلت عنك ، وتخليت عن نسبتى إليك ، فأنا لم أعد ملكا لك ، وليس ثمة فى السماء من خير أو شر أو إنسان يستطيع أن يصدر إلى الأوامر ، لن أعود لأخضع لشرعك ، ولست محمولا على الخضوع لغير شريعتى أنا لأننى إنسان » .

ويقول سارتر : « نحن يتامى فى هذا الكون ليس لنا سند نستند إليه فى تعيين الهدف ، نحن فى قلق ، فى حيرة » .

* * *

وبالجملة فإن الوجودية دعوة الحرية المطلقة فلا جبر ولا إلزام على الأشخاص على اعتبار أنه ليس هناك سلطة غير سلطة العلم والعقل .

ويقول « ألبير الكامى » وهو أحد أقطاب الوجودية أن الفكرة التى تدور حولها فلسفة الوجودية هى اكتشاف أن الحياة بلا معنى ولا هدف ، وأن العالم وجد لكى يموت فيه الإنسان وليس هناك أى نتيجة لكفاح الإنسان ما دام الكون كل جوفه صامتا .

ويقول هيدج : إن الإنسان أسقط فى هذا العالم دون أن يفهم لماذا ، ودون أن يزود بشيء لا عن نفسه ولا عن العالم وعن علاقته بنفسه وبغيره .

ولكى نفهم « الوجودية » علينا أن نفهم سارتر ، وسارتر كما تصفه أقرب الناس إليه : (سيمون دى بوفوار) تقول إنه يكره الحقوق والواجبات وكل شيء رصين فى الحياة ، وهو لا يكاد يهضم أن يكون له مهنة وزملاء ورؤساء ، وقواعد تراعى وتفرض ، ولن يكون أبدا رب أسرة حتى ولا رجلا متزوجا ولم يكن سارتر يرى فى الزواج شيئا عظيما ، كان فوضويا أكثر منه ثوريا ، كان يجد المجتمع على ما كان عليه شيئا محتقرا .

ويرى نقـاد الوجودية من دعاة المذاهب الإنسانية أن الوجودية مذهب فلسفى مثالى له طبيعة انحلالية يعمل على تفكيك الوعى العام. وأن ظهوره فى ظروف تاريخية معينة لا يعطيه قوة الفلسفة الإنسانية الحية وأن سارتر وكامى تحت ستار فلسفة الحرية قد نشرا تعاليم الفوضوية العقلية والخلقية واحتقار العلم والأخلاق والدين .

وعندهم أن الوجودية تختلف أيضا مع النظرية المادية التى تجعل المادة سابقة على كل شىء ، والفكر جاء تاليا للمادة . وقد وضع كورد الحقيقة الإنسانية قبل المادة لينتهى بالفردية بينما ينتهى ماركس بالمجتمع ، وقد هاجم سارتر فى قصته الأيدى القذرة : « الشيوعية » وقال « أنها آلات مسخرة وأنهم لا يملكون لأنفسهم شيئا » .

وقد أطلق كثير من الباحثين على الفلسفة الوجودية : فلسفة العدم والضياع .

٣ – مادية السلوك والتربية : (جيمس وديوى)

تتمثل الثقافة الغربية فى تيارين كبيرين : التيار اللاتينى والتيار السكسونى . وقدتصارع هذان التياران فى الشرق العربى الإسلامى صراعا طويلا ، ثم لم يلبث أنه برز تيار جديد هو التيار الأمريكى المستمد أصلا من الثقافة السكسونية والذى لم يلبث أن استقل بطابعه المستمد من داخل أعماقه على النحو الذى تقوم عليه ثقافة الأمم والشعوب .

ولكن الثقافة الأمريكية فى أساسها « مادية دارونية » تقوم على أساس نفس النظرة المادية الغربية ، غير أنها تميزت بطابع جديد هو الفلسفة البراجماتزمية (الذرائع) التى ترى أساسها وقاعدتها فى أن البقاء للأصلح والحق للقوة ، وأنه ليس ما يمنع من انتهاك حرمه العدل والانصاف والفضيلة من أجل هذا الهدف ، وهى لذلك لا تؤمن بمساواة الضعيف العاجز فى الحقوق التى للقوى المتمكن .

ويرى شارل بيرنز أحد مؤسسى الفلسفة البرجماتزمية : أن القضاء على الضعيف وسيلة جوهرية من وسائل التقدم والرق ، وأن احترام الوالدين مثلا نظام لا تقره الثقافة البرجماتزمية ، والوالد لا يعترف بحق والده عليه فى الولاء أو الطاعة أو الواجبات التى تحتمها صلة الرحم والشيخوخة[١] ، هذا فضلا عن أن البرجماتزمية لا تؤمن بالنظريات الانسانية والروحانيات . وعندها يقاس المستوى والمكانة الاجتماعية بالدخل المادى . وبنسبة النجاح الذى أصابه المرء بعض النظر عن طبيعة الوسائل التى حققه بها[٢] . وعند الدكتور عمر حايق أن النظرية البرجماتزمية هى المسئولة عن رواج أدب اللذة والمجون فى أمريكا وسيطرته على عناصر الغذاء الفكرى ، فالكاتب والفنان هناك لا يرتفعان عن ذوق السطحيين . ويرى أن الثقافة البرجماتزمية فى أصرارها على النواحى المادية فى السلوك والحياة الإنسانية لا تختلف كثيرا عن الفلسفة الماركسية وتفسيرها المادى للتاريخ .ومن أصول البرجمية

(١و٢) الدكتور عمر حايق : الرسالة م ١٩٥٠.

أن الحياة العملية المادية هى قاموس الكاتب الأمريكى وأن الفن والثقافة الرفيعة هى من قبيل الهراء .

* * *

ويجمع الدارسون لفلسفة البراجماتزم (التى هى أساس الفكر الأمريكى) على إخضاع كل شىء للعمل ، فالتفكير خاضع للعمل ، والحقيقة خاضعة للعمل ، ومعيار الحقيقة عندها هو صلاحيتها للعمل ، والمعرفة نوع من العمل . وهى تنكر وجود القيم النهائية والمطلقة والذاتية وكل حقيقة عند أصحاب البرجماتزم لا تقبل على أنها مطلقة .

والبراجماتزم تعارض الدين وعقيدته فى الثبات والخلود واللانهائية وتعارض القانون الأخلاق وترى أن السلوك الخلقى شىء آخر غير الآداب الاجتماعية القائمة على العرف . وسيكولوجية البرجماتزم تعتمد على التفسير البيولوجى « الإنسان حيوان » .

* * *

أما أساس نظرية « ديوى » فى التربية فيقوم على فصل الدين عن التربية فهو تلميذ للدارونية والبراجماتزم معا .

وقد أقام ديوى نظريته على أساس مادية داورن وذرائع جيمس وعنده أنه ليس فى الكون شىء ثابت لا يتغير ، وهو يأخذ بالتجربة فى التربية على أساس قوله « أن مجتمعنا ليس نهائيا » وهو يفصل بين الماديات والمعنويات ، ولا قيمة للأخلاق عنده ، يقول « ليست الأخلاق شيئا مطلقا وليست هناك أخلاق مثلى دائمة » .

وغاية التربية عنده ليست الأخلاق وإنما الملاءمة بين الفرد والمجتمع .

وهنا يبدو عمق الخلاف بين جذور منهج التربية فى الفكر الغربى والفكر العربى الإسلامى .

* * *

ويقيم وليم جيمس فلسفته على الإيمان بالواقع الحسى الملموس ، والعمل عنه مقدم عن المعرفة ومن رأيه أن المشاعر تنبع من الجسد وليست النفس مصدر المشاعر .

٤ – نظرية الجنس (فرويد)

أساس رأى فرويد ونظريته : إن عقل الإنسان الذى هو مصدر سلوكه الخلقى ليس فى رأسه وإنما فى الغريزة الجنسية . ويقول : أنه إنسان تعس ، لأن أسفله أعلاه ولأن غريزته هى المتحكمة فيه وإن كل القيم الخلقية والدينية التى أقرتها الإنسانية عبر القرون إنما هى عقد نفسية أو أمراض ، باعثها الأول الكبت الجنسى . ويجب التخلص منها لكى نعيش البشرية بدون قيم ولا مثل ، من رأيه أن الإنسان فى جوهره حيوان كغيره من الحيوانات ، وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى الأساس المادى الصلب لسلوكه فى الحياة ، غير أن ضرورات الحياة الاجتماعية وما صحبها من ديانات وفلسفات اخلاقية قد حتمت تنظيم هذه الغرائز والميول وإخضاعها لقيود لا مفر منها ، وأن كثيراً من هذه القيود تؤدى إلى كبت الغرائز والميول والحاجات .

* * *

وقد وجه الكثير من الباحثين النقد إلى نظرية فرويد وأشار بعضهم إلى إن نقطة الضعف فى فرويد كعالم أنه اتخذ من دراسة نفسيته وطفولته أساساً وقاعدة استهدف بها التعميم للوصول إلى قوانين أساسية .

والمعروف أن « فرويد » يهودى عاش فى النمسا حياة مضطربه مضطهدة فقد عرفت النمسا بالتعصب الشديد ضد اليهود ، ومن هنا لم تكن حياته سويه على النحو الذى يجعلها نموذجا صالحا لاستخلاص نظرية سليمه فى علم النفس .

وقد حاول فرويد أن ينتقص إنسانية الإنسان بهذه النظرية حيث ركز على « غرائز الإنسان » وجعلها مقادتة ، وبذلك غلّب حيوانيته أو جانبه المادى على روحه وعقله . وقد كان تأثره بدارون مصدراً لهذه النظريه بالاضافة إلى أحقاده الذاتية والجنسيـة على الإنسانية .

وقد أشار فرويد إلى هذا المعنى حين قال : إن الإنسان قد طعن فى غروره ثلاث طعنات (الأولى) يوم عرف أن الأرض التى يسكنها ليست مركز الكون والوجود وانها لا تزيد عن أن تكون جرما تابعا للشمس يدور حولها (والثانية) يوم أن أدرك دارون أن الانسان لا يفترق عن الحيوان فى طبيعته وأن كل ما يميزه عنه هو درجه من التطور (والثالثة) يوم أن تبين بالتحليل النفسى أن وراء عقل الانسان عقلا آخر يدفعه حيث يشاء دون أن يعرف عنه شيئا .

تقوم فلسفة فرويد على (١) حيوانية الانسان (٢) الحياة النفسية للانسان تنبع من الجنس (٣) غرائز الانسان هى التى تحكمه وتسيطر على نشاطه ، (٤) الروح لا وجود لها على الاطلاق (٥) القيم خرافة وهى نفاق العقل والنفس والمجتمع (٦) تفسير النفس كلها من خلال الجنس (٧) الأخلاق والدين انبثاق جنسى (٨) من عقدة الجنس ينشأ الضمير والدين والأخلاق والقيم العليا فى حياة البشرية .

* * *

وقد واجهت نظرية فرويد معارضة من المفكرين والباحثين ، ولم يكن ممكناً أن يكون لها هذه المكانة التى وصلت إليها لولا أن هناك قوة أخرى كانت تؤازرها وتستهدف من التركيز عليها أهدافا بعيدة المدى ترمى إلى مقاومة المفاهيم الانسانية والأديان وإذاعة الالحاد والاباحة .

فقد أثبت « يونج » وهو زميل فرويد وضريبه ، كما أثبت مكدوجل أن العقل الباطن ما هو إلا خرافة ، ونوقش فرويد فى مسألة العقل الباطن وعقدة أوديب فأنكرهما فى آخر أيام حياته ، وقد عارضه « ادلر » فى أخطر ما ذهب إليه من أن الجنس هو الدافع ، وقال أن المحرك الأول للانسان هو حب السيادة والسيطرة والنزوع إلى تأكيد كبريائه وتركيز شخصيته .

وما تزال نظرية فرويد تلقى معارضة من كثير من الباحثين كلما تقدم البحث العلمى وقد نبذ كثير من العلماء نظرية فرويد فى العلاج العقلى والنفسى ، وقال الدكتور ناتان كلاين أنه ثبت فساد النظرية الفرويدية التى ترجع جميع الاضطرابات النفسية إلى أسس جنسية

بحتة . ومن رأى أكثر الباحثين أن هذه النظرية ليست إلا معولا هداما لعقول الشباب ومخدر مميت لنفوس الشعوب . وقد حلت نظرية (إيفان بافلوف) فى الاتحاد السوفيتى محل نظرية فرويد، هذه التى تقول أن البيئة هى المسئول الأول عما يصيب الانسان من انحراف نفسى وعقلى .

وقد أعلن بعض الباحثين أن فرويد كان يتخذ نفسه نموذجا للتجربة التى يدعو إليها ولم تكن هذه النظرية قائمة على أساس تجارب متعددة أو احصائيات دقيقة ، وقيل إن فرويد نفسه كان يمر بأزمات نفسية عنيفة . وقد أصابه الاضطراب وهو يعالج مريضة بالهوس الجنسى مصابة بعقيدة أوديب وقد تكشف له خلال ذلك أنه هو نفسه مصاب بعقدة أوديب وأنه كان يتجه إلى أمه ويغار من أبيه وأنه اتهم أباه ظلما بجريمة أخلاقية رهيبة .

ولا شك كان لتيارات « اللاانسانية » فى الفكر الغربى أثرها فى دفع موجة التفسير الفرويدى فى مجال الأدب والفن ، ثم لم يلبث أن حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق .

- ٣ -

مفاهيم الفكر الغربى

تتمثل نظرة الفكر الغربى إلى الله والحياة والانسان فى فلسفات مختلفة تصدر كلها عن مادية الفكر وتتميز بالتناقص والتعارض · وترتبط بالأزمنة والأحداث والحروب . ولا تصل إلى الشمول والارتفاع فوق الأحداث والظروف .

فالماركسية ظهرت بعد أن استفحلت الرسمالية ، والوجوديه ابتعثت فى ظروف نتائج الحروب الخطرة .

هذا فضلا عما وسم به كثير من هؤلاء الفلاسفة باضطراب القوى النفسية فقد حملت دراسات تراجم نيتشه وفرويد والبير كامى وسارتر كثيرا من عوامل الاضطراب النفسى الذى كانت فى الأغلب مصدر نظرتهم إلى الحياة .

ومن هنا تبدو أن أغلب هذه النظريات أو الفلسفات ليست إلا وجهات نظر فردية وشخصية لمفكرين ممتازين فى ظروف وهيئات ومجتمعات وأحوال معينة أو نتائج الخبرات ومطالعات أوأحداث عالميةأو خاصة. ومن هنا تبدو نظرتها المحدودة، بحدود الزمان والمكان الذى ظهرت فيه وهذا مايجعلها تختلف عن النظريات الإنسانية الشاملة التى تبدو صلاحيتها للأزمان والبيئات المختلفة .

وما زال الفكر الغربى يجرى عشرات التجارب فى مجال الفلسفات ونظرات الحياة فى سبيل الوصول إلى « منهج » أو « أيتوبيا » صالحة ، غير أن استمداد أسس هذه الفلسفات من النظرة المادية الخالصة قد حال دون وصولها إلى نزعة إنسانية شاملة صالحة لأزمنة وأمكنة متعددة .

ويختلف الفكر العربى الإسلامى مع الفكر الغربى فى هذا المجال فى أنه يتمثل فى نظرة

قدرة امتزاج الكل والتقاء الأجنحة المختلفة والأجزاء المتقابلة . وبينما يتسم الفكر الغربى بروح الجزئية والجناح الواحد ، فى أقصى اليمين أو أقصى اليسار ، يحمل الفكر العربى الإسلامى طابع : الوسط ، الكل ، الإلتقاء ، الامتزاج ، ومن خلال عشرات المذاهب الفلسفية الغربية تبدو النظرة إلى الحياة معارضة لطابع الفكر العربى الإسلامى أساساً .

فخلاصة مذهب «دوركايم» أن الفرد لاقيمة له ولا معنى بالنسبة للحرية الفردية وأن القيم كلها للمجتمع الذى يخلق الأديان والعقائد والآداب والقيم . وعنده أن الدين والزواج والأسرة ليست نزعات فطرية فى الإنسان ، وأن القواعد الخلقية لا وجود لها فى ذاتها ، وقد اعتمد « دوركايم » فى مذهبه على الماركسية والدارونية معا ونقل أرائهما من مباحث الإقتصاد والعلم إلى مباحث الاجتماع والأخلاق ، وخلاصة رأى «نيتشه» هو نقض الديانات التى تقول بالرحمة والتعاون والإخاء البشرى وحماية الضعيف . فقد حمل على المسيحية ووصفها بالسلبية ، وقال أن أخلاق المسيحية تعارض بقاء الأقوياء (الصقور) وتصدهم عن حقهم الذى تنطق به الطبيعة ، وهو أن الصقر يجب أن يأكل العصفور .

وقد دعا نيتشه إلى إعفاء الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية ووصفها بأنها أخلاق الأذلاء . وتتمثل هذه النزعة المادية فى دعوة برتراندرسل إلى مهاجمة المعتقدات الدينية فهو يعلن بصراحة مريرة أنه ليس مسيحيا ويهاجم التعاليم الدينية الخاصة بالجنس ، ويرى أن تعاليم المسيحية لا تتفق مع منطق العلم ، ويقول أنه لا يؤمن بوجود حقيقة مطلقة ، ويدعو إلى التحرر الجنسى ، أما « لورنس » فيرى أن الحضارة المدنية قد قضت على عناصر السعادة الفطرية فى الإنسان وأنه لكى نسترد السعادة علينا أن نعود إلى الحياة المطلقة للغرائز ، حياة الغابة .

ومن خلال نظريات فرويد فى (النفس) ووليم جمس فى (الأخلاق) وماركس فى (المادية التاريخية) ولورنس فى (إطلاق الجنس) وديوى فى (لادينية التربية) تبدو صورة الفكر الغربى المعاصر فى أبرز مسائله وقضاياه .

* * *

ومن أبرز ظواهر الفكر الغربى موالاة التجربة فى سبيل وضع فلسفة اجتماعية صالحه

لبناء المجتمع . وقد استعرض عشرات الفلسفات فى خلال أزمته الطاحنة بين الفردية والجماعية ، مما لم يحقق له بعد السعادة أو العدالة المرتجاه .

ونحن فى العالم العربى والإسلامى أصحاب فكر له طابعه واستقلاله ، لا نرى بأساً من دراسة هذه المذاهب والفلسفات بروح حرة قوامها فهم الفكر الإنسانى والانتفاع بما فيه من جوانب القوة دون أن نكون مقلدين أو تابعين ومع تقدير كامل بأن هذه المذاهب قد قامت فى ظل مناخ فكرى يختلف عن نظرتنا للأمور وطريقة معالجتها وأنها تستمد أساسها من واقع مقومات فكر تلك الأمم .

بل لعله ليس من العجيب أن يكون لدينا حلول لمشاكل الغرب نفسه، تستمد أسسها من تجربة فكرنا ، الذى لم يعتنق نزعات بالقلق والحيرة ، والضياع .

بل إن مشكلة الغرب الكبرى وهى : « الفردية والجماعية » التى ما زال يضطرب لها الغرب منذ ابتكر البخار حتى الآن ،يجد الفكر العربى الإسلامى حلها التجريبى المستمد من سلوك الإنسان وأخلاقه ومقومات فكره وروحه .

وقد عاش الفكر الغربى عمرا طويلا وهو يجرى تجربته الضخمة المتعددة المراحل فى سبيل الوصول إلى ارساء قيم أساسية جديدة ، عاش منذ أفلاطون إلى سارتر يحلم ببناء المثل الأعلى فى مجتمع عادل سعيد ومع ذلك فإنه لم يصل بعد .

ولو أنه نظر نظرة بعيدة عن الحقد أو التعصب إلى الفكر العربى الإسلامى لوجد فيه حاجته وحاجة الإنسانية كلها ، غير أن هناك عوامل ذات نفوذ كبير تحول بينه وبين هذه التجربة ، فإذا ما اتجه إلى الشرق باحثاً عن سفاد روحى للحضارة حولت هذه العوامل وجهته إلى فلسفة الهند والصين الروحية الصرفه وتنكب ما فى طريقه من جوهر الفكر العربى الإسلامى الذى تمتزج فيه الروح بالمادة .

* * *

والواقع أنه لا يمكن النظر إلى النظريات والمذاهب الأفكار مجردة من بواعثها وعوامل

دفعها إلى الحركة والتأثير فى الفكر بالقوى ذى الفاعلية . ولا شك أن أكبر النظريات التى وجدت قوة فى دفعها إلى التفاعل والحركة والحياة هى نظرية دارون ومذهب فرويد وفكرة ماركس عن التفسير المادى للتاريخ .

وبالرغم من أن الدارونية الجديدة التى قال بها « هكسلى » قد دحضت نظرة دارون إلى الإنسان وعارضت رأية فى تطبيق تجربة الحيوان عليه فقد مضت هذه النظرية تشق طريقها فى قوة .

وكما أن نظرية فرويد التى تقول بأن الغريزة والجنس هى أساس تصرفات الإنسان ودوافعه قد عورضت بنظريتى زميليه أدلر ويونج ، فإنها تسللت بقوة إلى الآداب والفنون وأصبحت بعد زمن غير قليل أساس ضخم من أسس الأعمال المختلفة فى مجال القصة والرواية المسرحية ، وعندى أن هذا يرجع إلى الدوافع ذات الفاعلية التى كانت قادرة على مظاهرة هذه النظريات وتأكيدها واستهداف غرض سياسى أو بشرى بعيد المدى فى هذا الاتجاه ولعل نصوص بروتوكولات صهيون تفسر ذلك وتكشف عنه .

ويمكن القول أن أسس الفكر العربى قد قامت على هذا النحو :

× تنحية القيم الروحية والأخلافية تماماً - لأنها بحكم العلم التجريبى — من الأمور غير الملموسة .

× المشكلات الفكرية العامة التى تعنى الإنسان يمكن أن تحل بواسطة العقل الإنسانى ومن غير معونة من شىء خارج عن العقل كالضمير أو الروح مثلا .

× لم تتخل الثقافة الغربية قط عن فرديتها ووثنيتها وتعصبها على غير الجنس الأبيض والآرى والأوربى والغربى من أجناس وأمم .

× الثقافة الغربية ترمى إلى خدمة الإنسان من حيث هو بشر ، وترمى إلى خدمة الإنسان الغربى قبل غيره وعلى حساب غيره .

× الخصومة الواضحة العميقة للألوهية والروحية والأديان .

× طبق دارون وفرويد وماركس ودوركايم نظريات علم الحيوان على الإنسان ، وكانت

قاعدتهم هى أن الأخلاق ليست قيمة ولاذاتية ولاثابتة ، وإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذى توجد فيه وأن المجتمع هو الأصل فى كل الظواهر الاجتماعية وليس الإنسان .

× تحمل حضارة الغرب عدلها لأهلها وثقافتها لأهلها تنظر إلى غير أهلها من الأجناس البشرية نظرة العبيد والأتباع .

× لم تهذب النفس البشرية ولم تخفف ما للانسانية من أثره وشهوة بل زادت هذا قوة ، وجعلت الترف والرفاهية هدفا .

* * *

ومن خلال هذه النظرة الموجزة الشاملة للفكر الغربى فى شطرية المادى والماركسى تجمع النظريات التى يقوم عليها أساس هذا الفكر (دارون ولورنس ، ماركس ، فرويد ، دوركايم ، سارتر) على أن الإنسان حيوان ، ابن المصادفة ، وأنه لا غاية لوجوده ، ولا هدف ، ولذلك فلا معنى للحياة الإنسانية ولا المثل العليا الإنسانية ، وإن الحياة تخبط خبط عشواء فى تطورها بما فى ذلك الإنسان ، وإن الحياة باطل ، ليس فيها إلا المتاع والجنس ، وقد زاد من تعميق هذا الرأى ، حربان عالميتان كبريان أكلت الملايين ، مما دفع الفكر الغربى إلى الدعوة إلى حرية العمل وإطلاق الحركة والتصرف ، دون قيد من دين أو إيمان بالله ، ومن هنا بين والخلاف الجذرى الضخم فى القيم والمفاهيم والأسس ، بينه وبين الفكر العربى الإسلامى الذى يرى الإنسان إنساناً وليس حيوانا وقد رفعته الأديان إلى مكان لم يصل إليه مخلوق غيره ، وحفلت بتأكيد إنسانيته وحمايتها .

ولعل وجوه الخلاف هو مادية الفكر العربى أساساً بينما يتمثل فى الفكر العربى الإسلامى قدرته على المزاوجة المتفاعلة بين العناصر والقيم المعنوية والمادية .

وعنده أن القيم المعنوية ثابتة الجوهر ، متطورة المظهر والشكل ، تتحرك مع حركة الحياة دون أن تتخلى عن جوهرها . أما القيم المادية فهى تتغير ولكنها تظل مرتبطة بجذورها الأصلية لا تنفصل عنها .

فهو مهما تطور لا يحطم الأسرة ، ولا يجعل البحث عن الطعام هدف الحياة

ولا يستبيح الوسائل فى سبيل الغايات ، وتظل قيم الدين وإنسانية الإنسان قائمة أصلا .

* * *

ولا شك أن هناك خلافا جذريا بين الفكر الغربى والفكر العربى الإسلامى فى أمور كثيرة وجوهرية :

١ – «العقائد» وتتمثل فى إنكار الألوهيه والاديان وجعل المادية أساساً لكل القيم . بينما يؤمن الفكر العربى الإسلامى أساساً بالله والأديان .

٢ – « الإنسان » ويتمثل فى فهم الإنسان على أنه سيد الكون وسيد نفسه . ويرى الفكر الإسلامى أن الإنسان سيد الكون ولكن تحت حكم الله

٣ – حرية الغرائز ويرى الفكر العربى الإسلامى وضع نظم وقيود لهذه الغرائز من أجل حماية الإنسان والمحافظة على قواه وقيمه وهدفه الاكبر فى هذا: ترقية النفس الإنسانية والسمو بها.

ومن هنا تقوم أسس الفكر الغربى على قواعد ثلاث :

× أقامة الحياة كلها على أساس لا دينى (Sorular) .

× التصور المادى فى الفكر والحياة .

× التحلل من كل القيم والأخلاق .

وقد امتد أثر هذه النظرة وتغلغل فى مختلف المفاهيم : فى مجال الساسة والاقتصاد وعلم النفس والأخلاق والتربية والفن .

. . .

أما الفكر العربى الإسلامى فقد أقام مفاهيمه على أساس امتزاج الروح والمادة والاعتراف بالألوهيه ، وقامت أسسه على أساس الترابط والامتزاج بين العلم والدين ، والدنيا والآخرة وبين الجسم والروح ، بين الواقع والمثال.

ومن شأن هذا الفهم أن يحول دون الانفصام بين جوانب الجبهة الفكرية فى الاقتصاد

والسياسة والاجماع والدين ، هذه الجوانب التي تلتقى فى اتجاه واحد هو النفس البشرية وترقيتها، ومن هنالا تبدو المشاكل أو القضايا وهى تعالج مجزئة منفصلة بين علماء النفس أو الاجماع أو التربية ولكنها تدرس موحدة . ومن هنا تبدو حياة العمل والفكر والمجتمع هى تقوم جميعها على أساس الامتزاج والتناسق والسلامة . وبالجملة فإن الفكر العربى الاسلامى لا يرى أن هناك مايسمونه النظرة الدينية منفصلة عن كافة القيم مجتمعة .

وكان الفكر الغربى قد حاول بعد أن فصل الدين عن الفكر والحضارة أقامه دين جديد يقوم على المفاهيم المادية ، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى ما أطلق عليه : « ديانة الإنسانية الجديدة » ومقوماتها انكار العبث والخلود ووجود الله ، والدعوة إلى اتباع الفضائل لترقية حياة الإنسان بقطع النظر عن العقيدة التى تقول بوجود إله . وعندهم أن وجود الله أو عدم وجوده ليست من المسائل الجوهرية لأنه إذا علل الإنسان ما هو صالح فى هذا العالم فقد فعل ما هو مطلوب منه سواء أكانت له روح خالده أم لم يكن ، ولا شك أن هذه الديانة الجديدة ليست إلا محاولة من المحاولات التجريبية التى أجراها الفكر الغربى لتغطية الفراغ الروحى التى فقدته النفس الإنسانية من تبعيتها للنظرة المادية الخالصة .

وقد أثبت فشل هذه الديانة مدى اضطراب قواعدها وقيامها على أساس إنكار الألوهية التى هى الفارق الأول والأساسى بين الدين والإلحاد .

نقص هذه النظرة :

وإذا كان الفكر الغربى قد قاوم الدين ونحاه ، فإنه قد أحس بحاجته إلى بديل له يستغنى به عنه وقد تمثل هذا البديل فى أكثر من محاولة فى (١) العلم . (٢) المذاهب الشاملة كالقومية والاشتراكية والديمقراطية . (٣) علم النفس .

وقد فشلت هذه المحاولات جميعها فى أن تعطى الحضارة الغربية بلسما لجراحها أو علاجها لأزمتها ، هذه الأزمة الروحية أساساً ، والتى كانت مصدراً لمذاهب القلق والفراغ والضياع .

يقول « لاسكى » : من قرن مضى كان فى مقدور الدين أن يقدم للكثيرين الأمل فى تعويض ما فاتهم من الحياة وذلك فى الحياة الأخرى ، أما اليوم فقد أطفأ العلم أنوار السماء

ولا طريق للخلاص إلا فى ظل الحاضر العاجل . ومنذ قرن مضى رأى الناس بارقة أمل فى الطاقة الصناعية الجديدة والآن وبالرغم من مزاياها الهائلة يتضح أن الطاقة المادية التى تستطيع أن تشكل الطبيعة لخدمة أغراضنا دون أن يساندها مبدأ ما ، لن يصبح لها أى معنى إلا إذا كان لهذه الطاقة هدف معروف .

وقال : أن الإنسانية حاولت أن تلتمس فى بعض المذاهب الشاملة الكاملة (totalisme) شيئاً يكون دنيا أو كالدين ، غير أن القومية والديمقراطية والفاشية والماركسية لم تستطع أن تسد فى قرن أو قرنين مسد الدين الذى أشبع العقول والقلوب من قرون وقرون .

ثم عالجت الحضارة الغربية بعض أزماتها فى ميدان (علم النفس) فى محاولة لسد الثغرة الروحية فى بناء الحضارة المادية بعلم يسير فى مفاهيم العلوم التجريبية المادية يسير على مفاهيم العلوم التجريبية المادية ، ونجح علم النفس حين تواضع . وأخفق حين جمح ينشد فلسفة نفسية كاملة أو ديناً جديداً . وأشار فى نجاحه وإخفاقه إلى القرين الغائب ، إلى الدين .

* * *

وفى ظل موقف الفكر الغربى من الوثنية الاغريقة والنظرة المسيحية التى كونتها الكنيسة ، كون رأيه فى (الدين) ورآه أضيق من أن يستجيب لحركته العلمية ولتطوره. بل رآه يقف أمام حرية فكره ، فنحاه وحمل عليه . ذلك أن صورة الدين التى واجهته أوربا لم تكن إلا مغرقة فى الرهبانية والسلبية وإنكار الحياة . ولم تكن أيضاً سوى مفاهيم غيبية لا تقوم على أساس العقل ولا ترضى الذهن ولا تعطى الروح حاجتها ومن هنا أخذ الفكر الغربى يقيم دينه الخاص ، « دين البشرية » كبديل للمسيحية ومضى يعلى من شأن الطبيعة فالعقل فالعلم التجريبى ، حتى بلغت النظرة العلمية حد « المادية الخالصة » الممزجة بالإلحاد واللادينية ، أو ما يطلقون عليه اسم العلمانية ، وهو تحرير الحكم والفلسفة والشريعة والاجتماع من نظرة الدين كما تمثلت لهم .

وهذا هو أفكار الفكر الغربى النظرة الصوفية الزاهدة المطلقة التى وجدها فى المسيحية المتحولة إلى المادية الخالصة .

وكما تحولت علوم الفن والفلسفة والإجماع والتربيه فى ظل المادية عن الدين فقد تحول الفن فماذا كانت آثار ذلك على الفن نفسه . يحاول تولستوى أن يصور هذا الأثر حين يقول : أن الأديان تقدم اسمى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان فى فهمه للحياة فى أى عصر من العصور ، وفى أى مجتمع من المجتمعات ، لذلك كانت الأديان على الدوام أساس تقدير العواطف الإنسانية ، فإذا كانت المشاعر التى يثيرها الفن تقترب من المثل الأعلى الذى يشير إليه الدين وتجاريه ولا تناقضه فهى مشاعر صالحة ، وإذا كانت تنأى عنه وتعارضه فهى مشاعر رديئة . لقد اتجه الفن إلى طلب المتعة فى أوربا لضعف العقيدة الدينية الذى غلب على الأوربيين وبدأ منذ عهد احياء العلوم ، وهذا الاتجاه قد حرم الفن الموضوعات الدينية العميقة وجعله ينزع إلى العمل على إرضاء فئة قليلة من الناس، وهى الطبقة الأرستقراطية، وقد فقد الفن من جراء ذلك جمال الصور ، وغلب عليه الغموض والتكلف وسار فنا متكلفاً غير طبيعى، وأن أعراض الفن عن تصور العواطف المنبثقة من الإدراك الحسى الدينى جعله يتجه إلى طلب المتعة ، والمتع الإنسانية لها حدودها التى أقامتها الطبيعة فى حين أن تقدم الإنسانية الذى يصحبه ويردده الإدراك الحسى الدينى ليس له حدود ، والإدراك الدينى يتجدد كلما تجددت علاقاتنا بالعالم من حولنا » ومن هنا يبدو الخلاف واضحا وجذريا بين الفكر الغربى وبين الفكر العربى الاسلامى . فالفكر العربى الاسلامى يقف موقفا وسطا فيجمع بين المادية والروحية والعقل والقلب والدين فى مزيج متفاعل . وفى نفس الوقت يرفض النظرة المادية الخالصة والصوفية الخالصة ، وليس للاسلام أكليروس ولا كنيسة ولا رهبانية ولا رجل دين ، وإنما عالم دين متخصص فى أمور الشريعة والفقه .

ولم يقف الفكر العربى الاسلامى أمام العلم أو التطور أو حركة الحياة موقف الجمود ، بل كان دائماً قادراً — فى تاريخه كله — على التفاعل والاستجابة والحركة ، ومصدر قوته هى فى هذا المزيج المتفاعل . والدين عنده مرتبط بالحياة ، فيه الايجابية والقوة والدافع إلى العمل والبناء والقدرة على المقاومة العدوان ، وفيه المزيج بين الجد والفكاهه .

اليهودية والفكر الإنسانى

يمكن القول بأن الفكر اليهودى قد أخذ طابعا جديدا بدعوة « هرتزل » وكتابه « الدولة اليهوديه » هذا الفكر الممتد منذ ظهور اليهودية قبل المسيحية بأكثر من ستة قرون والذى كونته التوراة ، والتلمود ، ثم أضيف إليهما بعد عقد مؤتمر بال ١٨٩٧ « بروتوكولات صهيون » ولا شك أن أبرز ما يؤثر فى طابع الفكر اليهودى هو الإحساس بالاضطهاد الذى واجهته اليهودية على العصور وخاصة اضطهاد المسيحية لها . ومن هنا كان صراعها الأول مع المسيحية والحضارة الغربية والفكر الغربى .

ولقد طبع هذا الإحساس بالاضطهاد كل آثار الفكر اليهودى الذى امتزج منذ عصر النهضة بالفكر الغربى ولم ينفصل عنه ، بطابع الحقد على المدنية والإنسانية ، يتمثل ذلك فى مختلف الآراء التى أوردها فى كتبه أمثال رومان رولان وماكس نوردو ، ونظريات ماركس وانجلز وفرويد و دوركايم وهى النظريات التى وجهت علوم النفس والاجتماع والاقتصاد وتركت فيها آثاراً لا حد لها ، والتى كانت فى مجموعها تهدف إلى نزع إنسانية الإنسان ورده إلى غرائزه وفتح الطريق أمام دوافعه الجنسية ودفعه إلى الحرية المطلقة وتدمير كل القيم والنظم فى مجال الدين والأخلاق والمجتمع ، والقضاء على نزعات الخير والعدل والحق .

فقد صدرت هذه الدعوات وهذه الأفكار من نفوس مضطهده تحمل طابع رد الفعل متمثلا فى الخصومة للحضارة والجنس والدين ومفعمة بشعور الاضطهاد ، بل إن هذه الشخصيات التى تصدرت مجال الفكر وأوجدت لها اليهودية العالمية مجالا ضخما لنشر آرائها وتوسيع دائرتها فى مجال الأداب والفنون والموسوعات العالمية ، هذه الشخصيات عندما تدرس يوجد لها من انحرافاتها النفسية والعقلية مايدفع إلى الشك فى استواء فكرها وعجزه على فهم الإنسانية والإيمان بها والعمل من أجل إسعادها .

ومن النظرة إلى التلمود ، وعصارته فى « بروتوكولات صهيون » تنكشف النظرة اليهودية إلى الفكر الإنسانى وإلى الحضارة وإلى الإنسانية فى طورها الحديث المسمى « بالصهيونية » ، هذه النظرة التى تدفعها أهداف عميقة بعيدة المدى فى السيطرة على العالم والإنسانية على أساس

مفاهيم اليهودية بأنها شعب الله المختار ، وملح الأرض ، والأمة الفضلى ، وبأن كل ما سوى اليهود عبيد وأن العالم كله مسخر لخدمتهم .

ويتصل بالتلمود وبروتوكلات صهيون، تلك الجماعة الضخمة البعيدة المدى : «الماسونية» التى نفذت منذ مئات السنين إلى كل المجتمعات وأقامت محافلها الضخمة فى الشرق والغرب وفى العالم الإسلامى وضمت إليها عظماء هذه الأقطار وحكامها واستطاعت أن تسيطر وأن تفرض سلطانها سراً وتنفذ رغباتها .

ويتصل بهذا فريق « الدونمة » الذى أسلموا فى عهد السلطان محمود فى تركيا لينجوا من اضطهاد رؤسائهم والذين أقاموا فى «سلانيك» منعزلين عن المسلمين مؤثرين فيهم بالنفوذ الفكرى والمالى وقد نسب إلى هذه الطائفة عدد كبير من أبرز حكام تركيا ودعاة الحرية والدستور والتغريب والنفوذ الأجنبى بها . ومن هؤلاء جاويد بك وزير المالية الذى استطاع أن يقذف بأكبر عدد من الدونمة إلى كبريات المناصب ودواوين الحكومة .

ولا سبيل إلى معرفة أثر اليهودية فى الفكر الإنسانى إلا بالنظر إلى دورها الضخم الخطير فى مجال السيطرة المالية والاقتصادية فى العالم كله ونفوذهم الواسع فى الولايات المتحدة ومن قبل فى بريطانيا وأعمالها ذات الأهمية فى مجال العلم التجريبى والذرة والصواريخ والقنابل الهدروجينية فإن أساطين هذا العلم فى أمريكا وروسيا على السواء من اليهود .

وقد عرف اليهود بذلك المجتمع المحدود بهم ، وهذه العزلة عن البشر ، باعتبار أن دينهم ليس دينا عاما وإنما هو دين خاص ، وقد كان لهم أثر ضخم متصل فى تطور الحضارة الغربية منذ عصر النهضة إلى اليوم ، هذا الأثر الجذرى الممتزج بالحضارة الغربية فى مختلف فروعها الفكرية والتجريبية حتى يمكن أن توصف هذه الحضارة بأنها حضارة ممتزجة : (مسيحية يهودية) .

غير أن دورهم فى الحضارة وهم أهل المال والربا كان بعيد الأثر فى دعم الجانب التدميرى للأخلاق والقيم ، ويجمع الباحثون على أن التجارب الاقتصادية والاجتماعية قد كشفت عن أن البلاد التى ازدهر فيها الربا فقدت التعاطف والتراحم وحلت القسوة فيها محل الحنان والعدل .

ولا شك أن طابع اليهودية في الحضارة الأوربية واضح ، وهو الصراع على المطامع المادية ودفع موجة حيوانية الإنسان والقضاء على الدين والأخلاق كوسيلة للعمل على تدمير المسيحية والقضاء على الإسلام وتغليب اليهودية (دينا وجنسا) وأداة ذلك فتح الطريق أمام الحرية المطلقة وتدمير القيود الأخلاقية والاجتماعيه والدينية وليست وسيلته عن طريق أشرطة الصور المتحركة ، واختراع الرقص الخليع بأنواعه ، ومسابقات الجمال واختيار ملكات الجمال ، ونوادى العراة .

ولكن بتعميق هذا الاتجاه تعقيله وتحويله إلى عقائد عن طريق دراسات الفكر وعن طريق النظريات العلمية الموضوعة بدقة وفق مناهج البحث العلمى وفى مقدمة هذه نظريات لورنس ونيتشه وهافلوك أليس ، ووليم جيمس وماركس وديوى وفرويد ودوركايم ، ثم فى مجال الأدب العالمى : ماكس نوردو ، وهوتمان وتومسان مان ، ومورد .

وقد دعت كتابات هؤلاء مع كتابات جوزيف كيسيل وموريس ديكورا وغيرهم إلى عبادة اللذة والشهوة والمجون ونشر صحف المجون وقصص الدعارة والصور العارية واعتبارها من أروع أعمال الفن ، ونشر أخطر الكتب المحظورة على أذهان الشعب ، وأفلام الجرائم وقصصها ، ونشرها تحت ستار التحقيق الجفائى ، وذلك كله للتحريض على اقترافها وتوجيه الجماعات إلى التحلل من كل القيم والخلق والفضائل والأديان .

* * *

× هدم الحضارة : ويؤكد كثير من الباحثين الغربيين أن اليهودية تتآمر على الحضارة ، يقول بيلمان فى كتابه « اليهود المعاصرون » لقد حاول اليهود أن يهدموا حضارتنا فقضية دريفوس علمتنا كثيرا من دأب اليهود على إنقاذ رجالهم مهما كلفهم الإنقاذ من مال وجهد . دفع روتشيلد أكثر من مليونى جنيه فى قضايا دريفوس ودفع بيت روتشيلد عشرة ملايين روبل ذهبا لإنقاذ بوصروف اليهودى الروسى ويرى بيلمان : أن فرويد خلق الإباحة الحديثة على نمط الوثنية الإغريقية ومجد الغريزة وأطلق عنان الشهوات البشرية ورخص للرجل والمرأة أن يفعلا بجسدها ما شاء الشبق الكامن فى حنايا ضلوعهما ، فالتهتك الجنسى لا حد له فى رأيه ، والولد يغار على أمه من أبيه ويود لو يموت الوالد ليحل محله ، أما الأحلام فلا تفسير لها إلا الاغتلام وعلاقة الجنس .

أما توماس مان فقد برر عشق الذكور (الموت فى البندقية) ووصف مرضى الصدر كحيوانات متلاشقة تتخذ من يأس الشفاء عذراً للتساند ، فصحات الجبال مواخير المرضى تحت مراقبة الأطباء الذين لا يملكون منعهم (قصته الجبل المسحور) .

ويصف الباحثون الغربيون اليهودية العالمية (ممثلة فى الصهيونية) بالحقد على الانسانية والتخريب ، وأن اليهودية لا تخلق حركة اجتماعية على إطلاقها ولكنها لا تكاد ترى حركة تنبع حتى تسارع إلى استغلالها وتوجيهها إلى ما يخدم مصالحها ، ويحاول بعض المفكرين أن يستشهد بنصوص التوراة والتلمود وبروتوكولات صهيون التى تصور فى صراحة وجرأة منطق « اليهودية » فى تدمير الانسانية فالتوراة تقول « ليمت جميع الناس ويحيا إسرائيل وحده ، يرفعك الله فوق جميع الشعوب فى الأرض ويجملك الشعب المختار المقدس » وفى التلمود « يباح لاسرائيل اغتصاب مال أى كان ، وأن أملاك غير اليهود كالمال المتروك يحق لليهودى أن يتملكه . وكما أن بنى الانسان يسمون على الحيوانات فإن اليهود يسمون على شعوب الأرض جميعا »

× صراع اليهود مع المسيحية : وقد وجهت اليهودية إلى المسيحية حملة ضارية تبدو واضحة المعالم فى التلمود وبروتوكولات صهيون فقد أشار التلمود إلى ما أسماه ولادة المسيح غير الشرعية ، واستعماله للسحر ، كما هاجم الكنيسة والقديسين والأسرار ، هذا فضلا عن عشرات من المؤلفات التى تطعن المسيحية والمسيح والكنيسة ، ولا شك أن هذه الخطوات الواسعة التى خطتها اليهودية فى سبيل السيطرة على الحضارة الغربية والفكر الغربى قد حققت نتائج خطيرة ، فاليهود هم الذين صنعوا الماركسية أساساً ودفعوها إلى الأمام ، وفى بروتوكولات صهيون إشارة إلى ذلك « البولشفة بنت اليهودية ، ترعرعت وشبت فى أحضان اليهود حتى اختطفها ستالين من أيديهم »

وقد كشف إميل الخورى فى كتابه « مؤامرة اليهود على المسيحية » عن النصوص الخطيرة فى بروتوكولات صهيون للقضاء المسيحية والسيطرة على الحضارة الغربية وإشارة اليهودية إلى تأييدها لنظريات دارون ماركس ونيتشة : « لاحظوا أن نجاح دارون وماركس

ونيتشة قد رتبناه من قبل ، وأن الأثر غير الأخلاق لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى (غير اليهودى) سيكون واضحا لنا على التأكيد » .

كما أشارت البروتوكولات إلى الثورة الفرنسية « اذكروا الثورة الفرنسية التى تسميها الكبرى ، إن أسرار تنظيمها التمهيدى معروفة لنا جيدا لأنها من صنع أيدينا » .

أما المسيحية فقد وجهت إليها البروتوكولات نبوءات خطيرة « لن يطول الوقت إلا سنوات قليلة حتى تنهار المسيحية بدءاً انهياراً تاما . وسيبقى ما هو أيسر علينا للتصرف مع الديانات الأخرى » وقالت البروتوكولات « حينما يحين لنا الوقت كى نحطم البلاط البابوى تحطيما تاما فإن يداً مجهولة مشيرة إلى الفاتيكان ستعطى إشارة الهجوم وحينما يقذف الناس ، أثناء هياجهم ، بأنفسهم على الفاتيكان سنظهر نحن كحماة له لوقف المذابح . بهذا العمل سننفذ إلى أعماق قلب هذا البلاط وحينئذ لن يكون لقوة على وجه الأرض أن تخرجنا منه حتى نكون قد دمرنا السلطة البابوية .

ولن نهاجم الكنائس القائمة الآن حتى يتم إعادة تعليم الشباب عن طريق عقائد مؤقتة جديدة ، ثم عن طريق عقيدتنا الخاصة بل سنحاربها عن طريق النقد الذى كان وسيظل ينشر الخلافات بينها » .

* * *

وفى ظل هذه الآراء ظهرت الحركة المضادة (اللاسامية Anti — scmitism) التى يقوم بها الفكر الغربى باعتبار اليهودية قوة مخيفة تحاول تدمير الحضارة والسيطرة على الفكر البشرى .

ويحاول الفكر الغربى بأن يتهم الفكر اليهودى بالسطحية ، ويقول مستشرق ألمانى أن السامى لا لذة عقلية عنده ، ولا تستهويه الطبيعة ، ولذا لم يبرز فى العلوم الطبيعية ولم يكتشف شيئا من أسرار الكون الطبيعية . وأن الخلق السامى أنانى فردى لا يخضع لزعامة ولا ينتظم فى نظام .

والمعروف أن الأقليات الكثيرة من الأمم قد ذابت فى المجتمع الغربى الكبير ما عدا اليهودية التى حافظت على لغتها ودينها .

ولقد عملت الكنيسة على اضطهاد اليهودية وتابع ذلك اضطهاد سياسي وعرف دائماً ما يسمى بحى « الجتو » وهو الحى اليهودى الرهيب فى المدن الأوربية الكبرى الذى يجبر اليهود إلى الإقامة فيه .

واستطاعت اليهودية كرد فعل لذلك إلى التغلغل والتسلل إلى جبهات الثقافة والفكر والتمثيل والموسيقى والصحافة والمحاماه والطب والنشر حتى أصبح نفوذها كبيرا وبعيد المدى ، هذا النفوذ قد ارتبط فعلا بالحركة الصهيونية التى حمل لواءها «هرتزل» والتى استطاعت أن توجه أبحاث التاريخ والموسوعات العالمية على النحو الذى تريده اليهودية فأجريت تحريفات لا حد لها للاسلام وتاريخه ومفاهيمه وإلى العالم الإسلامى واللغة العربية .

وقد اتسع هذا النفوذ حتى أصبح يمثل شبه سيطرة كاملة على جوانب الفكر الغربى كله ، وقد انغمس فلاسفة يهود يحملون فى أعماقهم مطامهم وأحقادهم فكان لهم أثرهم أمثال سبينوزا وهينى ومندلسون واستطاعوا أن ينتفعوا بالعقائد الجديدة : كالديمقراطية والاشتراكية التى حققت خلاصهم من العزلة .

وبالرغم من حملات المفكرين على اليهود كقول تشمرلن إن اليهودى غريب عن الحضارة الغربية لأن روحه لا توائمها ، فإن اليهودية استطاعت أن تسيطر عن الفكر العالمى والحضارة الغربية وأن توجهها وجهة خطرة ، فقد كان لها دورها فى فرض عوامل الإلحاد والإباحة والكشف وهدم القيم والأخلاق والأديان .

وقد ظلت ترمى المسيحية بالضعف والجبن والسلبية ، حتى نفض الفكر الغربى يديه منها نفضا . وكان لها دورها فى إذاعة هذه الآراء وتأكيدها ، كقول نيتشة فى كتابه المسيح الدجال : (Anti — chriet) إن الرجل الأوربى بدأ بالتقهقر خلقيا وعقليا عند ما اعتنق الدين المسيحى . وكتاب لدوفيج عن المسيح الموسوم بـ (ابن الإنسان) وكتاب شفيتزر عن المسيح ، هذا الكتاب الذى يقول عنه سلامه موسى : « أن شفيتزر ألف كتابا عن المسيح وعالج حياته بمشرط (فرويد) بما لا يرضى المسيحية ، وقد قرأت الكتاب وأحسست وأنا فى الفصول الأخيرة أن الحلوى التى كنت ألوكها بلسانى قد استحالت إلى علقم مر لا أسيغه ولا أطيقه » .

فلسطين ليست غير العش التى ستولد منه المدنية اليهودية المستقبلة » .

* * *

وقد أشار أكثر من كاتب ممن كشفوا محاولات اليهودية للسيطرة على الفكر البشرى والحضارة العالمية أن الكتاب الذين يجرى فى عروقهم دم يهودى كانوا طليعة الدعاة إلى المذاهب المنافية للدين والآداب والمجتمع .

ويعتقد دستويافسكى أن اليهود قد احتضنوا الماركسية معتقدين أنها ستقتلع أصول المسيحية وتلاشى تمدنها ، وأن هدفهم من بث الدعاية الخبيثة للمبادىء المائلة للنزاز باسم المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية أيما يهدف أن تسود روح هذه المبادىء على روح الإنجيل .

وقد أشارت بروتوكولات صهيون إلى ذلك فى أكثر من موضع ومن ذلك قولها : « أن دارون ليس يهوديا ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ونستغلها فى تحطيم الدين » وفى قولها « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشة بالترويج لآرائهم ، إن الأثر الهدام للأخلاق التى تنشئه علومهم فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

وجملة آراء هؤلاء بالإضافة إلى دوركايم ولورنس وسارتر تتمثل فى احتقار الدين وتحطيم الأخلاق واعتبار الإنسان حيوان . فماركس يرى الدين افيون الشعوب ، ومجموعة من الأساطير لتخدير الجماهير الكادحة ، وفرويد يرى أن الدين ناشىء عن الكبت ومن عقدة أوديب ، ودوركايم يرى ان الزواج ليس من الفطرة وأن الأخلاق والمجتمع والزواج من صنع العقل الجمعى الذى لا يثبت على حال .

ويذهب الباحثون إلى أن اليهودية عملت على تحطيم المسيحية عن طريق قيام النهضه على أساس لادينى : مصدره (١) فصل الدين عن كل عناصر الفكر والحياة (٢) حيوانية الإنسان .

وعلى ضوء هذه النظرات يمكن القول بان سياسة اليهودية التى رسمها موتمر حكماء صهيون عام ١٨٩٧ قد خطت خطواتها العمليه فى ظل الحقد على العالم واستغلال كل الدعوات

والعجيب أن اليهود قد استطاعوا أن يحملوا كثيراً من المسيحيين على أن يكتبوا مثل هذه الكتب وأن يذيعوها، كما تحول كثير من اليهود عن دينهم فاعلنوا أنهم مسيحيون من أجل حرية الحركة فى مهاجمة المسيحية .

ومما يتصل بهذا ما تأثرت به موسوعات دوائر المعارف الغربية بل ودائرة المعارف الإسلامية التى كان يشرف عليها كتاب يهود. ومن هنا ظهرت عديد من نظريات تزيف تاريخ الإسلام والعرب، بل إن كثيراً من الكتاب العرب والمسلمين كانوا بقصد أو بغير قصد خداما لليهودية والفكر اليهودى ، وقد حفلت الصحف فى مطلع هذا القرن وإلى الأربعينات ببحوث ضافية عن اضطهاد اليهود وحقهم وعبقريتهم فى الأهرام والمقطم والهلال والمقتطف والمجلة الجديدة والمصور .

ومن هذه الأبحاث ما كتبه عمر عنايت عن ما أسماه[1] (المدنية اليهودية) يقول « أعتقد أن عهد ما تسمونه المدنية المسيحية — مدنية أوربا الحالية — على وشك الزوال وبالطبع ستقوم مقامها مدنية أخرى اعتقد أنها ستكون أكثر اهتماما بالماديات من المدنية الحالية ولكن على نسق آخر . من السهل ملاحظة التسيطر المالى اليهودى الآخذ بخناق العالم ، كذلك يشعر المفكرون أن اليهود قد أثروا فى توجيه الرأى العام إلى جهة غير الجهة التى كان يتطلع إليها ، وأنهم قد استفادوا من القلق الاقتصادى الذى نتج عن الحرب وأنك إذا بحثت كل حركة هدامة أو مجددة فى الوقت الحاضر تجد أن محورها الدعاية اليهودية . الأمر الذى يمكننا مشاهدته متجليا فى موقعتين : أولا فى (روسيا) ثانيا فى (فلسطين) .

وهذين الموقعين هما بحق مربض المدينة المستقبلة . ففى روسيا تجد الثورة تزكيها الدعوة اليهودية التى تجد المجال فسيحا لمهاجمة المسيحية — حاملة علم المدنية الحالية — أما فى فلسطين فسياسة اليهود تختلف . حيث يريدون أن يشيدوا فى فلسطين نقطة ارتكاز يوجهون منها جهودهم .

وأن روسيا هى معمل البارود البلشفى الذى يعمل على نسف المدنية المسيحية فإن

(١) المصور (فبراير — ١٩٢٩) .

والمذاهب الحديثه لتحقق سيطرتهم الكامله على العالم . وانهم الموجهون لدعوات الإلحاد والإباحه والسيطرة على أنظمة الاقتصاد العالمى على اساس سيطرتهم على الذهب الذى يحتكره اليهود ، وانهم كانو دائما وراء الراسماليه والشيوعية جميعا ، يثيرون مخاوف كل جناح على الآخر حتى لا يلتقى العالم فى مهادنه تقية شر الصراع .

وقد أشار إلى ذلك الحاخام عمانويل ايفانوفيش حين قال : « ان اثارة روح الحرب بين امريكا وروسيا انما تهدف إلى ان يضعف الخصمان وتتضعضع قواهما ثم تتم السيطرة اليهودية على العالم » ا . ه .

ولاشك أن أغلب الشبهات والشكوك التى حملت لواءها دعوة التغريب والشعوبيه والغزو الثقافى كانت من صنع الفكر اليهودى الصهيونى ، الذى كان يسيطر قبل عام ١٩٥٢ على الصحافى العربية فى مصر ، وكانت دعوات تمجيد دارون فرويد ونيتشه وسارتر وغيرهما انما تنبعث من مخطط مدروس ، يجرى فى ظل الفكر الغربى اصلا ، ولكنه يستهدف شيئا ابعد مدى هو تمزيق الفكر العربى الاسلامى واثاره الشبهات والاوهام ونزعات التشكيك فيه حتى يسقط .

وبالجملة فان الفكر اليهودى يسعى الى السيطرة على الفكر الانسانى وذلك بالقضاء على الفكر الغربى والفكر العربى الاسلامى جميعا .

الكتاب الثالث

التغريب والشعوبية

— ١ —

تغريب الشرق

ليس شك أن حركة « تغريب الشرق» wastrutem هى دعوة كاملة لها نظمها وأهدافها ودعائمها ولها قادتها الذين يقومون بالإشراف عليها ، وهى حلقة من مخطط واسع فى تأكيد الاستعمار ودعمة ، قوامها عمل استعمارى فكرى بعيد المدى قصد بها القضاء على معالم شخصية هذه الأمة وتحويلها إلى صورة غربية الملامح لتخليصها من القيم والمثل والتراث الذى يتصل بها والذى كان عاملا على تكوينها خلال الأجيال الطويلة .

كان الاستعمار يفهم أنه بعد أن سيطر على « العالم الإسلامى » بجيوشه وقواه العسكرية ونفوذه السياسى لا بد يوما أن ينسحب ، فكان لا بد من وضع مخطط دقيق لبقاء نفوذه فى المناطق التى احتلها ، وكان لا بد له أن يبقى حتى تتكون له طلائع تخلفه من أهل الاقطار نفسهـــا ، تؤمن بفكره ، وتسير فى اتجاهه ، وتخدم مصالحه ، تتكون عن طريق التعليم فى مدارسه ، ووفق أهدافه ، وتكون أماناتهم له أكثر من أماناتهم لأوطانهم .

وليس كل من تثقف بالغرب ، أو اتصل بالمستشرقين ودوائر الفكر الغربى كذلك . وليس كل من اتصل بالغرب وآمن به استمر على إيمانه ، فإن الحقائق لا تلبث أن تنكشف عن زيف الاستعمار ومغالطته ، فلا يلبث الأمر أن يظهر أن هناك خداعا قوامه كلمات براقة، وشعارات تقول بتنوير الشعوب وتمدينها وتدعو إلى الحرية أو الأخاء أو المساواة ، أوماشابه ذلك ، ثم لا تلبث الأحداث أن تثبت تعصب الغرب وتناقضه ، واثباره بهذه الأمة وفرض سلطانه بالحديد والنار ، هنالك تتحول الأفكار عنه ويكفر به من كان قد خدع يوما .

ولسنا فى هذا نذهب إلى الغض من شأن الفكر الغربى أو نصرف وجوهنا عنه ، بل على العكس من ذلك ، نحن لا نراه فكرا غربيا وإنما نراه فكرا إنسانيا فى الأساس وأن انحرف فى بعض مفاهيمه ، ونحن لا نقفل أبوابنا أمام الثقافات العالمية شرقية وغربية فقد شاركنا فيها ، وكان لنا دورنا الكبير فى بناء هذه الحضارة ، دورنا غير المذكور عند المنصفين من كتاب الغرب ومفكرية .

ولكنا قبل أن نفتح الأبواب لكل الثقافات لا بد أن نكون من متانة الاستعداد النفسي والذهني والروحي بحيث لا تقتلعنا ثقافات الأمم ، ولا تحولنا وجهة غير طريقنا ، ولا تفسد معالم شخصيتنا الأساسية الواضحة . فلقد نقلت أوربا ثقافتنا العربية الإسلامية وأقامت عليها أسس حضارتها ومع ذلك لم تتحول وجها عربيا أو إسلاميا أو شرقيا .

كذلك نحن أمة ، لها مقوماتها وكيانها ووجهها ذى الملامح الواضحة ، فلابد أن يبقى هذا « الأساس » ثم لنأخذ ما نشاء من حضارات الأمم وثقافاتها ، ما يزيد شخصيتنا قوة وحياة ويدفعنا إلى الأمام فى ركب الحضارة .

ولعل « حركة التغريب » لم تكن قاسية إلا بالنسبة لهذا الأمر ، فقد كانت صيحتها على لسان دعاتها واتباعها من كتابنا ، أن الحضارة الغربية كل لا يتجزأ وأنه لا بد من أخذها جميعا ، أو تركها جميعا ، وهذا رأى مدخول ، فيه من الخطأ والاستهانة بالفكر نفسه ما فيه ، فما من أمة تستطيع أن تأخذ كل ما عند الأمة الأخرى ، ولقدعاشت الأمم تتقارض الحضارات وتقتبس الثقافات دون أن تتحول عن طوابعها أو مقوماتها الأساسية .

ولقد كان الاستعمار والنفوذ الأجنبي يعرفان أن السيطرة الكاملة على هذه الأمة أمر مستحيل ، فإن لها من مقومات شخصيتها القوية الصامدة العنيدة ، ومن أسس فكرها العربي الإسلامى القرآنى ما يحول دون الاستسلام أو الركوع أو الخضوع لأى قوة خارجية أجنبية ، فكان لا بد من الحملة على هذه المقومات للقضاء عليها وتحويل وجه الأمة إلى قيم أخرى تدمر كيانها وتفرض عليها التسليم للقوى الخارجية فى أن تسود وتمتد وتتوسع ، وبذلك يبقى الاستعمار حيا فى صورة أخرى من صور النفوذ الفكرى .

إذن فالتغريب أساساً محاولة لـ « تغيير المفاهيم » فى العالم العربى والإسلامى والفصل بين هذه الأمة وبين ماضيها وقيمها ، والعمل على تحطيم هذه القيم بالتشكيك فيها وإثارة الشبهات حول الدين واللغة والتاريخ ومعالم الفكر ومفاهيم الآراء والمعتقدات جميعا .

ولقد صور لورد كرومر منهج هذا العمل الذى اصطنعته فرنسا وانجلترا وهولندا

فى العالم الإسلامى حين قال : « أن الشبان الذين يتلقون علومهم فى انجلترا وأوربا يفقدون الثقافية والروحية لوطنهم ، ولا يستطيعون الانتماء فى نفس الوقت إلى البلد الذى منحهم ثقافته فيتأرجحون فى الوسط ويتحولون إلى مخلوقات شاذة ممزقة » .

وكان هذا بالطبع هو الهدف من الارساليات المختلفة التى غزت بلادنا فى صورة مدارس وجامعات وفى البعثات الموجهة إلى أوروبا وإلى عواصم الدول المحتلة بالذات .

وفى هذا ، قال « جبران » أن الشاب الذى تناول لقمة من العلم فى مدرسة أمريكية قد تحول بالطبع إلى معتمد أمريكى ، والشاب الذى تجرع رشفة من العلم يسوعيه صار سفيرا لفرنسا ، والشاب الذى لبس قميصا من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلا لروسيا ، وكان هذا هو الحق إلى حد كبير ، فقد غزا الغرب الشرق . بجحافل من العلماء والمبشرين والمستشرقين والأثريين والصحفيين ، وشيدت مؤسسات ضخمة فى مختلف عواصم العالم الإسلامى تفتح أبوابها لثقافات بلادها . وبدأ هذا النفوذ الفكرى يعمل ويسيطر فى مجالات المدرسة والجامعة ، والصحافة ، والثقافة والتربية والطب والسينما والاذاعة .

وهكذا كان « التغريب » عملا خطرا دقيقا قوامة الحرب المنظمة للقيم التى عاشت عليها أمتنا ، فى أسلوب مغلف بالضباب ، يحاول أن يثير غمامه كثيفة من التشكيك والتحقير والاستهانة بكل ما لدينا من قيم باسم « القديم » البالى الموروث ، ولم تمض سنوات قليلة حتى كان أبرز المسيطرين على « الصحافة » فى العالم العربى والإسلامى من هؤلاء المتنكرين لقيمنا الذاهبين مع التغريب فى طريقه ، والصحف الوطنية ذات المبادىء كانت تسقط واحدة بعد أخرى ، بينما ظلت الصحف التى تخدم التغريب تقوى وتتسع . وفى مجال « الترجمة » كان الهدف هو بث فكر جديد قوامه القصص المكشوفة ، والآراء المسمومة ، وفى مجال المدرسة كانت تقدم الكتب التى تنقص من قدرنا وتصم تاريخنا بالضعف وماضينا بالذلة وسيطر على الجو الفكرى كله تيار جديد هدام قوامه الاستهانة بكل القيم وفى مقدمتها الدين والروحية ، كما فرضت الحضارة على بلادنا أسوأ ثمراتها ، لم ترسل لنا إلا تجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو بغية تحطيم كيان المجتمع ، وبدت فى جو مجتمعنا ريح تدعو إلى الرخاوة والمتعة واللذة والتخلص من كل القيود .

ولم تكن هذه الدعوة تهدف إلا إلى تدمير القيم الأساسية لهذه الأمة ، قيم المقاومة والصلابة والتصميم وتحويل نظر الأمة عن الجهاد والتضحية والفداء فى سبيل الحرية .

كان هدف التغريب واضحا هو محاولة قتل شخصيتنا ، ومحو مقوماتها وتدمير فكرها ، وتسميم ينابيع الثقافة فيها . وفى هذا المجال برزت الدعوة إلى التحرر من طابع العروبة وطابع الدين وجرت الشعارات الجديدة فى الارتباط بحضارات البحر الأبيض ، وبأن مصر جزء من أوربا ، وبرزت دعوات الفرعونية فى مصر والفينيقية فى الشام والآشورية فى العراق ، وبرزت النعرات القديمة باسم مسيحى ومسلم ، وعربى وبربرى ، وعربى وكردى ، وكان الاستعمار هو الذى يحمل لواء هذه الدعوات ويثيرها ويقلب جمرها ، ويخرجها من كهوف الماضى ليمنحها الحياة ويجمع حولها بعض أعوانه عن طريق الفكر والكتابة بغية تقسيم الأمة .

ولم يمض طويل حتى اعترف كتاب الغرب بحركة التغريب وجاءوا يبحثون مدى ما وصلت إليه وما حققته من هدف . وقال جب فى كتاب « وجهة الإسلام » : أن حركة التغريب كانت بعيدة المدى فى إزال الاسلام من عرشه فى الحياة الاجتماعية .

* * *

وقد عملت « حركة التغريب » فى عدة ميادين ، بدأ العمل فيها غربيون نزلوا إلى المعركة ثمة ، ثم أسلموا مقاليد الأمور من بعد إلى كتاب من العرب والمسلمين ، حتى يبعثوا الثقة فى نفوس المواطنين إلى الصوت الأليف الذى يجد الصدى ، وفى كل ميدان من ميادين العمل كان النفوذ الأجنبى يجد من يعاونه من أبناء الأوطان ، وإذ كان هجومه على الدين كان قاسيا ، فإن من المؤسف أن تجد كثيرا ممن حمل لواء هذا الهجوم من الذين ثقفوا أول الأمر ثقافة إسلامية وكانت اللغة والدين فى الأغلب هما الميدانان الكبيران للعمل البعيد المدى ، وأن كان التغريب لم يترك ميدانا دون أن يوغل فيه ويسممه ويبعث فيه الشك .

وكانت كلمة « حرية الفكر » والتقدمية ومقاومة الرجعية ، والتطور من الكلمات البراقة التى لعبت دوراً كبيراً فى خداع الجماهير .

واستطاع التغريب أن يجد المنافذ المرنة الماكرة إلى ما يريد دون أن يصطدم بالعقائد ، أو يواجه المواقف الحرجة ، وأن كان المبشرون قد هاجموا المقومات صراحة ، وقاموا بعملهم فى عنف أول الأمر ، فإنهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الخطة ، واختفوا من المسرح ، واستبطنوا أهدافهم ، وحولوها إلى صورة أخرى أكثر دقه ومكرا . فبرزت أحاديث صورية فيها تمجيد للدين واللغة ومقومات الأمة فإذا تخدرت أفكار القراء . ووثقوا بالكاتب وكتاباته ، بدأت عملية التشكيك الخفى ، المدخول الدقيق ، بل أن بعض الكتاب الذين عملوا مع التغريب وهاجموا المقومات الأساسية فى أول الأمر ، لم يلبثوا بعد قليل أن تحولوا مظهريا ، وخاضوا الحديث فى أقدس مقدسات الأمة ؛ عاملين على كسب الثقة الشعبيةالعامة فى هذا المجال ، حتى يتأتى لهم من بعد أن يحققوا فى الخفاء ما يهدف إليه دعاة التغريب ، لقد اختفت المعركة من المسرح ، ودخلت إلى الكواليس ؛ فكان مجال العمل ،هو مناهج التعليم نفسها ، أو مقالات الصحف أوفرض المذاهب الفكرية الغربية ، وتأكيدها والاختفاء ورائها. وخاصة ما يتصل منها بمقاومة القيم العربية الإسلامية ، كالمذاهب المادية والنظريات الفلسفية والنفسية التى تدمر قيم الإنسان وتعريه وتكشفه على نحو يقلل من كرامته ، وفى هذا المجال ظهرت عشرات من النظريات والمذاهب والفلسفات المضطربة الذاهبة فى كل مجال ، وكان من شأن إذاعة هذه المذاهب والنظريات أحداث بلبلة فكرية من شأنها أن تقضى على الإيمان بالمقومات الأصلية . وتدفع الفكر العربى الإسلامى فى متاهات وتخبطات .

بل أن الخطط التى قدرها الغربيون إزاء موقف المسيحيةالغربية والكنيسة حين حاولت أن تقف أمام النهضة والحضارة ، جرى نقلها إلينا مع الفارق البعيد بين موقف الإسلام من الحضارات والنهضات وموقف المسيحية ، فلقد كان الإسلام قادرا دائما على مواجهة كل تطور ، وفيه من السماحة والتفتح والاستجابة ما جعله صالحا لكل زمان ومكان ، فكان هذا الاتجاه فى نقل موقف الغرب من جمود الكنيسة ليس إلا لونا من هذه البلبلة الفكرية التى هى قوام دعوة التغريب.

* * *

ولم تكن حملات التغريب على القيم والمقومات والتاريخ واللغة والدين فى الشرق

قائمة على أساس علمى على نحو ما يذهب إليه أسلوب البحث العلمى الأصيل ، وإنما كانت حملات يغلب عليها الهوى والتعصب ، وتسيطر عليها ريح الحقد والاستعلاء وخلق الفوارق البعيدة بين الجنس الأبيض وغيره من الأجناس مع سيطرة فكرة التفرقة بين أصحاب الحضارة وبين الشعوب التى كان لها دورها من قبل فى حمل أمانة الحضارة ، حين كانت أوربا تعيش فى الوحل والظلام ، فإذا أضيف إلى هذا ذلك الإصرار العجيب على إنكار فضل العرب والمسلمين على الحضارة على نحو فيه مغالطة وإنكار لوقائع التاريخ نفسه ، تبين إلى أى مدى يذهب دعاة التغريب ، فآسيا هى المتبربرة ، وأوربا هى المتحضرة ، وليس أكذب ولا أبعد عن الحقيقة ما يحاول الغربيون أن يقولوه فى هذا المجال من أن التاريخ والحضارة قد بدأت من أثينا ومرت على روما . . ثم اختفت ألف سنة لتظهر من جديد فى حركة النهضة . أما قبل أثينا فليس شىء ، وأما ما قبل النهضة فلا شىء ، وفى هذا الرأى ما فيه من الخطأ ومجافاة الحقيقة .

والواقع أنه كانت قبل أثينا حضارات النيل والفرات ، وقبل النهضة كان المسلمون والعرب فى دورهم الضخم البعيد المدى حين حملوا لواء الحضارة والفكر ، وترجموا آثار اليونان وزادوا فيها وأضافوا إليها وحققوا الأسس الكبرى التى قامت عليها الحضارة فيما بعد .

* * *

والحق أن حركة تغريب الشرق قامت على المغالطة والتضليل ، ومحاولة مسخ القيم والمقومات العربية والاسلامية وإدخال قيم ومقومات جديدة تهدم شخصيتنا وتصيرنا مسخا لا هو من الشرق ولا هو من الغرب ، ثم هى بعد ذلك تنكر دورنا وتحاول أن تغض من شأن لغتنا وتاريخنا وتراثنا على نحو لا يصمد أمام البحث العلمى الصحيح ، وهو ما سنكشف عنه بتوسع فى مختلف مجالاته وجوانبه .

- ٢ -
حركة التغريب

إن أبرز ما تهدف إليه « حركة التغريب » هى تغيير المفاهيم الأساسية والقيم الأصيلة للأمة ، هذه المفاهيم والقيم التى كونتها وطبعتها مقومات من الأرض والمكان ، والثقافة والعرق والذوق . فليس شك أن مقامنا فى هذه المنطقة ذات الطابع المعتدل من الخصب والنماء ونزول الأديان السماوية الثلاث بها والتقاء الأجناس والشعوب منذ أربعة عشر قرنا على ثقافة لها طابع موحد مشترك ، إنما أعطى صورة مكتملة للفكر العربى الإسلامى .

ومن هنا تجىء دعوة التغريب التى تحاول أن تلقى بذور الشبهات حول عروبتنا أو أسلافنا أو شرقيتنا فنقول بأننا جزء من أوربا ، أو من حوض البحر الأبيض ، أو تحاول أن تفسر الصلات بيننا وبين الغرب على النحو الذى يقضى على كياننا وطابعنا أو دعواهم بأن الحضارة تراث مشترك للانسانية وعلينا أن نأخذها : خيرها وشرها ما يحمد منها ويعاب .

وفى هذا كله تمويه لحقائق لابد أن تكون واضحة فى أذهاننا حول قضايا ثلاث :

(١) المعرفة والعقيدة .

(٢) الشرق والغرب .

(٣) الحضارة والثقافة .

(٤) الأساس والبناء على الأساس .

ذلك أن هناك مفاهيم واضحة حول الفرق بين المعرفة والعقيدة ، فالمعرفة إنسانية والعقيدة مرتبطة بالأمة وثقافتها فى الأغلب .

فالشرق له مفاهيمه وعقائده والغرب كذلك ، وقد اتسمت ثقافة الشرق بالروحية وعرفت ثقافة الغرب بالمادية ، أما المنطقة العربية الإسلامية فقد عرف فكرها بمزاج الروح والمادة والدين والعلم ، والعقل والقلب .

ومن هنا يكون وجه الخلاف فى المفاهيم والقيم ، ومن هنا يكون التحفظ من خطة التغريب التى تهدف إلى القضاء على المفاهيم والقيم الإسلامية العربية وإحلال مفاهيم غربية مكانها .

كذلك هناك فارق بين الحضارة والثقافة . فالحضارة علم تجريبى وصناعة وما كينات وذرة وأسلحة وهكذا ، والثقافة فكر وقيم ودين ولغة وتاريخ . ومن هنا يبدو خطأ القول بأن ثقافة الغرب جزء من حضارته ، وإن على الشرق أن يأخذها مع الحضارة ، ذلك أن الحضارة ملك مشاع للانسانية شاركت فيه ولها أن تأخذ منه ، أما الثقافة فهى فى الأساس مرتبطة بالنفوس والأذواق والأمزجة ؛ هذا إن هما الملحظان الأساسيان فى النظرة إلى حركة التغريب ودعوته .

ومن هنا كانت نظرتنا إلى أننا نقيم «أساساً» من فكرنا العربى الإسلامى الأصيل نبنى عليه ثقافتنا الحديثة وفكرنا الجديد ، ونحن نفتح الأبواب والنوافذ للفكر الوافد فى حرية كاملة فتأخذ منه وندع ، وفق قاعدتنا الأساسية ، ومن هنا لا نخشى أن يجرفنا الوافد ويقضى على مقوماتنا أو شخصيا الأساسية بل يكون الامتصاص والاقتباس مستمداً على النحو الذى يزيد شخصيتنا قوة وفكرنا انطلاقا واتساعا وحركة إيجابية .

* * *

والواقع أننا لسنا فى حاجة كبرى إلى هذه المحاولة المضطربة الظالمة التى تريد أن تكشف عن أن فكرنا العربى الإسلامى يلتقى فى كثير من القيم والمفاهيم مع الفكر الغربى . فلا شك أن هناك خلافا واضحا ، وكبيرا وجذريا بين مفاهيم الشرق والغرب ، وبين الفكر العربى الإسلامى بالذات — بين الفكر الغربى (بشقيه) .

هذا الخلاف يبدو فى أساس واحد هام من عدة أسس هو : مادية الفكر الغربى وامتزاج المادة والروح فى الفكر العربى الإسلامى . ولا شك أن الخلاف فى هذا الأساس بالإضافة إلى الخلافات الأخرى من شأنه أن يعطى « طابعا » مميزا لفكرنا ويجعل لنا وجهة

نظر مختلفة مع الغرب فى مسائل التربية والثقافة والمجتمع والأخلاق . ومن هذه الخلافات يتبين أن لكل فكر قيمه ، ولكل أمه أسسها وقاعدتها الأصلية المتددمع الزمن ذات الجذور الصلبة ، ومن هنا يتبين مدى فشل حركة التغريب فى القضاء على هذه الأسس ، وقطعها .

ولا شك أن حركة التغريب لم تبلغ فيما بلغته حتى الآن فى مؤامرتها الضخمة أكبر من إثارة الشبهات وإلقائها فى فكر مجموعات من الشباب نشأت مع الأسف دون أن تفهم المقومات الأساسية للفكر العربى الإسلامى ولم تؤمن بها . ومن هنا اضطربت وجرت مع البريق وانحرفت عن الطريق ، ونحن فى حاجة إلى أن تفهم أن هناك فارقا بين استيراد الحضارة واستيراد الثقافة ، وأنه ليس حتما مقضيا على من يستورد الحضارة أن يستورد فكرها .

وأدنى ما تواجه به حركة التغريب هو اتخاذ إجراء المثل بالنسبة لمقومات الفكر الغربى الذى تصادف انه ملىء بالثغرات ، وأكثر اضطرابا وبعداً عن المفاهيم العقلية نفسها .

وحتى فى مجال قضايا : القومية والديمقراطية والاشتراكية فإن الفكر العربى الإسلامى ليس مطالبا أبدا أن يأخذ بمفاهيم الغرب لها ، ومن حقه أن يضع لها مفاهيمها على ضوء مقوماته الأساسية التى هى بمثابة الأساس الذى تبنى عليه النهضة وهذا وقع فعلا فاننا قد حددنا مفافيمنا بالنسبة لهذه القيم بما يختلف مع مناهيم الغرب لها وقد جاء دلك مستمداً من جذورنا ومقوماتنا وتراثنا .

وإذا كان الغرب قد اعتبر الدين دخيلا عليه لأن المسيحية التى اعتنقها كانت منابعها فى الشرق ، وقد اضطربت علاقته بها ورآها — باعتبارها دنيا — تقف أمام حركة النهضة والكشف فنحاها . فليس معنى هذا أن نقبل رأى الغرب فى الدين جملة ، أو أن نطبق رأيه فيه على الإسلام بالذات ، وقد كان الإسلام ولا يزال : دينا وثقافة ونظام مجتمع .

وهو فى هذا يختلف عن الأديان الأخرى ؛ وأبرز أوجه الخلاف أنه لم يقاوم التطور ولا النهضات ولا الحضارات ، واستطاع أن يظل مفتوح الآفاق إزاءها على مدى العصور وفى كل البيئات . ومن هنا فنحن لا نقبل النظرية الغربية فى القومية أو الديمقراطية أو الاشتراكية ولا نستورد المفاهيم ولا نجرى وراء التبعية الفكرية أو نعتنق المفاهيم التى يضعها الغرب .

ومن هنا يبدو مفهومنا للقومية العربية مرتبطا بالفكر العربى الإسلامى مخالفا لرأى الغرب ذلك أن « الفكر العربى الإسلامى » هو أساس وحدة المفاهيم ونحن ننظر إلى الفكر العربى الإسلامى ككل وليس إلى جزئية منه كاللغة والتاريخ منقولة عن النظرية الغربية .

وليس أدل على مفهوم الإسلام هنا من عبارات المنصفين من كتاب الغرب المسحيين الذين اقتنعوا بأن الإسلام ليس عقيدة أخروية فحسب ولا أخلاقا محررة بل هو «أجلى مفصح عن شعور العرب الكونى ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وحدة شخصيتهم التى يندمج منها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفس بالقدر ، وهو أروع صورة للغتهم وأدابهم ، وأضخم قطعة فى تاريخهم القومى ، وأن علاقة الإسلام بالعروبه ليست علاقة أى دين بأى قومية ، فالإسلام للمسيحيين ثقافة قوية والفكر الإسلامى أثمن مافى العروبة » .

* * *

والواقع إن أبرز مايدعو إليه التغريب هو خلق روح « العلمانية » فى الشرق . والعلمانية ترجمة محرفة للكلمة الغربية (Secutar) وهذه الترجمة العربية تحمل طابع التمويه لأنها لا تريد أن تكشف حقيقة مفهومها الغربى الذى يعنى أساساً كلمة « لادينى » .

وكان هدف التغريب فى حملته العنيفة هو الوصول إلى قيام حكومات لادينية فى الوطن العربى بعد أن قامت « التجربة » فعلا مائلة أمام الشرق كله تعطى العبرة فى « تركيا » .

ولكن دعوة « القومية » فى العالم العربى لم تقبل المفهوم الغربى كاملا ، وخلقت لها مفهوما نابعا من المقومات الأساسية للفكر العربى الإسلامى ، التى يمثل وحدة فكر الأمة ، وهى لم تتخل عن جوهر « الدين » كجزء متصل من مقومات الفكر الاسلامى بجوار اللغة والتاريخ والتراث .

حدث هذا بالرغم من نجاح دعوة التغريب فى مجالين هامين :

التعليم والصحافة فقد نجح التغريب فى إنشاء مدارس غربية الطابع ، تحمل طابعا تغريبيا مخالفا لروح الفكر فى العالم الإسلامى والوطن العربى .

كما نجح فى إدخال مناهج التعليم الغربى التى فصلت الدين عن التربية فى جميع المستويات إلى المدارس فى العالم الإسلامى والوطن العربى . واستطاع أن يوفد مئات من أبناء العالم الإسلامى والوطن العربى إلى فرنسا وانجلترا وأمريكا وغيرها ليحملوا ثقافتة وقد استطاع بعضهم أن يولى مفاهيم التغريب إيمانه وولائه .

وإذا كان عدد كبير من هؤلاء المبعوثين قد فشل التغريب فى اتخاذهم أولياء له ، فأن العدد القليل قد عمل ظل نفوذ حكومات الاحتلال وبمعونة النفوذ الغربى الذى مازالت إثارة باقية فى كثير من حكومات العالم الإسلامى والوطن العربى على عزل التربية عن الدين ـ وعزل جوهر الفكر العربى الاسلامى عن التاريخ واللغة والأدب .

وقد آن الأوان لتحرير مناهج التعليم فى العالم الإسلامى والوطن العربى من هذه الشبهات وتعميق جوهر الفكر العربى الاسلامى فى جميع المناهج على النحو الذى يحقق الإيمان بروح هذه الأمة وقدرتها على النضال والانبعاث مرة أخرى لنقف فى الصفوف القائدة .

وفى مجال الصحافة استطاع التغريب أن يخلق رأيا عاما للمفاهيم الغربية وتنحية المفاهيم العربية عن كثير من القيم . ومن هنا بدت الدعوات التحررية والقومية التى ظهرت فى العالم العربى والاسلامى بعد الحرب العالمية الأولى وهى ذات طابع غير مقيد بالقيم الروحية والاجتماعية والأخلاقية . . وإلى ما قبل النصف الثانى من هذا القرن كانت الصورة ترسم أمه تعلى من قدر فكرة الحرية والوطنية من غير أن تمزجها بمقوم أساسى من الروحية أو الخلق .

وكان لحركة التغريب التى استطاعت بالفعل أن تسيطر على أزمة الصحافة فى العالم العربى — إذ ذاك — دورها الفعال فى هذا المجال .

وقد أشار « جب » إلى هذا المعنى فى كتابه وجهة الإسلام حين قال : أن الصحافة هى أقوى الأدوات الأوربية وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى ، وأن مدىرى الصحف ينتمون فى معظمهم إلى التقدميين ، وأن معظم هذه الصحف واقع تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية وأن الصحافة المصرية لا دينية فى اتجاهها . (هذا النص يشير إلى عام ١٩٣١)

الفكر العربى

محاولة تغريب مقوماته ومفاهيمه

هدف «التغريب» أساساهو تحويل الفكر العربى الإسلامى عن مفاهيمه ثم عن مقوماته ومن هنا يحاول « التغريب » أثارة قضايا كثيرة متعددة ، هذه القضايا تنطلق جزئية ، منفصلة وتظهر عند ما يراها الرائى كأنها لاصلة لها بالقضايا الأخرى ، هذا فى النظرة الظاهرة أما فى الواقع فان كل جزئية هى قطاع من حقيقة أساسيه هى « التغريب » ذلك الشبح الضخم المختفى وراء هذه الصوروالمعارك ، وهدفه هو نقلنا عن مفاهيمنا الأساسية إلى مفاهيم جديده . ومن هنا يعتمد « التغريب » دائما على جزئية النظرة لدينا ، وعجزنا عن الإحاطه والشمول .

ولكى تتم المواجهه الحقيقيه لمعركتنا مع التغريب يتحتم أن تكون هناك مفاهيم واضحة عن أمور كثيرة تثار من أجل تمييع القضية الأساسيه ، ذلك أن حركة التغريب والذين من ورائها وهم على قدر كبير من المرونه – قادرة على تحويل التيار بعيداً عن الهدف الأصلى وصرفه إلى المعارك الجانبيه أو القضايا الجزئيه .

فالتغريب بحركته ومخططاتة قادر : (اولا) على تحويل الانتفاضات الكبرى عن أهدافها وذلك بوسائل عديدة ، أما بالإسراع بها أو باجهاضها ، أو بوضع تفسيرات جديدة لمفاهيمها ، أو بتجسيد الأفكار المجرده ، ونقل القضية من الفكر إلى صاحبه وذلك بقصد نقلها من البحث العقلى إلى العاطفة الشخصية . وكذلك للتغريب قدرته على إيجاد بديل سريع للافكار الحية القادرة على النمو ، وذلك بابراز من يتحدثون فى نفس الموضوع ولكن بمفاهيم أخرى . وهناك من الأسماء اللامعه من يمكن تجنيده فى الوقت المناسب ليعلو صوته على الأصوات الجادة التى تحمل الراى الأصيل .

ولقد استطاعت حركة التغريب أن تواجه كثيراً من الدعوات التى قام بها جمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى ومحمد عبده وعبد الحميد بن باريس .

وسرعان ما كانت تظهر أسماء لامعة من دعاة التغريب تحمل نفس الأفكار من مظهرها دون مضمونها لتحولها عن هدفها الأصلي الخالص إلى هدف يخدم الإستعمار أو الاستبداد .

(ثانيا) النظره الجزئية وهذه من أخطر مايهدف إليه التغريب ، ويتمثل فى تجزئه الفكرة الواحده واثارة افكار مجزئه ثانويه لاضعاف الفكره الأساسيه . كما يتمثل فى محاولة تناول كل جزء منها على حده منفصلا عن الجزء الأخر .

وفى هذه التخزئه يتمثل الخطر ، فإن كل جزئيه تمضى وكأنها شيء مستقل ، ثم تنسى بعد فترة ، لتظهر جزئيه أخرى ، لا تذكر مرتبطه بغيرها ، وهنا تكون قدرة التغريب على تفتيت المسائل واثارة الشبهات حولها اعتماداً على ضعف الذاكره التى لاتستطيع أن تربط الأجزاء كلها . والواقع أن كل سموم التغريب والغزو الثقافى جرت فى هذا المخطط ، كانت تلقى الجزئيه ثم تترك ، وتنسى ، ثم تلقى جزئيه أخرى وثالثة ورابعة ، ثم يعاد القول فى الجزئية الأولى ، وهنا يبدو مدى الخطر الذى يحتاج إلى الوعى الكامل ، فان كل هذه الجزئيات تتمثل فى كلمة واحده هى القضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى وتحويله من مفاهيمه الأصيله إلى مفاهيم تختلف اختلافا اساسيا .

وفى ظل هذه الخطة ، يفتح التغريب الباب كل يوم لقضايا جديدة ، ويجدد مسائل قديمة باسلوب أخر ، ويهدم على فترات ، وهدفه من ذلك أن لايترك الفرصة للباحث أن يفكر أو يستدرك أو يربط الأجزاء بعضها ببعض .

(ثالثا) إيمان التغريب بالنظرة القائلة بان اثارة الشبهات تكون بلسان « رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم » على حد تعبير المبشر المشهور « زويمر » بأن الشجرة على حد قوله يجب أن يقطعها أحد أبنائها .

ومن هنا كان ضرورة تكوين جيل من دعاة التغريب الذين توطأ لهم شهرة زائعة وتفسح لهم الكتابة فى الصحف والمجلات الكبرى ، وتجرى حولهم أبحاث ودراسات وكلما خمدت اسمائهم أعيد الحديث عنها ، حتى تظل فى مستوى النظر .

وقد ظهر فى الثلاثين عاما الأخيرة عدد ضخم من دعاة التغريب والشعوبيين من المسلمين والعرب : وهم احيانا من المكر والمرونه واللباقه بحيث يستطيعون اخفاء نواياهم واغراضهم ، وكثير منهم انكشف أمره ، ونمت كتاباته عن خصومته وأحقاده .

وموقفنا من هؤلاء الكتاب واضح هو تطبيق مذهب نقد الرجال عليهم ، فعلينا أن نجمع النصوص التى يتمثل فيها التغريب والشعوبية لكل كاتب ونعرضها للبحث ونكشف ما تنطوى عليه من سموم .

(رابعا) فى ظل هذا كله علينا أن نفرق بين القيم والمفاهيم . فالقيم إنسانية عامة كالحرية والدين والتربية الخ . وقد اختلف الرأى فى مفهومها بين الفكر العربى الإسلامى وبين الفكر الغربى وبين الفكر الماركسى . ومن هنا كان علينا أن نحتفظ بمفاهيمنا للقيم فهى التى تمثل وجه نظرنا أساساً . ذلك أن مهمة التغريب هى :

« أولا » محاولة إخضاع الأمم لثقافته ومفاهيمه للقيم وذلك بتحويلها عن مفاهيمها الأساسية وتسويد الحضارة الغربية على حضارات الأمم ولا سيما الفكر العربى الإسلامى .

« ثانيا » انتزاع الطابع المميز للفكر العربى ، ولما كان فكر كل أمة يكسبها طابعا خاصا ، فإن التغريب يهدف إلى انتزاع هذا اللون المميز والقضاء عليه لتذوب فى الثقافات الأممية .

« ثالثا » لما كان التغريب (والتبشير جزء سابق منه) عاجز عن هدم العقائد والقيم فى نفس أمه من الأمم فإنه قادر على إثارة الشكوك والشبهات فى هذه العقائد حتى تصبح موضع النقد والسخرية . ومن هنا كانت محاولة التغريب فى فرض مفاهيم جديدة للقومية والوطنية والدين والحرية تختلف مع مفاهيمنا أساساً .

وقد وجه التعريب عشرات من الشبهات فى هذا المجال ، وربما استطاعت هذه الشبهات أن تثير فى بعض العقول والنفوس الشكوك والأوهام ومن هذه الشبهات :

أولا : « الفكر العربى الإسلامى فكر تجريدى » .

اتهم الفكر العربى الإسلامى بأنه فكر تجريدى ، والواقع أن ثمرات الفقه والتشريع الإسلامى تكذب هذا الرأى ، فإن هذه الأصول ترينا واقعية الفكر الإسلامى وكيف أنه كان يتناول كل حادث يقع فى حينه ثم يستعرضه ويضع له الحلول .

بل أن الفكر العربى الإسلامى أكثر إيغالا فى الواقعيات من الفكر الغربى حيث تناول الحياة اليومية ولم يقتصر على مسائل اللاهوت كما فى الشرائع الأخرى .

ثانيا : « الاستسلام للماضى » :

الواقع أننا لا نستسلم للماضى ولم يكن تقديرنا لمجدنا الغابر حائلا دون التطور يوما أو الاستسلام ، ولم تكن عقائدنا ولا تراثنا ولا قيمنا الأساسية عائقا لنا عن الحركة والتطور ، بل كانت عاملا إيجابيا يفتح لنا الطريق الأصيل الواضح ، ولا سبيل إلى أن ندع أساسنا ونبنى فى أرض رخوة ، فان بنائنا إذ ذاك لن يرتفع بل سينهار ، ونحن نؤمن بأن شجرة المعرفة يجب أن تطعم على أسس من ماضينا فتتصل اتصالا طبيعيا بمنابع ثقافتنا . إن كل أوليات المعرفة والحضارة تابعة من فكرنا العربى الإسلامى ويحاول التغريب أن يثير دائما مسألة الفكر الإغريقى واللغة اللاتينية كمقابل لمنابع فكرنا العربى الإسلامى واللغة العربية ، وإذا كان لنا أن نقول شيئا على وجه المقارنة فى هذا المجال ، فهو أن الإغريق انتهوا ولكن العرب والمسلمين لم ينتهوا ، وأن اللغة اللاتينية ماتت ولكن اللغة العربية ما تزال حيه متفاعلة . ولذلك يمكن أن يقال بالنسبة لماضى الإغريق ولغته اللاتينية أنه « تراث » وليس كذلك بالنسبة للغة العربية وفكرنا العربى الإسلامى .

(ثالثا) النظرة إلى الإسلام على أنه « دين » .

يبدو خطأ هذه النظرة فى التعرف على حقيقة الإسلام وجوهره ، وقد اقتنع كثير من كتاب الغرب بأن الإسلام دين وحضارة وفكر ومجتمع وفى مقدمتهم جوستاف لوبون وجب ، فالمحاولة التى يجريها التغريب فى عشرات من القضايا كمحاكمة الإسلام على نفس الأسس التى حوكمت عليها « المسيحية الغربية » وهى غير المسيحية السمحة الأصيلة ، خطأ فادح ومغالطة أكيدة . فليس الإسلام تراثا ، وليست تركيا العثمانية هى الإسلام ،

وليس الإسلام عبادات وعلاقات بين الإنسان والله فحسب ، وليس فى الإسلام طبقة معينة تدعى رجال الدين لهم فى علاقتهم بالإسلام حقوق أو نفوذ ليس لغيرهم ، وإنما يوجد فى الإسلام علماء متخصصون والإسلام فى صورته الحالية محجوب بالمسلمين ، فليست حياة المسلمين الآن تمثل الإسلام ، وليس هناك انفصال بين الإسلام والعروبة ، وقد اعترف بذلك مورو بيرجو (أستاذ الشرق الأدنى بجامعة برستون) فى كتابه العالم العربى اليوم حين قال « إن العروبة تعنى الإسلام ، وأن الإبتعاد بالعرب عن الإسلام معناه انفصال البناء عن أساسه . وقد ثبت تاريخيا أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام .

وقد دعا الإسلام أقدس دعوة « الإخوة العالمية والإنسانية » .

والإسلام منذ ظهر إلى اليوم وهو عامل مؤثر فى جميع أحداث التاريخ ولم يكن الإسلام خادما للمجتمعات والدعوات بل كان متميزاً بطابعه الواضح ومقوماته الأساسية ، ولقد كان ولا يزال مصدراً لكل حركات الحرية والتخلص من العبودية وتجربته فى الجزائر وفى وسط أفريقيا تؤكد هذا المعنى .

رابعا : القول بأن نقل الحضارة يستدعى نقل الثقافة، وهذا خطأ وتمويه فليس نقل الحضارة يستدعى مطلقا نقل الثقافة وفى رأى إجماع الباحثين - ماعدا دعاة التغريب والشعوبيين — أن الحضارة بطبيعتها قابلة للانتقال من أمة إلى أخرى، أما الثقافة فهى خاصة بكل أمة على حده .

فالثقافة فكر أمة مرتبط بروحها وضميرها ، أما الحضارة فذات طابع مادى وهى ملك مشاع للأمم. وهناك خلاف واضح بين «قيم» الفكر العربى الإسلامى وقيم الفكر الغربى ، أساس الأولى تزاوج الروح والمادة ، بينما يعتمد الفكر الغربى أساساً على النظرة المادية ، فضلا عن أن الفكر الغربى بشقيه يقيم أسس مقوماته وقيمه ومفاهيمه على مادية النظرة إلى الكون والحياة والإنسان ، وهناك خطأ واضح هو القول بأن الفكر العربى الإسلامى فكر روحى لاهوتى خالص ، وأن قوتنا فى إغناء الجانب الروحى وحده ، والحق أن فكرنا العربى الإسلامى يمثل امتزاج الروح بالمادة ، والعقل بالقلب ، بينما تمضى ثقافة الشرق روحية خالصة وثقافة الغرب مادية خالصة .

وهناك فرق أيضا بين العلم والثقافة ، فالثقافة مستقرة فى الشعور راسخة فى الفطرة ،

والفطرة فى الفرد كما هى فى الأمم لها ميزات خاصة فى الذوق ولها استعداد خاص لفهم الحياة والتمتع بها ، أما العلم فشاع لكل الأمم وكل الأفراد .

والواقع أن مقومات فكرنا العربى الإسلامى الأساسية تدفعنا إلى أمرين يسيران جنبا إلى جنب .

(١) أن نفتح نوافذنا للفكر الإنسانى الوافد فلا نتجاهله ولا نقف منـــه موقف الخصومة .

(٢) أن نأخذ منه وندع على قاعدة الرشد الفكرى .

وليكن موقفنا موقف الغرب من الفكر العربى الإسلامى عند ما ترجمه ونقله فى أول النهضة ، فقد أخذ منه ما يتفق مع شخصيته ومقوماته الأساسية ، أخذه مجرداً وحوله إلى كيانه ، ولم يأخذ « طابع » الفكر العربى الإسلامى ولا شخصيته ، ومعروف أن توماس الأكوينى عمل على غربلة الثقافة الإسلامية وهو يترجمها وثار ضد نظرية ابن رشد وضد القديس أوغسطين حتى يستطيع تصفية ثقافة الغرب مما يراه فكراً عربيا اسلاميا .

وقاعدة الفكر الاسلامى العربى أن يواجه المؤثرات الأجنبية على قاعدته فهو لا يقبلها مطلقة ولا يدعها تسيطر عليه أو تغير ملامحه ، ولكنه يقبلها على قاعدة المعرفة المفتوحة الآفاق ، لا على قاعدة أنها عقائد أو ثقافات ، وعنده أن التوقف عن قبول المؤثرات الأجنبية مظهر للعجز ، وقبولها بدون تحفظ مظهر للنقص ، وفكرنا لا يريد أن يسقط فى إحدى رزيلتى : العجز أو النقص .

ونحن ننظر إلى تجارب الآخرين وعيوننا على بلادنا وظروفها الخاصة ، ونستفيد من التجارب الإنسانية مع تفريق بين النظريات وواقع الحياة .

ومن هنا يبدو تفسير واضح لأزمة القلق التى يعانيها المثقفون اليوم فى العالم العربى والإسلامى ، والتى مصدرها الجنوح عن القاعدة الأصيلة للفكر العربى الاسلامى وهم يواجهون النظريات والمذاهب العالمية ، إنهم يسبحون بعيداً عن الشاطىء دون أن يكون معهم طوق النجاه ومن هنا يصابون بالدوار . إن الخطأ هنا فى إقامة فكرنا على أساس النظرة الجزئية أو المفهوم الغربى .

أن سر القلق هو انفصال العقل عن الروح وهو لب لباب فكرنا العربى الإسلامى .

(خامساً) لا بد من إعادة النظر فى بصمات التغريب فى الفكر العربى قبل أن تتحول إلى جذور ، يكون من شأنها أن تدمر القيم الأساسية أو تحل مفاهيم جديدة بدلا من المفاهيم الأصلية ، فقد تصادف أن سيطر النفوذ الغربى على العالم الإسلامى والعربى فى فترة ضعف ثقافى وسياسى وعسكرى ، وفى ظل هذا الضعف استطاع الغرب أن يفرض بعض مفاهيمه أو يترك بعض بصماته .

ولا شك أن هذه البصمات ستحول دون كمال الشخصية الأساسية وامتدادها وقدرتها على الإصالة وتكون بمثابة ثغرة يستطيع النفوذ الغربى التأثير والتمدد .

فمن ذلك أننا نسمى عصارات فكرنا ومنابعة تراثا Legace وما زلنا نسمى الإسلام Religon مع خطأ هذه التسميات المستوردة ، أما عصارات فكرنا ومنابعة من أدب وتشريع وفلسفة فأنها مستمرة التأثير فى فكرنا المتطور الحى ، فلا يمكن أن يوصف بكلمة تراث إلا من توقف عن الحياة والحركة ، وهذا التعبير مأخوذ من الفكر الغربى فى نظرته إلى الفكر اليونانى والرومانى القديم المكتوب باللغة اللاتينية التى دخلت المتحف وفصل بينها وبين الفكر الغربى الحديث ألف عام ،أما فى فكرنا العربى الاسلامى فليس ثمة فاصل بين مراحله فضلا عن أن لغة هذا الفكر ما زالت حية متصلة نامية .

أما كلمة Religon فليست تعنى فى الفكر الغربى كلمة دين التى تعنيها الكلمة العربية وإنما تعنى مفهوما قريبا من أعمال الخير والبر .

(سادسا) خطأ محاكتنا إلى فترة الضعف فى دورة التاريخ للأمة العربية والعالم الإسلامى ، فالفكر العربى الإسلامى محجوب بأهله ، بعد أن انفصلت القيم عن الواقع ، وكل ما يرى من وجوه الضعف فى شخصية الإنسان العربى الإسلامى ليس مصدره مقومات فكره الذى يمزج القيم بالواقع والذى استطاع أن يبنى حضارة ضخمة حيه حملت لواء الحرية والمساواة والعدل والأخاء إلى العالم كله سبعة قرون كاملة كانت أوربا خلالها تعيش فى الظلمات ، وكانت حضارة تطبيقية عملية للفكر العربى الاسلامى الحى النامى ، وإنما تتمثل الصورة التى قامت للمجتمع فى العالم العربى والإسلامى فى فترة الضعف على أسس الانفصال بين هذه المقومات وسقوط بعضها والمبالغة فى بعضها الآخر .

ومن هنا يمكن القول بأن مرحلة الضعف فى العالم الإسلامى لا تمثل جوهر الفكر العربى الإسلامى كما هو فى الحقيقة .

فى خلال القرون الثلاثة الأخيرة انفصل العالم العربى الإسلامى عن مقومات فكرة وواقعنا اليوم ، فلم يعد يعطى حقيقة هذا الفكر أو جوهره ، فقد كانت حقيقته مضيئة وكانت تجربته متطورة ولو لم تقف فى وجهة الحوائل لحقق نتائج إيجابية عدلت من اتجاه الفكر الانسانى .

ومع أن الدولة انهارت فقد ظل هذا الفكر حياً قوياً قادراً على الحياة والبقاء . ولقد كشف عن قدرة كاملة على الحركة والتطور ، وعلى النماء والتوليد ، وعلى الأخذ والعطاء ، وعلى امتصاص ثقافات الشرق والغرب وتحويل عصارتها إلى كيانه الحى المستمر النمو .

وما تزال الثقافة العربية الإسلامية عنصراً أساسيا من أهم عناصر الثقافة الإنسانية لها طابعها الواضح المميز بين ثقافات اليونان والرومان والهند والفرس والغرب .

وليس فى فكرنا طابع الانهزامية واليأس والضعف والاستلام ، أو التجرد عن الدنيا والتزهيد فيها والخلاص منها أو الدعوة إلى الرهبانية وليس فى فكرنا طابع الجنس واللذة وعبادة الشهوة ، وكلاهما عليه دخيل ، أما طابع فكرنا الأصيل فهو الايجابية والمقاومة واليقظة مما يتمثل فى قول أقبال : « انهض فقد آن لآدم أن ينهض » .

(سابعا) خطأ محاكمة فكرنا إلى مفاهيم الغرب فى كلمات تجرى كالمصطلحات منها كلمة « الهلال » التى تطلق على العالم الإسلامى أو الإسلام . والواقع أن هذا الاصطلاح مردود ، فقد كان الهلال أساساً شعار من الخشب أو المعدن اتخذه الرومان البيزنطيون شعاراً لدولتهم وأخذه عنهم الاتراك فهو شعار دولة وليس شعار أمة أو دين .

وخطأ الهجوم على « آسيا » واتهامها بالتأخر ، وهو قول لا يثبت للنظرة العلمية فقد قدمت آسيا للعالم سلسلة من الحضارات العريقة فى المجد ، كالحضارة الأكادية والشمرية والبابلية والأشورية واليمنية والهندية والصينية ، كما قدمت للانسانية الدعوات البوذية والبرهمية والأديان : اليهودية والنصرانية والإسلام وخطأ الاصطلاح الذى يقول : شرق أدنى أوشرق أوسط ، فإنما ذلك اصطلاح قائم على أن مركز الكون هو الغرب وذلك موقع منا بالنسبة إليهم ، لذلك نحن نرفض هذا الاصطلاح ونفضل عليه « الشرق العربى الإسلامى » .

بين الثقافة والمعرفة

ومازلت أعتقد اننا فى حاجة إلى كشف الفرق بين المعرفة والثقافة ، فإن التغريب يحرص على أن تحل أحداهما محل الأخرى ، وكل الذين تعلموا فى مدارسه وبعثاته أحسوا بمحاولة إحلال مفاهيم غربية بدلا من مفاهيمهم بالنسبة لكل القيم .

وأمامنا عديد من هذه التجارب ، فأحمد سكوتورى فى قلب افريقيا يقول : لقد تعلمنا نحن المثقفين الإفريقيين فى مدارس الإستعمار تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك ونابليون وقرأنا أشعار لامرتين ومسرح موليير، ودرسنا التنظيم الإدارى لفرنسا كما لو كانت بلادنا إفريقيا دون تاريخ ودون واقع جغرافى ، ودون ثقافة ودون قيم ودون أخلاق .

وقد قدم الإستعمار لنا من العلم والثقافة القدر الذى يرى إنه يخلق منا آلات ترتبط مصالحها بعلم الإستعمار ، لقد اراد المستعمرون للمعلم الإفريقى أن يظل فى سوية ثقافيه منحطة حتى يخرج تلاميذه على يديه أشد انحطاطا ، ولقد أراد المستعمرون للمثقفين الأفريقين أن يفكروا بديكارت برغسون ، ولم يسمح لهم بالتفكير فى قيمهم وثقافتهم وتراثهم الأفريقى ، لهذا يعرف كثير من شبابنا فلسفة المفكرين الأفريقيين ، وإذا استمر الأمر بنا على هذا النحو فلن نستطيع أن ننمى شخصيتنا الافريقية التى هى الطريق الوحيد للنهضة فى افريقيا »

٢ — وفى الهند يقول « همايون كبير » : كثيراً مايقال إن اللغة الإنجليزية والآداب الإنجليزى هما خير هبة وهبتها انجلترا للهند ، ولاشك إن ذلك صحيح إلى حد بعيد ، فالتأثير الإنجليزى فى أزيائنا وعاداتنا وتقاليدنا الاجتماعية ، كان تأثيراً كبيراً ، ولكن التغير الذى حدث فى تكويننا الفكرى والروحى كان تغيراً بعيد الأثر ، اننا ننظر إلى الغرب بمنظار إنجليزى ، ولا نتصل الحياة الفكرية فى أوربا إلا عن طريق أنكلترا ، ولا نتذوق الأدب الأجنبية الا كما يتذوقها الإنجليز . بل اننا ننظر إلى الأداب الشرقيه بمنظار انجليزى »

٣ — وفى لبنان يقول امين الريحانى « إن فى اكثر المدارس السورية اليوم روحاً

اجنبيا من شأنه أن يبعد السوريين واللبانيين عن كل ماهو عربى فى غير اللسان ، لو استطاع لأبعدهم كذلك عن اللسان لقتل فيهم حب اللغة العربية ، وفى البلاد اليوم سياسة تعضد المدارس فى خطتها فتوسع الثلمه بيننا وبين العرب وبلادهم ، والمدارس تنشر فى لبنان : ان فرنسه أعظم امم الأرض ، هى أشرفها واغناها وأرقاها ، بل هى قطب المدينة وعاصمة النور ، كذلك كانت مدارسنا مثل امهاتنا تسقينا العلم فى كأس التمويه ، هى كأس الجهل . ونسيت فرنسا إلا فى آدابها، تلك الأداب التى زادتنى ضعفا وترددا فى مضمار الحياة ، صرفتنى عن حقائق الوجود المادية .

٤ — وفى الجزائر يقول بلقاسم النعيمى : لقد تخلصنا من الاستعمار الأوربى ولكننا لم تنخلص من القيود المادية ، فتأثير الحضارة الأوربية من الناحية الروحية والثقافية ما زال موجودا ، فنحن لا نزال تستعمل لغة مستعمرينا الأقدمين وعاداتهم وأخلاقهم وطرائقهم فى التفكير والعيش ، وهذه العناصر قد تغلغلت فى تكويننا الروحى إلى حد بعيد بحكم التقليد وطول المعايشة . ولا يبدو أن هناك اتجاها جديا لتصحيح هذا الوضع ووضع الخطط للتحرر الروحى والعقائدى بعد التحرر الاقتصادى والسياسى .

والسبب الرئيسى فى أزمتنا يكمن فى التصادم الحاصل بين قوتين متعا كستين تجذبنا كل منهما إلى جهة مغايرة ، وإن شدة التناقض بين هاتين القوتين هى من الفاعلية والتأثير بدرجة تكاد تفشل معها محاولات التوفيق والتلاؤم التى وقعت منذ عشرات السنين بين الحضارة العربية الاسلامية وبين الحضارة الأوربية ، ويؤدى هذا التصادم إلى الرجوع إلى الماضى لنعرف كيف جرى الالتقاء ولماذا لم يفلح التعايش بينهما .

فالحضارة الأوربية منذ نشأتها عند اليونان والرومان يلاحظ أن الطابع الأساسى لانسان هذه الحضارة أنه ملتصق بالأرض وتكاد تكون صلاته بالسماء واهية ، ذلك لأن البيئة الطبيعية الأولى التى نشأ فيها وكونت قسما كبيرا من مقوماته النفسية والعقلية وطبعت حضارته بطابعها الخاص كان بيئته قاسية المناخ والتربة يسودها البرد والضباب معظم أيام السنة ، وتكتنفها الغابات القائمة والثلوج المتراكمة . كان هم الانسان فى هذه البيئة التغلب على الطبيعة القاسية ، وحين احتاج إلى عون روحى مساعدة فى كفاحه المرير ، خلق ألهة تمثل القوى الطبيعية التى تخيفه وترهبه وقدم لها القرابين والضحايا ليتملقها

ويستدر عطفها ، ولم يخط الأوربيون خطوة واحدة إلى الأمام عن طريق التوحيد كما فعل الشرق ، ولكنهم لم يروا مانعا من اعتناق الديانة المسيحية التى وفدت إليهم من الشرق بعد أن حولها من عقيدة تراقب ضمير الإنسان وسلوكه إلى مجرد طقوس تعبدية يلجأ إليها الإنسان ليكفر عن خطاياه أو يستدر عطف الآلهة ولم يحملوا للدين تلك الفعالية اليقظة التى تسير عمل الإنسان كما هو الشأن فى الإسلام » .

٥ — ومن المغرب يبدو جانب آخر من الصورة يقول : ادريس الكتانى « أن التفكك الخطير الذى يجتازه التفكير الوطنى فى بلادنا اليوم هو بداية ثمار التعليم الفرنسى اللادينى المطعم بالسموم المدسوسة الذى حضر بعناية للقضاء على طاقاتنا الروحية والخلقية والفكرية التى هى عناصر استقلالنا وقوتنا ووحدتنا .

لقد مرت ثلاثة أعوام على استقلالنا لم يتغير فيها وضع اللغة العربية الذليل الأقليلا بينما تحصنت اللغة الفرنسية فى مراكزها أشد من تحصن الجيوش الفرنسية فى ثكناتها . فلم تتخل عن شبر واحد من امتيازاتها ونفوذها ، لا فى المدرسة الابتدائية والثانوية الإسلامية ولا فى إدارات الدولة ومصالحها ولا فى الشركات والمؤسسات العمومية ولا فى أسماء الشوارع والأحياء المغربية ، فالمارشال ليوطى لا يزال قائما على فرسة وسط المدينة ، وتمثال الهزيمة المغربية مازال منتصبا أمام تمثال ليوطى فضلا عن احتلال ألف وثلاثمائة من الأعلام الفرنسيين لشوارع عاصمة المغرب يقضى بالموت على ألف وثلاثمائة علم مغربى عربى .

وشارع هكتبور هيجو فى الدار البيضاء يسكن فيه مائة منزل (٧٠٠ من المغاربة) يذكرون هذا الاسم كل يوم ، فى خطاباتهم ، والطلبة فى مدارسهم ، فى أوراق وملفات الحكومة وسعاة البريدو ويجد تلاميذنا أنفسهم مدفوعين للاهتمام بدراسة شخصية فكتور هيجو باعتباره أحد معارفهم فى الحى .

أن الشاعر الفرنسى فكتور هيجو لم يمت فى فرنسا ولم يمت فى تونس ، ولم يمت فى الجزائر ، ولم يمت فى المغرب ، إنه حى فى أوربا وأفريقيا وفى كل مكان توجد فيه

فرنسا ، مسكين أبو العلا المعرى لا يعرفه أحد من سكان حينا ولا المتنبى ، ألف وثلاثمائة من مواطنين أفرنسيين على واجهات شوارعنا وتنصب لهم التماثيل ، أدباء وعسكريون ورواد الاستعمار الأوائل .

وفى المغرب ١٨٠ ألف من اليهود المغاربة عمل الاستعمار على عزلهم عن الشعب المغربى وفرنسهم لغة وعاطفة ، وإخضع تعليمهم لإشراف مدارس الاتحاد الإسرائيلى ، وهى مدارس تابعة للاتحاد والعالمى لجميات OR الذى يوجد له فروع فى ٣١ دولة ليس بينها أى دولة عربية باستثناء تونس والجزائر والمغرب .

ونظم التعليم فى بلادنا (١٩١٢ ــ ١٩٥٣) جعلتنا نعيش داخل قنينة بلعومها لا يكفى لمجرد إلقاء نظرة واحدة على ما يجرى فى العالم والتبعية اللغوية تستلزم تلقائيا التبعيةالفكرية طالما أن الإنسان يفكر بواسطة اللغة » .

* * *

ولا شك أن هذه الصور المختلفة للتغريب الثقافى تعطى صورة الخطر التى يهدد الفكر العربى الإسلامى من ناحية قصور التفرقة بين المعرفة والثقافة وفى مدى الأثر الذى تحققه سيطرة التغريب بعد سيطرة النفوذ الاستعمارى باعتبارها امتداد له .

وليس معنى التنصيص على هذا أثر التغريب يعنى الانفصال عن الفكر الإنسانى أو إغلاق الفكر العربى الإسلامى . ولكنا ندعو إلى أمر واحد هو بقاء شخصيتنا مستقلة أساساً ومقومات فكرنا قائمة أصلا ومفاهيمنا سليمة ، دون انعزالية فى التفكير ودون ذوبان فى الفكر الأممى . وصدق ساطع الحصرى فى قولة « أن الذين حاربوا بشدة السيطرات الثقافية التى فرضتها القوى الأجنبية على البلاد ، كانوا بعيدين جداً عن الانعزال ، ورغبتهم فى الاستفادة من ثقافات العالم لم تكن أقل من طموحهم إلى رؤية العالم العربى متمتعا باستقلال يضمن ثقافة قومية عصرية موحدة » .

وغاية الأمر فى هذا كله : (أولا) هو أن نفكر بلغتنا أساساً ولا نفكر بلغة غيرنا ، والاستعمار الفكرى يتسرب عن الاستعمار اللغوى ، باعتبار اللغة هى نافذة الفكر .

(ثانيا) أن نرتبط بمقومات فكرنا أساساً وفى ظل هذه المقومات نواجه الفكر الإنسانى ونأخذ منه و نترك .

(ثالثا) أن نحتفظ بالجذور والتراث قاعدة لنا ، أن التطور لا يتم إلا على شريط ممتد من الماضى إلى المستقبل ، أن بناء الحاضر والمستقبل يقوم على قاعدة من الماضى وأن الذين ينكرون الماضى هؤلاء الذين ليس لهم تاريخ ، أن بعض الأمم الكبرى بدأت من القرن السادس عشر أما العالم العربى والإسلامى فله تراث ثلاثة عشر قرنا ولا يمكن أن يبدأ من القرن العشرين .

بين التسامح والتعصب

إن للقيم الإنسانية فى كل ثقافة مفهوما أساسياً تختلف عن مفهومها فى الثقافة الأخرى . ففى مجال الحرية مثلا نجد المفهوم الغربى يختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الفكر العربى الإسلامى . فالغرب يؤمن أساساً فى جذور فكره بنظرية قديمة منذ أيام الحضارة الرومانية تقول « إن العالم هو روما وكل ما عداه عبيد » وقد تطورت هذه النظرية فى ظل الحضارة الغربية على نحو تمثل فى نظريات متعددة .

(١) الرجل الأبيض : فالإنسان الأبيض لا الإنسان عامة هو وحدة تاج الخليقة وأن النصر له فى كل صراع بينه وبين عدد من الأجناس الملونة، وعبارة الكاتب الأمريكى الأشهر شتابنيك فى هذا هى « الرجل الأبيض لا يغلب » وهم حين يكتبون تاريخ الحضارة ينقلونها بين الشعوب البيضاء ابتداء من شعب اليونان إلى الرومان والطليان والجرمان ثم ينكرون فضل الفراعنة والبابليين والعرب والمسلمين ، وعندهم أن أى شعب ملون يسيطر على قيادة العالم لابد أن ينهار ، لأن أصحابه ليسوا من الجنس الأبيض . وقد كان ذلك موقفهم من العرب والمسلمين والصين .

(٢) السامية والإدارية : وقد استخدم الاستعمار الغربى هذه النظرية على نحو مفتعل . وقد كانت أساساً نظرية لغوية ولكنه نماها وأعطاها القوة ونشرها بوسائله ليثبت أن الجنس الآرى الذى منه الغرب أرقى من الجنس السامى الذى يستعمره الغرب .

أما الحرية فى الفكر العربى الإسلامى فتتمثل فى تساوى النظرة إلى الأبيض والأسود والعربى والأعجمى . وكون المفاضلة إنما تكون بالعمل .

* * *

وأبرز مظاهر الحضارة الغربية أنها تجعل نموها لأهلها وثقافتها لأهلها وقد أكد كثير من الباحثين على أن الثقافة الغربية فى محتواها العلمى والأدبى والفنى والصناعى لا ترمى إلى خدمة « الإنسان » من حيث هو بشر بل إلى خدمة الإنسان الغربى قبل غيره وعلى حساب غيره .

ومن غرور الإيمان بسيطرة الفكر الغربى على الفكر الإنسانى كله والفكر العربى الإسلامى بوجه خاص أن يعتقد الغربيون بأن نظرياتهم ومذاهبهم حقائق زاهية يجب على العالم أن يتقبلها ، بينما هم أنفسهم مضطربون بين قبولها ورفضها وبين التحول من نظرية إلى نظرية دون إقرار شيء .

ومن نظرة الغربيين إلى العالم وتقسيمه إلى رومان وبرابرة ظهرت فكرة التعصب الغربى والعداء للفكر العربى الإسلامى والدعوة إلى التغريب والتبشير والغزو الثقافى فى محاولة لاخراج العالم الاسلامى والعربى من مفاهيمه الأساسية لكل القيم الانسانية .

ولقد يتحدث الفكر الغربى كثيرا عن التسامح والتعصب . فالتسامح دعوة جميلة يدعونا إليها دائما ، والتعصب اتجاه ذميم ولكن متى كان الفكر الغربى متسامحا غير متعصب .

إن تعصب الغرب يبدو فى عشرات من المسائل . يبدو فى إخراج العرب والمسلمين من أوربا ، ومعارك تصفية الأندلس ومعارك تصفية أوربا من الأتراك معروفة لكل باحث ، وإيمان الغرب تعصبا منه بأن لا يكون فى أوربا فكر عربى ولا عرب ولا مسلمين أمر لم يعرفه العرب والمسلمون فى بلادهم وكان فى مقدورهم أن يعملوا ذلك بالنسبة لغير العرب والمسلمين .

وتعصب الغرب فى إنكار دور العرب فى الحضارة وأثرهم فيها ومحو أثر العرب من العلم العربى عند نقله إلى الغرب بدل دلالة واضحة على ما يتميز به الفكر الغربى من تسامح .

وليس الحديث عن المساواة والاخاء والحرية والتسامح فى الفكر الغربى إلا باعتبار واحد ، هو أن هذه القيم خاصة بالجنس الأبيض وحده ، هؤلاء الصفوة الذين وكلت إليهم قيادة العالم .

وصورة التعصب والتسامح تبدو واضحة فى النظرة إلى الخلاف بين المذاهب ، فقد اختلفت المذاهب فى العالم العربى الاسلامى دون أن يكون ذلك مدعاة لأى صراع ، أما فى الغرب فقد كان الصراع بين المذاهب يصل إلى ذروة التعصب ، وقتال الكاثوليك والبروتستانت الذى امتد سنوات فى هولندا لاخماد الحركة البروتستانية معروف ، وقد قتل ٢٥ ألف بروتستانتى فى فرنسا ، وكذلك حرب الامبراطور فردينان لمحو البروتستانية من ألمانيا ، وما أدى إليه من تدمير خمسة أسداس القرى والمدن الألمانية وقتل ١٢ مليون نسمة ، هذا بالاضافة إلى الصوره البشعة التى سجلها التاريخ لمحاكم التفتيش ، كل هذا من شأنه أن يعطى صورة التسامح والتعصب بين الفكر الغربى والفكر العربى الاسلامى .

وتبدو صورة التعصب الغربى واضحة فى قول مونتسيكو :

« إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب لاتخاذ الزنوج عبيدا فإنى أقول أن شعوب أوربا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين ، لم تر بدا من أن تستعبد شعوب أفريقيا لكى نستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة ، وهذه الشعوب ما هى الاجماعات سوداء البشرة لا يمكن للمرء أن يتصور أن الله وهو ذو الحكمة السامية قدخلق روحا طيبة فى جسم حالك السواد » .

وقد صور هذا التعصب « جوستاف لوبون » حين عرض لدور العرب والمسلمين فى الحضارة الانسانية وقال : أن حرية الفكر فى الغرب تختفى لدى الأوربى عندما تمتد فكرة إلى بحث فكر العالم الاسلامى ، فالمفهوم الصليبى العميق الأثر فى النفس الغربية يحول دون حرية الرأى فى الاسلام ويحول دون قيام أى محاولة حرة لاعطاء الاسلام والفكر العربى الاسلامى ما يستحق من التاريخ والحياة .

وقال : أن الدراسات الاسلامية التى تناولها الأوروبيون منحرفة ومشوبة بما ينافى منهج العلم من الذاتية والتعصب .

ويبدو مفهوم التعصب والتسامح فى موقف الفكر العربى الإسلامى من الفكر الغربى وبالعكس . ففى الوقت الذى يواجه الإسلام والعروبة واللغة العربية بالازدراء والنقد والتشكيك على مافيهامن صلابة وتماسك وقوة لا يوجه الفكر العربى الإسلامى مثل هذا الازدراء والاحتقار إلى الفكر الغربى ولا إلى أوربا ولا إلى المسيحية الغربية . وفى الوقت الذى يعمل الغرب على تمزيق القيم العربية الإسلامية وإثارة الشبهات حولها لا يجرى فكرنا فى نفس التيار ألا بقدر ما يحاول الرد على ما يهاجم به .

نعم ؛ لم يقف الفكر العربى الإسلامى موقف التعصب والبحث عن الثغرات بل أبدى التكريم للمسيحة والتقدير لروائع الفكر الغربى واختلف مع جوانب معينة وهذه أية التسامح الحق .

وتبدو صورة التعصب والتسامح واضحة فى موقف الغرب من العالم الإسلامى منذ الحروب الصليبية إلى اليوم ، يبدو ذلك فى إقصاء روح الفكر العربى الإسلامى عن الفكر الغربى مع الانتفاع بكل ما أضافه الفكر العربى وإنكار فضل العرب والمسلمين ، وتحويل منهج الفكر العربى الإسلامى فى البحث العلمى إلى منهج غربى مع عدم الاعتراف بفضل الحضارة والثقافة العربية الإسلامية . ويطلقون كلمة القرون الوسطى المظلمة على فترة ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، مع إنكار مرحلة الحضارة العربية الاسلامية الوسطى بين الحضارة الرومانية والحضارة الغربية ، هذا إلى تتبع القضايا الفكرية العربية الاسلامية بالتشكيك والاتهام والاستنقاص . وإثارة حملة من الشبهات حول الاسلام ، واللغة العربية ، والتشريع الاسلامى والوحدة الفكرية بين العالم العربى ، والدعوة إلى هدم الأخلاق والقيم ، إثارة دعوة الاقليمية والأممية والالحاد والعلمانية والاباحة .

ثم محاولة الحكم على الاسلام بأنه دين لاهوتى ، وإنكار كونه حضارة وثقافة ومجتمع ، ثم محاولة فصل الفكر العربى الاسلامى فى جوهره عن الحياة فى مجال القانون والاجتماع والاقتصاد واتهام الفكر العربى الاسلامى بالتجريد والغيبيات ، وتحريف تاريخنا وتحطيم أعلامنا وتحويل تيار الترجمة . من الإيجابية إلى الإنحراف .

ومن أساليب التعصب والتسامح فى الفكر الغربى قولهم أن الفلسفة العربية ليست إلا الفلسفة اليونانية مكتوبة بأحرف عربية وعشرات أخرى من الاتهامات الجديرة بالكشف عن وجه الحق فيها . .

محاولات التغريب

لماذا حرص الغرب على غزو الفكر العربي الإسلامي وإخضاعه لسيطرته بوسائله الثلاث : التبشير والتغريب والشعوبية ؟

للاجابة على هذا لابد من العودة إلى عام ١٩١٨م عندما وقف اللورد اللنبي في « القدس » بعد أن دخلتها جيوش الحلفاء وأعلن كلمته الغربية التي أثارت الدهشة : قال : « الآن انتهت الحروب الصليبية ».

وكانت الحروب الصليبية قد انتهت عام ١٢٩١م ومضى عليها أكثر من سبعة قرون غير أن الغرب لم ينس أنه مطالب في يوم من الأيام بإعادة السيطرة على العالم الإسلامي مرة أخرى ، فإذا كانت الحروب الصليبية قد فشلت في ذلك من قبل ، فإنها استطاعت أن تحقق ذلك عام ١٩١٨ حينما أتمت قوى الإستعمار الغربي : الفرنسي والانجليزي والايطالي والهولندي سيطرتها على العالم الاسلامي .

والواقع أن هذه السيطرة العسكرية كانت الخطوة النهائية لحملة ضخمة قام بها الغرب في سبيل تأكيد نفوذه منذ أوائل القرن التاسع عشر بغزو بريطانيا للهند وهولاندا لا أندونيسيا ، وفي العالم العربي عام ١٨٣٠ حين دخلت فرنسا والجزائر . ثم كيف أحيطت الدولة العثمانية بنفوذ خفي وسلطان دخيل في مختلف أقطارها وحول مقر الخلافة نفسه .

ولقد كان الغرب منذ بدأت نهضته الصناعية قد ربط بين الحضارة والاستعمار وولى وجهه نحو العالم الإسلامي كمجال حيوي للسيطرة على موارد الخامات وسوقا لبيع منتجاته . ومن هنا كان من الضروري عليه أن يسيطر سيطرة كاملة على هذه المنطقة التي تقوم فيها الثقافة العربية الاسلامية بجذورها المتصلة بالاسلام واللغة العربية والقرآن، وحيث كانت هذه المنطقة مهبط الأديان السماوية الثلاث وكان الإسلام بطابعه الواضح

فى المزج بين المادية والروحية على نحو لم يعرفه الغرب الذى تقوم ثقافته وحضارته على المفهوم المادى الخالص ، وحيث تبدو صورة الشرق (وهو ما يسمى الأقصى) وثقافته تقوم على أساس المفهوم الروحى الخالص .

ولقد كانت ثقافة العالم الاسلامى المستمدة من مفاهيمة الأساسية تقوم أساساً على روح الحرية والعزة والقوة والجهاد ومقاومة كل من يحاول السيطرة عليها أو اغتصاب مقدراتها . ولذلك فقد كان النفوذ الغربى حفيا بأن يقضى على هذه المقومات الأساسية بافسادها وإدخال الشبهات والشكوك والزيوف إليها على نحو علمى دقيق منظم .

ومن هنا بدأت حركة « التغريب » تنمو فى ظل التبشير والاستشراق ، وتجرى محاولتها الأساسية فى إفساد مفاهيم الاسلام واللغة العربية والقرآن وتزييف التاريخ . وإدخال مناهج ومفاهيم مضطربة مختلفة متناقضة ودعوات متعارضة تحمل ألوية الألحاد والإباحة والتحلل والشعوبية ، وتدعو إلى الاقليمية والقومية الضيقة والجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية وتخلق دعوات الفرعونية والبابلية والأشورية والفينيقية والبربرية على نحو مثير غريب لاحد لاندفاعه وتحوله .

ومن خلال حركة «التغريب» برزت دعوة «الشعوبية» التى تقوم أساساً على احتقار التراث العربى الاسلامى ، وبث الشكوك فى التاريخ والأدب واتهام الاسلام بالقصور ، والعروبة بالنقص .

ومن هنا تداخلت حركة التغريب والشعوبية تداخلا خطيرا . وفيها يحمل اللواء كتاب غربيون ومستشرقون ويتبعهم كتاب من العالم العربى والاسلامى ، وتقوم عليها صحف واسعة الانتشار ودور نشر ضخمة فى بعض العواصم العربية تصدر مؤلفات أنيقة ومجلات رائجة ، وتظاهرهما هيئات ثقافية ودور تعليم ومعاهد وجامعات .

وأبرز ما تهدف إليه حركتى التغريب والشعوبية تغيير المفاهيم الأساسية والقيم الأصلية للأمة ، وإلقاء بذور الشبهات حول كل قيمة ومفهوم ، فى مجال الفكر والدين والاجتماع والتاريخ .

وهى تحاول أمرين خطيرين :

الأول : إدخال مفاهيم الغرب للقيم الأساسية .

الثانى : إحلال قيم الفكر الغربى محل قيم الفكر العربى الاسلامى فى مجال المجتمع والمرأة والدين والنظم السياسية والاقتصادية .

وليس شك أن محاوله فرض مفهوم واحد من مفاهيم الغرب لقيمة واحدة من قيمنا كالدين مثلا ، من شأنه أن يخلق أثاراً بعيدة المدى فى كل مجال الفكر والمجتمع والحياة .

فالدين فى المفهوم الغربى يختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الفكر الاسلامى ، فضلا عن أن الاسلام ليس دينا فحسب ولكنه دين وفكر وحضارة .

وليس شك أن كل قضايا الانسان والحياة والمجتمع فى نظر الفكر العربى الاسلامى الذى يقوم على أساس المزج بين الروح والمادة يختلف عن وجهة نظر الفكر الغربى الذى يقوم أساساً على المادية ، هذا الاختلاف الجذرى من شأنه أن يجعل لنا وجهة نظر مختلفة عن الغرب فى كل مسائل الثقافة والتربية والمجتمع والأخلاق .

ومن هنا يبدو مدى خطأ قبول مفاهيم الفكر الغربى للقيم الأساسية .

* * *

وقد امتدت حركة التغريب فى ظل حركات التبشير والاستشراق ، واستطاعت أن تكون لها مراكز وقوى ودعاة وأعوانا فى ظل قيام النفوذ الاستعمارى ، فلما بدأ ينحسر هذا النفوذ باستقلال أغلب دول العالم الاسلامى اليوم بدأ نفوذ التغريب أشد قوة فى ظل الدعوة إلى التجديد والتطور والعلمانية والحضارة ، وقد وجد فيها منافذ إلى فرض وجهة نظره وتأكيد هدفه فى مقاومة بقاء القيم الأساسية للفكر العربى الاسلامى بما يمكنه التشكيك فيها وتدميرها . وإفساح الطريق لفرض قيم جديدة . وهذا ما أطلق عليه الغزو الثقافى أو الاستعمار الفكرى ولا شك أن محاولات التغريب وجدت طريقها فى ظل بعض الأفلام السينمائية الأجنبية المتحللة والكتب الغربية المترجمة

والروايات والصحف والمجلات وأن تجد من كثير من ذوى النفوذ فى بعض أقطار العالم العربى من أدباء ومشرعين واقتصاديين وأساتذة فى الجامعات ورؤساء تحرير الصحف ركائز لها وأدوات للانطلاق والبث .

وقد استطاعت حركة « التغريب » فى مرحلة السيطرة العسكرية والسياسية على العالم العربى الاسلامى أن تحقق كثيرا من النتائج . وإذا كانت قد بدأت أول أمرها بالتبشير الذى أثار كثير من الاضطراب ، وواجهه العالم الاسلامى والأمة العربيه بالمقاومة والتحدى ، فإن التغريب لم يلبث أن غير خطته وأخفى هدفه وراء مظاهر البحث العلمى وأضمر محاولته فى ظل مخطط ضخم قوامه الفكر والأدب ، وفى هذه المرحلة حرص على أن يتفادى الاصطدام بالمواجهة أو المعارضة . وإنما اتخذ أسلوبا من الخداع دقيق المدخل ، ومن هنا تحولت كتابات المستشرقين والمبشرين إلى ابراز مظاهر الاعجاب والتقدير للغة العربية والاسلام والشرق والغرب ، فى مقدمات تستطيع أن تخدع البسطاء ، ثم لا تلبث هذه الدراسات أن تتسلل إلى الهدف بالتشكيك فى المقومات الأساسية وإثارة الشبهات والريب فى العقائد والقيم .

وقد استعانت حركة التغريب فى هدفها هذا بمئات من المخطوطات والمؤلفات والكتب القديمة التى اغتصبت وسرقت من بلادنا على فترات طويلة فى ظل النفوذ الغربى وأرسلت إلى مكتبات لندن وباريس وغيرها ووضعت تحت تصرف الباحثين الذين كانوا يعملون وفق خطة مرسومة فى وزارات الاستعمار الغربية . فقد استغلت كثير من الأبحاث والمؤلفات التى كتبها الشعوبيون القدامى فى حملتهم على الفكر العربى الاسلامى ، وهى مؤلفات بادت فى الأغلب ، ورد عليها الباحثون العرب كالجاحظ وأبو حيان التوحيدى و غيرهم وفندوا ما فيها من اتهامات وأخطاء وزيوف ، ومن هنا يبدو مدى تآمر بعض المستشرقين وكتاب الغرب فى استغلال هذه الاتهامات وإعادة توجيهها إلى الفكر العربى الاسلامى وإثارتها فى أسلوب جديد على أنها قضايا أساسية . وإتخاذها سلاحا للتشكيك وإثارة الريبة بين المعاصرين عن ماضيهم وتاريخهم وقيمهم .

* * *

هذا فضلا عن ماقصد إليه دعاة التغريب من إبراز جوانب معينة من الثقافة العربية الإسلامية والدعوة لها . وآية ذلك الاهتمام بكتاب الأغانى (للاصفهانى) ومحاولة اعتباره مرجعا أساسيا للأدب العربى القديم بل وللتاريخ الاسلامى، مع أنه واحد من كتب الترف والترفيه ، ولم يقصد كاتبه قط إلى أن يجعله مرجعا للبحث العلمى ، ولكن التغريب استطاع أن يجد باحثا كالدكتور طه حاول أن يرسم من خلاله صورة للعصرين الثانى والثالث الهجرى فيقرر على ضوء دراساته لبعض الشعراء الماجنين كأبى نواس والضحاك . . . أن هذا العصر كان كله عصر شك ومجون .

ومن هذا يبدو الاهتمام بالأساطير المتصلة بالسيرة النبوية وإعادة بعثها وأحيائها لخلق الاضطراب والشبهات حول حياة النبى ومنابع الاسلام .

وكذلك ما أولى التغريب من اهتمام برباعيات الخيام وكتاب ألف ليلة وليلة وخمريات أبى نواس الذى كتب عنه أكثر من عشر دراسات تحليليه وصدر عنه أكثر من عدد خاص من مجلات كبرى وكان فنه هو أبرز موضوعات مؤتمر المستشرقين بروما عام ١٩٦٤ وكذلك الشاعر بشار ، وفى مجال « التصوف » أولى التغريب اهتمامه بالشخصيات المضطربة المثيرة ، البعيدة عن حقيقة التصوف ومفهوم الاسلام كالحلاج وابن عربى والسهروردى .

ثم ما اتصل بذلك من هدم شخصيات ضخمة فى الفكر العربى الاسلامى كهاجمة المعرى وابن خلدون والمتنبى ، فقد وضعت دراسات « علمية » حاولت التشكيك فى عظمة هذه الشخصيات الثلاث وإتهام بعضها بالاضطراب . وقد عنى الدكتور طه حسين بأن يهدم المتنبى من ناحية الشك فى أبوته واعتباره لقيطا ، كما حاول من التهوين من قدر ابن خلدون ومكانه فى التحليل التاريخى وريادته فى علم الاجتماع .

* * *

ثم جرت المحاولات إلى التفريق بين العرب والمسلمين فى مجال الحضارة الاسلامية وإثارة نزعات العصبية الجنسيـــة التى لم يعرفها الاسلام . ثم محاولة رد التراث العلمى الاسلامى العربى إلى أصول بعيـــدة كالفرس والهنـــود واليونان والبيزنطيين وإثارة نظرية الساميـــة والآرية والتركيز عليها وتوجيههـــا إلى العرب وعقليتهم وفكرهم . ثم إثارة عمليات الكشف الأثرى واستغلالها فى تمزيق وحـــدة العالم

الإسلامى والأمة العربى فى محاولة لتصوير تاريخ كل قطر وكأنه مستقل عن القطر الآخر أصلا ، له مميزاته وتاريخه ومظاهره وحقائقه . مع أن هذه الأمة كلها ذات تاريخ واحد له طابع واحد أساسه فكرها العربى الإسلامى الموحد ، وأن ما يبدو من خلافات إقليمية ليس إلا مظاهر طبيعية فى تباين البيئات لا ترقى إلى درجة الفوارق العميقة الجذرية. ثم اتجهت دعوة التغريب إلى الماضى القديم السابق للتاريخ الإسلامى فى كل قطر ، فأولت المغاربة الاهتمام بالماضى الفينيقى والرومانى ومصر بالماضى الفرعونى ولبنان بالماضى الفينيقى ، والعراق بالماضى الأشورى .

ثم كانت محاولة ربط عبقرية أعلام كل وطن بالأرض لا بالثقافة الاسلامية العربية الموحدة فالفردوسى والغزالى فارسيان الفارابى تركى ، وهكذا .

ثم جرى التغريب على خطة الاهتمام الواسع بدراسات عن العالم الإسلامى قبل الإسلام وإبراز مخلفاته التاريخية ومذاهبه وأديانه وفرقه ونحله والاهتمام بالحركات الهدامة فى تاريخ الإسلام كالباطنية والقرامطة والخزمية والبابكية والتوسع فى دراستها . ثم الاهتمام بالنزعات التى لا تتصل بجوهر الإسلام لإثارة الشكوك والاضطرابات ، ومن هذا التركيز على نزعات التصوف المتطرفة والفلسفة المغرقة ودعاة الإلحاد والحلول والفرق المنحرفة المنسوبة إلى التشيع اهتماما بالغاً .

ثم نجد من المحاولات التغريبية ما يذهب إلى أبعد مدى، فهناك من يسقط المدنية العربية الإسلامية إسقاطا كاملا ، ويرى أن العالم لم يشهد بعد حضارة الرومان غير حضارة أوربا وأن الفترة بين الحضارتين ما هى إلا (القرون الوسطى المظلمة) ثم هناك أنكار وتجاهل لأوليات الفكر العربى الإسلامى فى مجال الجغرافيا والطب والفلك ، ثم إنكار فضل الفكر العربى الإسلامى فى الفلسفة والعلم . وكل ما يتصل بالفكر ، وابراز النظرية التى تقول أن اليونان هم أصحاب الفضل على الفكر العربى ، ثم آثارة نزعات الفلكلور ، وإقليمية الأدب واللهجات العامية والكتابة بالحروف اللاتينية . والدعوة إلى الأممية والعالمية وإفساد خطة الترجمة بتحويلها عن الجانب العلمى إلى جانب القصص المكشوف .

وأثاره دعوات جديدة كالبهائية والروحية الحديثة ، وتمزيق وحدة الفكر العربى

الإسلامى بعزل الأخلاق عن التربية ، والدين عن الأدب ، وإثارة عشرات من الدعاوى الإلحادية والإباحية ، ومحاولة ترتيب نهضة العالم الإسلامى والعربى على الغزو الغربى .

* * *

وهكذا جرت حركة التغريب وفق مخطط منظم لتدمير القيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى بمحاولات متعددة مستهدفة أن يكون التغريب هو حمل العالم الإسلامى على قبول ذهنية الغرب ومذاهبه وقيمه ، بدلا من ذهنيته ومذاهبه الأساسية وذلك بتزييف التاريخ وتشويه مبادىء الإسلام والثقافة العربية الاسلامية وانتقاص الدور الذى قام به فى تاريخ الحضارة الانسانية وخلق الشعور بالنقص والشك فى النفس العربية الإسلامية ومحاولة حملهم من هذا الطريق على الخضوع لوجهة النظر الغربية ، وذلك بالعمل على إنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية فى ماضى هذه الأمة مع الاستخفاف بها ومحاولة ذمها ، وكذلك توهين القيم الإسلامية والغض من اللغة العربية الفصحى وتمزيق الروابط بين أجزاء العالم العربى الاسلامى . ومحاولة غرس مبادىء التربية الغربية حتى تشب الأجيال الجديدة مستغربة فى حياتها وتفكيرها وحتى تخف من نفوسها موازين القيم العربية الاسلامية .

* * *

وقد عنيت حركة التغريب بأن تصور مرحلة بعد مرحلة مدى ما وصلت إليه من نتائج ، ومنذ ثلاثين عاما صدر كتاب « وجهة الاسلام » الذى كتبه المستشرق هاملتون جب ومجموعة من زملائه فتحدث عما وصلت إليه حركة التغريب من إبدال النظم والقوانين وطرائق العيش ، وأشار الدكتور هيكل — إذ ذاك — إلى « أن تغريب الشرق إنما يقصد به إلى قطع صلة الشرق بماضيه جهد المستطاع فى كل ناحية من النواحى ، تمزق صلة التفكير والعقيدة بين الماضى والحاضر ، وصبغ ماضى الشرق بلون قاتم مظلم يرغب عنه أهله ويرون فيه عاراً لهم ومن هنا يرون أنهم عيال على الغرب يتطلعون إليه فى إعجاب وتقديس وعبادة ويرون فى خضوعهم له شرفاً كبيراً » .

وقال الدكتور هيكل « أحسب أن كتاب الغرب قد نجحوا إلى حد كبير فى تصوير تاريخ أمم الشرق بلون قاتم ، وجعل أبناء الشرق أنفسهم يحسون أن بينهم وبين أيام مجدهم

الوفا من السنين تقضت كانوا أثنائها خاضعين لألوان من الذلة لا يستطيعون اليوم معها أن يشعروا شعوراً صحيحاً بمعنى الحرية أو بمعنى العزة القومية وأن هذا التصوير زائف فى نظر التاريخ المنصف .

وأشار الدكتور هيكل إلى محاوله حركة التغريب فى تزييف تاريخ الشرق وإحلال النظم الغربية والتفكير الغربى فى الشرق وإفناء شخصيته ، وقطع صلة حاضره بماضيه فى التاريخ والعلم والتفكير ، وكذلك تزييف العقيدة حيث وكل إلى المبشرين أن يقوموا بهذه المهمة الخطيرة . وأن يحملوا المسلمين على الاعتقاد بأن هذه العقيدة هى سبب تأخرهم وعدم بلوغهم مبلغ الغرب فى حضارته .

وأشار إلى ما ذكره «شيخ المبشرين» زويمر فى مؤتمر المبشرين الذى عقد فى فلسطين عام ١٩٢٧ عندما أشار إلى أن التبشير قد وصل إلى اسمى غاياته فى مهاجمة الاسلام ، وأنه أدى المهمة على أكملها ، وانتهى إلى نتائج لم يكن أحد يحلم بها منذ الحروب الصليبية . وقال زويمر : أنه ليس غرض التبشير المسيحى هو إخراج المسلمين من دينهم ليكونوامسيحيين، فالمسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً ، والتجارب دلت على استحالة ذلك ، ولكن الغاية التى نرمى إليها هى إخراج المسلم من الاسلام فقط ليكون ملحداً أو مضطربا فى دينه، وعندها لا يكون مسلما أى لا تكون له عقيدة يدين بها فلا يكون المسلم من الاسلام إلا اسمه ، والملحد هو أول من يحتقر الاسلام والمسلمين ، وقال أن هذه هى اسمى مراتب الانتقام من الإسلام وأعظم الغايات الاستعمارية .

وقال زويمر : لقد قضينا على برامج التعليم فى الأقطار الاسلامية منذ خمسين عاما فاخرجنا منها القران وتاريخ الاسلام ، ومن ثم أخرجنا الشباب والفتاة المسلمين من الوسائط التى تخلق فيهم العقيدة الوطنية والاخلاص والرجولة والدفاع عن الحق .

وقال : الواقع أن القضاء على الاسلام فى مدارس المسلمين هو أكبر واسطة للتبشير وقد جنينا منه أعظم الثمرات المرجوة » ا . ه .

وهكذا تتمثل دعوة التغريب فى مرحلتها الأولى بعد أن انفصلت عن «التبشير» وهى تخطط

عن طريق (١) تزييف التاريخ وتزييف العقيدة وتزييف الفكر العربى الاسلامى بإثارة الشكوك فى المقومات الأساسية كاللغة والدين والتاريخ .

(٢) القضاء على مقومات الفكر العربى الاسلامى والقضاء على الدين بالذات كمقوم أساسى منها ، وانتزاع الإسلام من مكانه كقوة ذات فعالية فى الثقافة والمجتمع .

(٣) إفساد وتحويل أنظمة التربية والتعليم والقضاء على اللغة العربية والفصحى وعامود الشعر ، والتركيز على الاقليميات الضيقة والهيئات المحلية ومحاولة تصويرها بأنها ذات طابع خاص فى كل وطن وقطر وإقليم (٤) الفصل بين القيم الأساسية للفكر وتمزيق وحدة الإجتماع والأخلاق والأدب والدين والتربية .

وقد استطاعت حركة التغريب أن تركز على إقصاء كلمات «الإسلام» والدين والروحية ، كما استطاعت أن تزرع عشرات من الدعوات والمذاهب كالوجودية ، والشيوعية والقومية الضيقة والعلمانية ، والبهائية ، والفرعونية والفينيقية والشرقية والطورانية وظهر من مفكرى العرب والمسلمين من يدعو إلى وضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والحياة الآخرة موضع البحث وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديث (آصف على فيضى) أو الدعوة إلى أن المدنية الأوربية كل لا يتجزأ ومن المحتم قبول الحضارة والفكر الغربى معاً « أحمد غايف (تركيا) وطه حسين (مصر) » .

ويبدو هدف التغريب أساساً متمثلا فى القضاء على كيان وشخصية الإنسان فى العالم العربى والاسلامى بالقضاء على مقومات فكرة العربى الاسلامى الأساسية . ذلك أن دعوة التغريب كانت تقوم على أساس (١) التشكيك فى القيم (٢) تحويل المفاهيم (٣) الدعوة إلى الاندماج الكامل فى الحضارة الغربية (٤) القضاء على التاريخ والدين والتراث واللغة .

والواقع أن الفكر العربى الاسلامى فى جوهره ومنابعه الأولى فكر طليق متحرك قابل للتطور ، متفتح للحضارات البشرية والثقافات الإنسانية ، يأخذ منها ويعطى . ولو أنه واجه الحضارة والثقافة الغربيتين بحرية لأخذ منها وأعطى دون أن يحدث الانحراف الذى كان نتيجة النفوذ الأجنبى الذى فرض عليه بتقديم وجهات نظر تتعارض مع مناهجه وعقائده عن طريق التعليم الأجنبى والصحافة الخاضعة للاستعمار وهو ما تحررت منه مصر وبعض الأقطار العربية وما تزال بعضها الآخرى خاضعة له .

وأساس الخلاف بيننا وبين فكر الغرب أننا لا نرى الاسلام دينا وحسب كما يرى الغرب المسيحية ، وإنما الاسلام دين وفكر ومجتمع . وأننا لا نرى خلافا بين العروبة والاسلام فهما وجهين لحقيقة واحدة . ونحن لا نرى الحضارة كالثقافة ، فالحضارة ملك للانسانية كلها ولكن الثقافة ثمرة روح الأمة ، والثقافة هنا تختلف عن المعرفة ، فالمعرفة عامة إنسانية والثقافة خاصة ونحن لا نؤمن بأن نقل الحضارة يعنى نقل الثقافة ، ولسنا نؤمن بأن ننقل أو نقتبس ، إلا على قاعدة فكرنا الأساسية وعلى ضوء مقومات شخصيتنا وفكرنا فنأخذ ما يزيدنا قوة وحياة ونرفض ما سواه .

وينكر الفكر العربى الإسلامى «الأممية» ، والجرى مع التيار مما يمسخ شخصيتنا ، كما ينكر الجمود ، وعنده دائماً من المرونة والحيوية ما يمكنه من التطور والتجدد دون تبعية أو إندماج ، ودون أن نكون ظلا أو عملاء لثقافة ما من الثقافات ، فلنا ثقافتنا بمقوماتها وقيمها الانسانية العالية . وليس فكرنا تراث قديم ولكنه ثقافة حية متطورة مستمرة التأثير والفعالية . وليست لغتنا راكدة ولكنها حية قادة على الاستجابة ، وقد قام فكرنا أساساً على وحده شاملة لكل مقوماته ، فهو مرتبط بالتوحيد مؤمن بالانسان سيداً للكون فى ظل الله ، وقد اتسق فكرنا على أساس مزيج رائع من العقل والقلب والعلم والدين والروح والمادة فليس هو روحية صرفه ولا مادية خالصة .

ومن هنا كان موضع الخلاف بينه وبين الفكر الغربى القائم فى كل مناهجه ومفاهيمه على المادية وبالرغم من أن معركة التغريب واجهت الفكر العربى الاسلامى فى مرحلة الغزو السياسى والعسكرى وفرضت عليه الغارة فرضاً ، وأعطت المعركة وسائلها الضخمة فى مجال التعليم والصحافة والكتابة وغيرها ، فإن فكرنا لم يستسلم وقاوم بكل قوة واستطاع أن يثبت وجوده ويؤكد شخصيته وقد اعترف دعاة « التغريب » بأن المخطط الذى توقعوه لم يحقق هدفه كاملا ، وقال الفرد كانتول سميث فى كتاب (الاسلام) فى التاريخ الحديث :

« لقد فشلت تجربة الغرب فى الاحتفاظ بتقدير الشرق ، فشله فى أن ينشر مثله العليا وقيمه الفكرية وطريقة حياته فشله فى تغريب الشرق . وقد كانت الطرق ممهدة فحين ابتدأ المسلمون فى إصلاح أحوالهم فكروا أولا مثل كل أمة لها تاريخ وليس لها حاضر فى العودة إلى التاريخ ، فبرزت الاتجاهات السلفية إلى العصر الذهبى فى الاسلام فظهرت دعوتان سلفيتان هما محمد بن عبد الوهاب والشاه ولى الله فى الهند ثم ظهرت الدعوة الثالثة التى هزت أرجاء العالم وهى دعوة جمال الدين (الأفغانى) فى منتصف القرن التاسع عشر فخلق جيلا ضخماً من المفكرين المسلمين كانوا يعيشون بقلوبهم مع الإسلام وعقولهم مع الغرب . غير أن الغرب قضى على نفسه بنفسه ، وتحول الشعور بالاعجاب بالغرب إلى نقيضه حين تسمم جرح الكبرياء بالأحداث » .

الشعوبية الفكرية الحديثة

تتمثل الشعوبية الحديثة فى الفكر العربى الإسلامى فى صورة تختلف عن الشعوبية التاريخية . فهى تحمل معارضة صريحة للقيم الأساسية لفكرنا ممثلة فى الإسلام واللغة العربية والتاريخ والتراث ، وهى من أكبر ركائز التغريب والنفوذ الأجنبى ودعامتها ومن هنا تتشابه الشعوبية الحديثة مع القديمة فى الهدف فقد كانت تلك تقذف آداب العرب وفكرهم بالاتهامات والشكوك وتنثر حوله الأحقاد ، وهى اليوم تتمثل فى بعض الهيئات والمؤسسات والمنظمات المبثوثة فى العالم الإسلامى والتى تحاول هدم الدين أو اللغة عن عقيدة أو تعمل فى خدمة النفوذ الأجنبى والاستعمار .

وقد ظلت آثار كتاب الشعوبية القديمة مصدراً للحملة التى توقد على الفكر العربى الإسلامى إذ تثار اليوم نفس القضايا وتلقى نفس الشبهات والشكوك وتعلن نفس الجوانب والاتهامات والإسرائيليات المدخولة إلى التاريخ أو السيرة .

وقد واجه الجاحظ وابن قتيبة وابن دريد وابن عبد ربه وغيرهم هذه الاتهامات وردوا عليها بما يكشف الحقيقة ، ولكن الشعوبية الحديثة تتجاهل الحقائق وتحجبها وتعيد إثارة الشبهات وحدها . فالشعوبية اليوم هى « ثمرة » التغريب وأداته ، وهى ليست صراعا بين ثقافتين وسلطانين كما كانت الشعوبية القديمة بين العرب والفرس .

وإذا قيل أنها تمثل صراعا بين ثقافتين وسلطانين فإنما تمثل الشعوبية حملة ألوية التغريب ومحاولة فرض المفاهيم الغربية على القيم العربية الإسلامية ، وفى كل ماتعرض الشعوبية من

أبحاث إنما تقصد به إلى التشكيك وإثارة البلبلة والغض من قدر التاريخ واللغة العربية والإسلام والإغضاء عن فضل العرب والمسلمين على الحضارة ، والانتقاص من بطولة الأبطال وعظمة الأعلام فى مجال الفكر أو الحكم أو الحرب والإعلاء من شأن القيم الغربية والمفاهيم الغربية ، وفرض النظريات والمذاهب والدعوات الغربية التى نقضها الغرب عن نفسه ، و العمل على تجزئة الفكر العربى الإسلامى والقضاء على روح وحدته والفصل بين الدين والتاريخ والأدب والتربية ، والفصل بين الماضى والحاضر ، وفرض المفاهيم الغربية فى مجال الدين والقومية والديمقراطية والاشتراكية وإذاعة قدر كبير من الفلسفات والنظريات والمذاهب الغربية المتعددة المتضاربة ، وخاصة ما يتصل منها بالتشكيك فى القيم الروحية والمثل الإنسانية ، والتى تحاول أن تفرض : المادية ، والجنس ، والغريزة ، وتعرية الإنسان وتأكيد حيوانيته .

وعندنا أن حملة لواء هذه الدعوات هم شعوبيون ، وأن هذا العمل الذى يقوم به مستشرقون وكتاب من العرب أو غيرهم منبثون فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى إنما هى الشعوبية وليدة التغريب التى تمثل المرحلة الثالثة للغزو الثقافى وكان التبشير حلقتها الأولى . فالحملة على تراثنا ، والتشكيك فى تاريخنا ، والدعوة إلى العامية ، كلها حلقات من مخطط الشعوبية ما دامت تحمل طابع (١) الانتقاص (٢) الحقد (٣) التشكيك ، وكل كلمة لا تتوافر فيها صدق النظرة وإخلاص الرأى ووضوح الهدف ، تصدر عن قلم مجرح له ماضيه أو اتصالاته المشبوهة فهى دعوة شعوبية واضحة الهدف .

وفى هذا المجال يكشف علم « الجرح والتعديل » عن الكتاب والمفكرين ومن تاريخهم وماضيهم يحكم عليهم ، فمن كان تاريخه مرتبطا بالتغريب — على أن يكون ذلك مؤيدا بالدليل والسند — فهو من دعاة التغريب .

* * *

وقد جرت محاولات الشعوبية وهى ممتـدة فى مجال الدراسات المختلفة فى المعاهد والـكليات والجامعات فى الوطن العربى والإسلامى إلى ما أسماه طه حسين « انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن » وإلى الترويج للهجات المحلية وفرضها ودراستها فى الجامعات والمجامع اللغوية ، ومن شأن الشعوبية إثارة الخصومات كلما فترت ، وإحياء الخلافات والشبهات كلما أسقطت بالرد عليها . وهى عاملة على التفريق بين أصحاب الأديان فى الوطن الواحد ، وبين أصحاب المذاهب فى الدين الواحد ، وبين الأقطار والأوطان والأقاليم ، بإثارة المعارك والخلافات ، كما تعمل على إبراز دعوات الإلحاد والإباحة والتفرقة بالرأى ، وخلق وسائل الخلاف وإثارة الخلافات المذهبية والعنصرية والدينية وهدفها من ذلك كله تمزيق وحدة الأمة ، والقضاء على وحدة الفـكر .

وتتفق الشعوبية الحديثة مع الشعوبية القديمة فى أنها تريد أن تحول الفـكر العربى الإسلامى عن طابعه وشخصيته وبساطته وأصالته ووضوحه ووحدة مقوماته .

وقد عملت الشعوبية على التشكيك فى الدين عامة والإسلام خاصة وذلك بالتحريف ونشر الآراء الأعجميـة وإثارة الشبهات وتغليب الدعوات المنحرفة والمذاهب المضللة . والتشـكيك فى الحضارة العربية الإسلامية وإنـكار فضلها على حضارة الغرب الحديثة، والتشـكيك فى قيمة كل نتاج فكرى عربى إسلامى وتفضيل النتاج الأجنبى ، ومحاولة التماس الوسائل لنسبة كل قول عظيم أو رأى حكيم أو نظرية إيجابية فى مجال الفكر أو التاريخ أو العلم لغير العرب والمسلمين ، وكذلك التشـكيك فى الأخلاق والقيم ، وفى اللغة العربية وقدرتها على التعبير ، وفى قدرة العرب والمسلمين على القيادة والتوجيه ومحاولة تشويه التاريخ العربى الإسلامى .

* * *

وقد تناول كتـابنا معركة الشعوبية الحديثة فى عديد من الدراسات[1] ويرى محمد المبارك

---

(١) عبد العزيز الدروى : جذور الشعوبية الحديثة . محمد جميل بيهم : العرب والشعوبيات الحديثة ، محمد المبارك : الأمة العربية فى معركة تحقيق التراث . الدكتور عبد القادر حاتم : الشعوبية العربية الحديثة .

أن الشعوبية فى مرحلتها الحاضرة تتمثل فى ثلاث تيارات (١) تجزئة البلاد العربية (٢) إذابة العرب فى بوتقة كبيرة لحوض البحر الأبيض أو الشيوعية (٣) تجزئة الشخصية العربية بدلا من تجزئة الأرض .

ونحن هنا فى مجال دراسة الشعوبية الفكرية يهمنا هذا الجانب فتجزئة الشخصية العربية تهـدف إلى « فصل العرب عن تاريخهم وحضارتهم وتجريدهم من مثلهم ومبادئهم بصياغة فلسفة خاصة لقوميتهم تجافى روحهم وتقطع الصلة بماضيهم وتقيم بين حاضرهم وماضيهم حواجز لا تخـترق ، فتفصل شخصيتهم الحاضرة فصلا تاما عن شخصيتهم التاريخية حتى فى أشكالها الصافية وصورها الزاهرة . وتقيم من فلسفة فيختة ونيتشة ومازينى أو فلسفة الوجوديين فلسفة يقدمونها للأمة العربية لتستبد لهـا بفلسفتها الأصلية واتجاهاتها الفكرية ومفاهيمها الاعتقادية وعقائدها الدينية »[1] .

. . .

وفى خلال مرحلة نهاية الاحتلال للعالم العربى وقيام دعوة القومية العربية ومحاولات الوحدة بين أجزاء معالم العربى ،أخذ مخطط الشعوبية الفكرية يبرز على صورة أشد وضوحا وقوة ومضى يركز عمله على قضايا سبعة من أبرز قضايا فكرنا العربى الإسلامى .

(١) اللغة العربية: وذلك بالدعوة إلى تحريرها من الإعراب، ومحاولة إحلال عامية الجماهير محل العربية ، وفى هذا ظهرت دعوة سعيد عقل إلى الكتابة بالحروف اللاتينية . ودعوة غيره إلى أن تأخذ اللهجات العربية طريقها لتصبح لغات وإلى إلغاء الإعراب فى اللغة العربية وصيحتهم هى « هشموا الجملة العربية واستعملوا الأساليب الضعيفة عربيا ».

---

(١) محمد المبارك : معركة تحقيق الذات .

(٢) القرآن : وقد ترددت أقوال الشعوبية فى وصفه بأنه « خلاصة تركيبية لمختلف الثقافات التى نشـأت قبله .

(٣) الإسلام : وقالوا عنه أنه أصاب المنطقة العربية بالعقم لأنه دين صحراوى أقليمى .

(٤) العرب : وهم موضع اتهام الشعوبية بالانحطاط واعتبار حضارتهم حضارة رمال . والرمز للعرب بالرمل والتراب .

(٥) التراث : وقد جرت فى شأنه نظرتان : محاربة التراث الاسلامى والاعتراف بالتراث العربى الجاهلى وكل تراث قبل الاسلام وإلقاء الشكوك والشبهات حول التراث العربى الاسلامى القديم وتحطيم القمم العالية فيه كأبى العلاء وابن خلدون .

(٦) الدين : وقد دعت الشعوبية إلى رفض الدين ومشتقاته من الآلهة والقيم والأخلاق.

(٧) الشعر : الدعوة إلى هدم عامود الشعر ونبذ القصيدة العمودية لاتصالها بالتراث العربى.

(٨) التاريخ : محاولة تزييف التاريخ وإضافة صفحة بطولات إلى بعض الخونة وتزييف بطولات بعض المجاهدين .

(٩) بروز ظاهرة « الرموز الغربية » .

وللشعوبية شق آخر ، هذا الشق هو رفض الحضارة الانسانية ومحاولة فرض مفاهيم قائمة على التعصب فى المجال الاجتماعى والسياسى بينما يقوم الفكر العربى الإسلامى فى جوهره على التسامح والاقناع المنطقى ، وهو كما يشجب التحلل والالحاد ، فهو يشجب أيضاً التعصب وفرض أى نظرة أو مفهوم بالقوة والعنف .

فالفكر العربى الاسلامى المفتوح لتقبل كل النظريات والمذاهب لايحتقر الفكر الانسانى ولا يخاصمة ، ولكنه يأخذ منه ويعطيه على قاعدة الرشد الفكرى ، ويقدر له الثروة الضخمة التى أغنى بها البشرية ، كما لا يرفض الحضارة بل يعتبرها حضـارة عالمية ويراها ملكا لكل الأمم والشعوب ، وليست الديمقراطية والاشتراكية والقومية نظرات جديدة عليه بل إن لها جذوراً عميقة فى فكره وله فيها مفهوم تقدمى مستمد من جوهر فكره ومرتبط ببيئته وروح العصر .

• • •

وقد ظهرت هذه الدعوة مؤيدة بمجلات وصحف وكتب أنيقة ضخمة تصدر فى بعض العواصم العربية استكتبت بعض الكتاب من العالم العربى كله . وتقوم عليها منظمات

ترتبط بالنفوذ الغربى والصهيونية وقد اتخذت هذه الدعوة من كلمة ليفى أشكول قاعدة لعملها، هذه الكلمة تقول :

« إننا لن نسمح بوجود لغة واحدة وشعب واحد ودين واحد فى الشرق الأوسط » وفى ظل هذه الدعوة ظهرت عديد من المؤلفات والدواوين الشعرية تحمل على الإسلام والعروبة واللغة العربية .

وقد واجهت القاهرة هذه الحملة بمقاومة علمية منهجية تمثل فيها الإيمان الصادق بمقومات الفكر العربى الاسلامى والأمة العربية الواحدة ، وكان لها الدور الأكبر فى رد كل دعوة شعوبية أو تغريبية وإعلاء قيم القومية العربية ومقاومة الشعوبية والتغريب المتمثلان فى التعصب والجمود من ناحية أو التحلل والاغراق فى مهاجمة التراث والقيم من ناحية أخرى ، هذه المقاومة تجرى وفق مفهوم واضح لا يميل ولا ينحرف مستمد من ميزان يؤكد أننا نعيش بفكر مفتوح ولكننا لا نستورد ولا ننحرف .

وقد ركزت كتابات الشعوبية الهجوم على الجوانب الأخلاقية والفكرية والروحية ، على نحو يحمل طابع السخرية والتشكيك فى مجال الشعر والقصة والنقد والدراسة الأدبية .

ومن كثير من النماذج والكتابات بدا طابع الهجوم على فكرة « الله » والسخرية من الأديان ، وإبراز الرموز الوثنية والكنسية من أجل تشويه القيم الأساسية للفكر العربى الإسلامى والأدب العربى .

ويقول الشاعر أنسى الحاج فى ديوانه « لن » : أننا منذ ألف عام ونحن عبيد وجهلاء وسطيحون، والخلاص فى العمل الثورى هو (قصيدة النثر)التى تقوم فى جوهرها على رفض كل المقدسات والبناءات المتعارف عليها وفى مقدمتها « الأخلاق » فالأخلاق تحد من ممارسة الإنسان لانسانيته وتمنعه من تفتح ذاته ونموها .

وتعتمد هذه الحملة على عبارة إسرائيل « أن القومية الحقيقية فى الشرق الأوسط هى القومية الأقليمية وليست القومية العربية » وقد أعلن سعيد عقل فى مقدمة قصة « جلنار » التى

كشبها بالعاميه اللبنانية ، أن لغه الشعر ليست هى صور الألفاظ وإنما هى موسيقيتها . ومن ثم يسهل استبدال الدراجة بالعربية ، وإستبدال رسم الحرف اللاتينى برسم الحرف الذى ورثنا . ومن خلال كتاباته يبدو اتجاهه الواضح الى الاقليمية الفينيقية ،حتى أنه يقول أن دمشق كانت عاصمة فينقيا اللبنانية . ويجرى فى تبار اسماه « ميثولوجية لبنان » وتعطى كل هذه الكتابات التى تمثلها هذة الحمله (سعيد عقل . نذار قبانى . على أحمد سعيد (ادونيس) ، يوسف الخال) طابع « القومية السورية » التى حمل لوائها انسى الحاج وهى بهذه الصورة تتحول من ميدان السياسة إلى ميدان الفكر ، وتقوم على رفض الفكر العربى الإسلامى ومقاوماته الأساسية : العربية والعرب والإسلام ، التشكيك فى التراث العربى الإسلامى والتركيز على القول بانحطاط العرب وتشجيع الرفض لجوهر الدين ، والحملة على الإسلام باسم الفرعونيه والوثنية ورموز المسيحية فى ظل الامبراطورية الرومانية والفينيقية .

وقد أولى « جاك برك » فى مقدمة كتابه مختارات من الأدب المعاصر اهتماما كبيراً لهذا التيار التغريبى الشعوبى وقال أنه توجد فى بيروت مدرسة تعمل على التخلص من الفصحى وتطارد أى نوع من العروبة تشتم منه رائحة التراث ، وهى تقبل التراث الجاهلى والمسيحى وترفض التراث العربى الإسلامى .

* * *

وتحمل الشعوبية الحديثة الدعوة إلى وصل ما انقطع بين العرب واليونان وقبل اليونان عبر المسيحية ، على اعتبار أن هذا التراث « المتوسطى » هو خميرة الحضارة الإنسانيه ومهدها .

* * *

ولا شك أن هذه الصورة تكشف هدف « الشعوبية » الفكرية الحديثة التى لا تخرج عن مفاهيم التغريب ودعاوية فى كل مايتعلق بالدين واللغة والتراث . وهى تعطى فى مجموعها صورة الخصومه الحاقدة لكل قيم الفكر العربى الإسلامى سواء كانت هذه الخصومة مستمدة من فهم أو من تبعيه ، وهى على كل حال خصومه ليست ذات طابع علمى ولا تقوم على منهج واضح فى مواجهة الحقائق أو نقدها . وهذا ما يجعلها غير جديره بالنظر إليها أو احترامها .

الكتاب الرابع

نحن والحضارة الغربية

نحن والحضارة الغربية

لكي نفهم الحضارة الغربية المعاصرة علينا أن نسأل :

ماهو هدف الحضارات فى حياة الإنسانية . والجواب معروف ، هو إتاحة أكبر فرصة لإسعاد الإنسان وترقيته ورفاهيته وتوسيع نطاق أفاق الخير والإخاء والسلام والحرية ونقله من البشرية إلى الإنسانية ، ومن هنا تمثلت الحضارة قيما عليا فى محاولة تكوين الإنسان الكامل أو الإنسان الأعلى «السوبرمان» فإذا كان هذا صحيحاً — وهو صحيح — فالى أى حد بلغت الحضارة الغربية فى تحقيق هذ الهدف .

إن الحضارة الغربية قد بدأت دورتها منذ أوائل القرن الخامس عشر حيث كانت الحضارة العربية الإسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهاية الدورة التاريخية لها . ونحن لا ننكر فضل الحضارة الغربية ولا معطياتها الباهرة لاسعاد الانسان ورفاهية ولم يرفض الحضارة الغربية باحث منصف أو متمدن عصرى ، ولكننا ندرس هنا ما طرأ من انحرافها عن خدمة الانسان إلى تدميره ، ونراجع أوجه الخلاف بين نموها المادى وضمورها الروحى ، وماوقع نتيجة هذا الانفصام من أزمة كبرى يدرسها اليوم أساطين الفكر وهى «أزمة الانسان أزاء الحضارة» .

ومنذ القرن الخامس عشر إلى اليوم (١٤٠٠ — ١٩٦٥) يمكن أن يسمى ذلك عصر الحضارة الغربية التى لم تلبث أن أصبحت الحضارة العالمية لارتباطها بالاستعمار وفرض سلطانها ونفوذها على العالم كله . ولنا إلى الحضارة العربية نظر ثان : هل أسعدت أهلها ، وهل أسعدت الانسانية .

ولكى نستطيع أن نعرف ذلك ، علينا أن نستعرض تاريخ هذه المرحلة وتطوراتها ، فقد بدأت الحضارة الغربية وهى تجمع بين الدين والعلم ، ثم لم تلبث أن إنفصلت عن الدين إلى العقل إلى التجربة ومن المادية الداروينية إلى المادية التجريبية ، كمادية هيجل وماركس ، وبرزت دعوتها إلى ديانة الانسانية ، فعبادة الطبيعية فعبادة الانسان فى تحولات مستمرة لم تتوقف .

وقد كان لنجاح العلم التجريبى وظهور كشوفه الضخمة مادفع العقل الغربى الذى يقوم

على أساس ورائيات الوثنية الاغريقية والحضارة الرومانية والروح المسيحية أن يغلب مفاهيمه الاغريقية فى عبادة الانسان والرومانية فى اعتبار كل ما غير روما عبيد ، وهنا غاضت روح المسيحية السمحة تحت تأثير قيود الكنيسة وقصور مفاهيمها عن الانفتاح على العلم وتطوره ووقوفها إزائه موقف الخصومة .

ولم تكن الحضارة الغربية فى جذورها إلا ثمرة للحضارات الانسانية التى مرت بالبشرية منذ فجر التاريخ، وهنا يصدق القول بأن الحضارة كالنهر يحتفظ باسمه على طول مجراه ولكن أمواهه وشواطئه هى التى تتغير وتتبدل ، بتغير محطات الطريق التى تتمثل فى المصرية الفرعونية والبابلية والفينيقية والهندية والصينية والأشورية والفارسية واليونانية والرومانية والاسلامية العربية .

وقد كان قوام الحضارة الغربية أساساً تلك الأوليات والكشوف التى حققتها الحضارة الاسلامية العربية ، ومن هنا كان اتصال الحضارة الغربية بالحضارات التى سبقتها والتى تصادف أنها بدأت فى الشرق (مصرية وفينيقية) ثم وصلت إلى الاغريق والرومان (العربية الاسلامية) ثم عادت إلى الشرق كرة أخرى متمثلة فى الحضارة الغربية : ومن هنا كان هذا الاتصال مؤكداً أن هذه الحضارة قد شاركت فيها الأجناس والأمم المختلفة .

وقد كان من الطبيعى أن تكون الحضارة إنسانية النزعة ، وأن تعمل على نشر لواء يحقق الارتفاع بالحياة الانسانية ويعطى أكبر قدر من عوامل الرقى فى مختلف مجالات الحياة المادية والاجتماعية بما يزيد قدرة الانسان من السيطرة على الطبيعة مع ترقية النفس والغرائز ومنح الانسان إنسانيته وروحيته إلى جانب ماديته وبذلك يتحقق عطاء الحضارة للعقل والروح والجسد معاً .

غير أن الحضارة الغربية لم تكن كذلك فقد ارتبطت منذ يومها الأول بالاستعمار فكانت قوتها الجديدة وسيلتها للسيطرة على الأجزاء غير — الغربية — وما سوى أوربا من العالم واتخاذها مناطق نفوذها ، وبذلك أتمت السيطرة على أفريقيا وآسيا وكان العالم الاسلامى والعربى هو مجال التركيز الضخم والأقوى .

وهنا تمثلت الحضارة فى السيطرة العسكرية والسياسية على هذه المناطق وتجريد هذه الأجزاء — التى تمثل الشعوب الملونة من حريتها ومن مواردها . فأصبح العالم الإسلامى العربية جزء منه والأمة مصدراً للموارد الخام والتوابل والبترول والمعادن والمطاط وكل الخامات التى تتخذها وسيلة لادارة مصانعها .

ثم تصبح هذه المناطق بعد ذلك أسواقا لتصدير منتجاتها إليها ، وكان الاستعمار حفياً بأن لا ينقل إلى هذه المناطق المحتلة والتى أطلق عليها اسم « المستعمرات » إلا قشور الحضارة ، التى تركزت على الخمور والزينة ووسائل إثارة الغرائز المختلفة كجزء من مخطط تغريبى مدروس يرمى إلى تدمير قوى هذه الأمم وقتل معنوياتها والسيطرة على ثرواتها فى مجال المجتمع ، وقد حققت هذه المحاولات فعلا سقوط معظم ثروات الأمم فى أيدى المرابين وأصحاب الحانات الذين كانوا فى الأغلب من الأجانب .

وبذلك توسع نطاق السيطرة الإقتصادية ، فإذا أضيف إليه الغزو الفكرى والسيطرة العقلية عن طريق تحويل برامج التعليم والصحافة وبث قصص الجنس والمذاهب والنظريات الأدبية والاجتماعية والسياسية المضطربة تبين إلى أى حد كان هدف الاستعمار باسم الحضارة خلق قيادات جديدة خاضعة للاستعمار مرتبطة به ؛ وتبين كيف كانت الحضارة ذات أثر بعيد فى استغلال الشعوب والأمم باسم الانسانية وحرية تمدين الشعوب .

وقد جرى اتجاه الحضارة على هذا النحو فى ظل مفاهيم أساسية هى أن « الجنس الأبيض » هو الذى يحمل أمانة الحضارة وتمدن بين الشعوب وأنه لا بد أن يحتفظ بسلطانه وسيطرته ، وأنه لتفوقه العقلى وسلطانه المفروض بالقوى العسكرية والاختراعات لابد أن يعيش فى ذروة الشرف والرفاهية وأن تكون مختلف الشعوب الملونة فى صفوف العبيد ، وأن تظل بلادها مصادر للخامات وأسواقاً للانتاج .

وقد صورت هذا الاتجاه الكاتبة الفرنسية « مدام سنت بوانت » حيث يقول : إنى اتهم المدنية الغربية بأنها قصرت عن القيام بالمهمة إلى تزعم أنها ألقيت على عاتقها فى الأجيال الأخيرة ، أعنى المهمة التى ترمى إلى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه

الأرض بحيث تؤدى إلى الاتحاد ، ويمكن للانسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غير ، وهما وسيلة حب الذات ووسيلة حب الغير ، أما الغرب فإنه لم يقع اختياره إلا على الوسيلة الأولى : وسيلة الأنانية وحب الذات ، وكان اختباره لها جريمة ، وكان ذلك سبب ضياعه واضمحلال نفوذه ، لأن الوسيلة التى لجأ إليها ملعونة : إن الأنانية تقضى على الخير وتلتهم كل بر ، ولقد أراد الغرب أن يوحد العالم ، ولكن تحت سلطانه ولمصلحته ، والعالم لا يساس إلا بالعدل وبالحب وبالاخاء ورد الحقوق إلى أهلها ، ولكن الغرب لجأ إلى القوة الغاشمة ، واعتمد على القوة وحدها ، وعبث بالشرائع الدينية ، وخالف تعاليم المسيح عيسى الذى أمر بمحبة الناس أجمعين . لقد أضاء « الشرق » دياجير أوربا بنور تعاليمه ، وما هذه العلوم التى يفخر بها الغرب إلا من علوم الشرق وليس الذى يحجب النور عن الأنظار هو مدينة الشرق القديم ، بل الوحشية الغربية ودين القوة وحب الذات والأنانية التى يعمل بها الغرب . لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة وأنه بالتجائه إلى الوسائل التى لا تعرفها الانسانية قد أثبت أن مدينته أفلست » .

* * *

ولقد ظلت حضارة الغرب تعامل البشرية الانسانية على نحو يختلف عما تعامل به أهلها . فهى تحتجز الحرية والكرامة والرفاهية لأهلها . وبينما هى تحقق مزيدا من الترف والرق لأهلها تفرض على الأمم الملونة ـ وخاصة العالم العربى الاسلامى ـ أبشع صنوف الاذلال ، فتمتص نتاج أوطانهم وثرواتهم ، وتقاوم بالتدمير أى حركة من حركات الدعوة إلى الحرية . والحضاره الغربية تقول بالحرية ولكن لأوربا والغرب والرجل الأبيض ، أما فى آسيا وأفريقيا فإن أهلها ليسوا إلا عبيداً وليس لغير الرجل الأبيض الحق فى حمل أمانة تمدين هذه الشعوب المتخلفة .

أما موقف الحضارة من إسعاد أهلها وترقيتهم ورفاهيتهم فقد بلغت فى ذلك غاية المدى ولكنها عجزت عن المحافظة على القيم الانسانية للحضارات ، فهى قد قامت أساساً على المادية ومن ثم تطورت مفاهيمها فى ظل عوامل ذات فاعلية إلى تغليب مفاهيم إطلاق الغرائز وتعزيز « حيوانية » الانسان ، ثم اندفعت فى تحرير الحرية على النحو الذى لم يبق لها حد تقف عنده .

ولعل « الدوس هكسلى » حين يصور هذه الزاوية يكشف حقيقتها بوضوح حين يقول : أن الحضارة قد دفعت الناس إلى التمرد من حياة الروح والاندفاع وراء المادة وقصر جهودهم على المتع والرغبات وإعراضهم عن المثل العليا ، وأن اندفاع العالم إلى الاستمتاع قد شاع فى أقوال المؤلفين والشعراء والخطباء والممثلين المتمادى فى سبيل الدعاية للحياة المستهترة والأباحة ، وقد بالغوا فى مدح الحرية والتوسع فيها حتى أصبحت مزروله مبغوضة كالسم الذى ينقلب داء بعد ان كان دواء . وإن المثل العليا حقيقة زاهية لاشك فيها لأنها ضرورية للعالم وهى الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفلسفة المادية التى اعجب بها هواة الملذات والباحثون عن مسرات الحياة بانواعها ، وان النفوس البشرية لتضيع فى سبيل هذة الملذات وتفقد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرقى العقول فى سائر الأزمنة والأمكنة على أن غاية الانسانية هى السلام والمحبة والعدل ، ومن المحبة الاخوية نشأت فكرة الوطنية وهى فكرة إذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الأوطان » ويقول لاسكى : «لقد فقدت الحضارة ثقتها فى نفسها وايمانها العميق بحيوية القيم الثقافية السائدة وعجزت عن تحقيق الوفاق بين عالم المثل الأعلى المتمثل فى كتابات الانسانيين وبين حقائق هذا الواقع الحافل باهوائه وأطماعه وخصوماته، إن الحضارة تمر بمحنة من محن الشك والخوف والالحاد وتميع المعايير الثقافية والقيم الأخلاقية بصورة تنذر بشر مستطير فى حياة الفرد وحياة الجماعة » .

وقد عرض لهذا المعنى كثير من الباحثين ، يقول ألبرت شفايتسر فى كتابه : « فلسفة الحضارة » : بعد تجربة طويلة تبين أن الحضاره فى جوهرها قضية أخلاق وإننا لن ننجح فى بناء حضارتنا على أسس سلمية إذا لم نرجع إلى المفاهيم الأخلاقية .

ويرى ألبرت شفايتسر أن غلبة الجانب المادى فى الحضارة على الجانب الروحى هو مصدر أزمة الحضارة والانسان فى هذا العصر ؛ يقول : أن تقدم الحضارة المادى أكبر بكثير جداً من تقدمها الروحى ، لقد اختل توازنها ، فالاكتشافات التى جعلت قوى الطبيعة تحت تصرفها على نحو لم يسبق له مثيل قد أحدث ثورة فى العلاقات بين الأفراد بعضهم وبعض وبين الجماعات والدول ، والواقع أن معارفنا قد أثرت ، وأن قوتنا قد ازدادت إلى حد لم يكن فى وسع أحد أن يتخيله ، نحن نغالى فى تقدير إنجازاتها المادية

ولا نقدر أهمية العنصر الروحى فى الحيـاة حق قدره . إن الحضارة التى لا تنمو إلا فى النواحى المـادية دون أن يواكب ذلك نحو متكافىء فى ميدان الروح ، هى أشبه ما تـكون بسفينة إختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الـكارثة التى ستقضى عليها ، ذلك أن الطابع الجوهرى للحضارة لا يتجدد بإنجازاتها المادية ، بل باحتفاظ الأفراد بالمثل العليا لـكمال الإنسان وتحسين الأحوال المادية والسياسية للشعوب وللانسانية فى مجموعها ، وليس العنصر الحاسم فى تقويم الحضارة ما أنجزته من أعمال مادية بل يتوقف مصيرها على كون الفـكر يسيطر على الأحداث أو لايسيطر . والأمر فى هذا شبيه بما يحدث فى السفر ، فإن نتيجة الرحلة لا تتوقف على كون السفينة كانت أسرع أو أبطأ قليلا بل على كونها تسير فى الاتجاه الصحيح وأن قيادتها فى يد أمينة » .

وهذا الذى يقوله ألبرب شفيتسر فى كتابه (فلسفة الحضارة) ليس جديدا فقد ردده من قبله «أوزفالدشبنجلر» فى كتابه سقوط الغرب(The Decline of the west)حيث قال : إن الحضارة الغربية مشرفة على عهد انحطاط وتدهور وأنها تعانى أعراض الشيخوخة وانحلال الفناء .

وقد عارض نظرية شبنجلر التطور وأثبت أن الانقلابات الهامة فى تطور الـكائنات والمجتمعات والأنظمة والفنون والعلوم بل والعقائد إنما كانت فجائية أملاها القضاء المحتوم وأن الناس والمجتمعات مسوقة بدورة محتومة لا تدبير فيها للارادة الذاتية .

وإن كل حضارة خاضعة لقانون الميلاد والنضج والتدهور والفناء، وأن كل حضارة تفنى وتذبل بعد أن تـكشف عن خصائصها مثل القوميات وصور الحـكم وأن الاشتراكية هى آخر مراحل هذه الحضارة .

وقال شبنجلر : أن أوربا ستقضى على حضارتها التى هى بمثابة عمـلاق يترنح (Alattering giant) بفعل الخمر والمرض والانحلال .

ويتنبأ رومان رولان لآسيا بالحضارة القادمة « وستغلبنا آسيا كما غلبتنا رومية وأثينا قديما » ويقول رانتو : أن الليل يخيم على أوربا ونحن نولى وجهنا شطر الشرق . ويرى الدكتور باكيه أن أعمدة الحضارة الجرمانية اللاتينية تتداعى وأن الشرق أخذ يستيقظ

ويجدد نظاما أخلاقيا روحيا . وأعلن « برتراند رسل » أن أوربا محتاجة إلى حضارة جديدة أو حضارة تختلف عن حضارتها الحالية وأن علينا أن ننتفع بدرس الطريقة الذى يحل بها الشرق مشاكله .

وقال « جود » : لقد وهبنا العلم قوى لم يكن تحلم بها أجدادنا السالفون ، ولكننا نستخدمها بعقول الأطفال والمتوحشين ، وأن لا شىء يسد الثغرة التى تفصل قدرتنا عن حكمتنا غير إحياء القيم الأخلاقية العليا وذلك بإحياء العقيدة الدينية فى النفوس . وأن المطلوب هو سد الثغرة بين العلم والأخلاق » .

وقال «مالك بن نبى» : أن إعتماد الحضاره على العقل وحده له آثار بعيدة المدى فى الحضارة، فالعقل لايملك سيطرة الروح على الغرائز ومن هنا تشرع الغرائز فى التحرر من قيودها ، وتنطلق الغرائز بقدر ما تضعف سلطة الروح .

* * *

وبالجملة فإن أزمة الحضارة تتمثل فى ذلك الإغراق الذى وصلت إليه فى المادية والإباحة ، ويحاول هكسلى أن يصور هذه الأزمة فيقول : إن العالم الآن يشبه قبيلة تعبد الشيطان ، وتعيش فى ظل قوانين جديدة قائمة على الشر والحقد والمادية البحتة التى تجرد الإنسان من كل مشاعر الإنسان بلا حب ولا تعاطف . وأنها تتبادل الاتصال الجنسى على نحو ما تفعل السائمة . وأن العالم يمارس الحياة بطريقة غريزية لا تقوم على منطق أو تفكير ، وعنده أن المجتمع الذى تحلل من قيود الزواج ولم يعترف بالأمومة ، وكل شىء عنده تصنعه الآلات ، إنما يستهلك مائة سنة فى خمسين سنة ، بالعقاقير والإجهاد العصبى والخروج على الطبيعة وخاصة حين يكبت انفعالاته الحقيقية ويتظاهر بالكذب والنفاق .

وعنده أن طريق الخلاص هو العودة إلى عالم الروحانيات ، وأن على الغرب أن يتعلم الكثير من عزوف حكماء الشرق عن الدنيا وزهدهم فى المادة ، وفهمهم العميق لتلك التجربة الصوفية التى تتيح للانسان أن يجد الله فى قلبه » .

ودعا « كيسر لنج» أوربا إلى حضـــارة جديدة يستمد منها روحانـــية الشرق ،

وقد أشار كثيرون إلى طغيان المادة على الإنسان الحديث بحيث لم تعد أمامه قيم روحية يرسى عليها سلوكه ومعاملاته ، وأن جميع القيم قد أخذت تتأرجح .

ويرى «أرنولد تويمبى» أن الدين هو عماد المجتمعات وبه تقوم الحضارات وأنه العامل الوحيد لإنقاذ الحضارة الغربية من السقوط ،وعنده أن الحضارة الروسية الحديثة هى جزء من الحضارة الغربية واحتجاج عليها فى ذات الوقت وأنها ليست طريق الخلاص للحضارة الغربية وأنها مرحلة وليست خاتمة ، وأن الخلاص هوالعودة إلى الدين .

* * *

ويستعرض مستر سوروكن (أستاذ الاجتماع بجامعة هارفارد) أزمة المدنية الغربية فى بحث مستفيض[1] فيقول إن الأزمة العنيفة التى تجتازها الحضارة الغربية الحديثة هى أمر غير عادى ، وهى نتيجة لتفكك الأسس التى قامت عليها الحضارة . وقال أن هناك نقاط ضعف تهدد الحضارة لأن استهدافنا اللذة والمتعة يؤدى إلى انحلال القيم الاجتماعية والحضارية ويجعلها مجرد وسيلة للذة فى المستوى الوضيع والنوع الخسيس، كما أن محاولتها تصوير الواقع كما يظهر لحواسنا يؤدى تدريجيا إلى الركاكة والاهتمام بالمظاهر بدل التعمق فى البواطن . ثم أن الفنون الحسية تهتم بالظواهر والأغراض فتهمل الجواهر والأعماق وتكون سطحية ليست لها أفكار أو مثل تستهدفها من وراء الصور التى تعرضها . والعيب أنها تركز اهتمامها على الأنواع العليا من الأشخاص والحوادث سواء اللصوص أو المجرمين أو المحتالين أو النساء الساقطات أو ما يصور أوضع المظاهر وأسوأها .

ومن دلائل الانحلال فى الفنون الحديثة الاهتمام بالكمية قبل النوعية والعناية بالوسائل قبل النبوغ والإبداع،فنحن نقيس عظمة البناء بكبره ، وجودة الكتاب بكثرة ما يباع منه والجريدة بسعة انتشارها .

وقد ضعفت روابط الأسرة فكثرت حوادث الطلاق والافتراق وتضاءلت الروابط التى

---

(١) ترجم البحث الدكتور صالح أحمد العلى (بغداد) مجلة الكتاب المصرية يناير ١٩٥٢ .



تربط الأطفال بالآباء وذلك لازدياد نسبة الزواج الذى لا يرافقة أولاد ، وأصبحت الأسرة لا تقوم بتربية الأطفال ، كل هذا أدى إلى زيادة الجرائم بين الأطفال وحط من الأخلاق . وأضعف الشعور بالواجب الاجتماعى والمسئولية .

وكانت حرية النشر والرأى دعوة إنسانية نبيلة ، ولكن لما انحطت الأخلاق انتشرت الدعاية المتطرفة وزادت الصحافة الصفراء والروايات المكشوفة وأصبحت سموما اجتماعية أسوأ من حرمان الحرية ، وإذا لم يكن للفرد اعتقاد قوى بالله وبالحق والعدل وإذا سيطرت على أعماله الرغبة فى اللذة بدل احترام الالتزامات التعاقدية ، فإن أعماله تصبح مبعثها الشهوة ولن يعيقه عنها أو يوقفه عن الإضرار بالآخرين سوى القوة .

والمجتمعات التى تكثر فيها أمثال هؤلاء تصبح عرضة لصراع داخلى عنيف وثورات وتفكك . والسعى وراء اللذة يحطم التوازن العقلى والأخلاق لدرجة أن الجهاز العصبى لمعظم الناس لا يحتمل الضغط الرهيب الذى يتعرض له فيتفكك ، ولما لم يكن للانسان فى مثل هذه الحضارة مثل عليا وكانت حياته يكتنفها صراع مضطرب فإنه يقع فريسة للأوهام والدوافع ويكون كالريشة فى مهب الريح ، فيفقد اتزانه ويزداد تفككه ويتعرض لرجات عنيفة تحطم أعصابه. والاضطراب العقلى فى الغالب يرافقه الانتحار لأن أسبابهما واحدة وهى الاضطرابات الاجتماعية .وقد تزايدت رغبات الناس التى لا يمكن إشباعها إلا بالاصطدام بالآخرين الأمر الذى يجعلهم يعيشون فى جو ملىء بالخصومات والعداء .

ولما كانت الحضارة حسية فقد قامت على التقدير المادى واستخدمت كل طاقتها للحصول على أكبر ما يمكن من الماديات وتوسلت بالعلوم والفنون إلى زيادة الإنتاج والتجارة واستطاعت ذلك بسلبها الشعوب الضعيفة امكانياتها .

وأشار إلى تناقض الحضارة فقال أنها تنادى بالمساواة بين البشر ولكنها تخلق كثيرا من عدم المساواة الفكرية والخلقية والعقلية والاقتصادية والسياسية ، وهى تدعو إلى

مساواة الفرص بين الناس ولكنها لا تحقق من ذلك شيئا ، وهى تنادى بحكم الشعب بنفسه لنفسه ولكنها عمليا تطبق النظام الدكتاتورى وهى تثير الحاجات والرغبات ولكنها تمنع إشباعها .

ومحور التناقض قائم على كون حضارتنا تسمو بالإنسان وتمجده ، ولكنها فى الوقت نفسه تحط من القيم الإنسانية وتخفضها ، وقال إن الدليل على ذلك إن حضارتنا الحسية قد تضاءل انتاجها للمبدعين منذ أواخر القرن التاسع عشر فإنه لم يظهر فى السنوات الأخيرة فى الموسيقى أمثال باخ وبتهوفن وفى الأدب أمثال تولستوى ودستوفسكى وبيرون وديكنز وجوته وبلزاك وفى الفن أمثال رامبراندت وفى الفلسفة أمثال هيجو وشلنج وشوبنهور وسنبر ونيتشه » .

وقد اطلت النقل من الكاتب الأمريكى بالإضافه إلى ماقاله غيره من الباحثين لأضع تحت يد المثقف العربى الإسلامى مفاهيم مفكرى الغرب بالنسبة لحضارتهم التى تلقى إعجابا وتقديراً كبيراً بين دعاة التغريب والشعوبيين حيث يتوالى دعوتهم إلى الارتباط بالحضارة الغربية ارتباطا كاملا .

* * *

ولسنا نحن من خصوم الحضارة الغربية المعاصره ، ولكنا من خصوم مفاهيمها وأعتقد أن قد استطعنا أن ننقلها على قاعدتنا ومفاهيمنا نحن ، وأن نحقق بذلك مايتطلع إليه نوابغ الغرب وفلاسفتة فقد كانت قاعدة فكرنا دائماً هى ذلك المزيج من الروح المادة والعقل والقلب والدين والعلم .

وقد كانت قضية الحضارة الغربية موضع البحث منذ وقت بعيد فى الفكر العربى الإسلامى . وكانت هناك الدعوة الخاطئة المضللة المستمدة من جذور التغريب والشعوبية التى تدعونا إلى أن نسير سيرة الغربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً وشركاء ، ولقد كانت قيمنا ومفاهيمنا الأساسية تعارض أبرز مقتلين من مقاتل الحضارة الغربية وهما : فصل القيم الأخلاقية عن الحضارة والتفريق بين الأجناس وتميز الرجل الأبيض بالسيطرة وبقاء

غيره خدماً وعبيداً . فنحن تؤمن بوحدة الإنسانية والمساواه والأخاء ونجعل القيم الأخلاقية ظهيرا للقيم الحضارية .

ولما كان هدف الحضارة هو تقديم الرقى والسعادة والرفاهية للانسان فان تدمير هذا الإنسان باطلاق غرائزة وشهواته على النحو الذى تدفع إليه الحضارة الغربية هوليس وسيلة لترقيه وإنما تهدف إلى القضاء عليه وقد أصبحت أزمة الحضارة الآن هى القلق والفراغ والضياع وتوسع نطاق الأمراض النفسية والجرائم وتفلك الأسرة وتدمير الروابط الاجتماعية.

وقد أشار إلى هذا المعنى عباس العقاد حين قال : إن هناك خطر على الحضارة أخطار من القذائف والآلات الجهنمية هو إفساد الطبائع ومسخ العقول وتلويث الأخلاق وتعويد الناس أن يسخروا من كل نبيل جليل ، مع تهالك على المتاع الزائل وتهافت على الشهوات الجنسية .

وفى رأى عبد الوهاب عزام أن الناس قاسوا الأخلاق والآداب وسنن الجماعات وروابط الأسر والعقائد والمذاهب على السيارات والطائرات وإن علينا أننا أنكرنا أنفسنا وحقرنا ما عندنا وعظمنا ما عندنا وهجرنا الهندسة العربية فى الأثاث ثم حاكيناهم فى الإعجاب بها فاتخذها بعد أن سميناها (أربسكا) .

ويرى محمد المبارك أن الحضارة لم تبذل أى عناية لتهذيب النفس البشرية ولم تخفف ما فى الإنسان من أثرة وحب للذات وطمع فى كل لذة وشهوة ، فى الجاه والمنصب وأن الضمير البشرى لم يزد حساسية للحق ، وقد أخفقت عاطفة الإيثار والرحمة وقد غلبت الناحية المادية ولم توجد التوازن بين الفكر والحضارة .

ويرى سير جون وودلف فى كتابه دفاع عن ثقافة الهند : أن الدولاب الآلى الدائب الدوران فى حضارة الغرب بفعل البخار أو الكهرباء أو الذرة قد غدا فى ذاته قيمة أساسية تقاس بها كل القيم فى مجتمع الغرب .

لقد سيطرت حضارة الآلة الديناميكية سيطرة عمياء بلهاء لا هدف ولا ناموس إلا مجرد التطور ، هذا التطور الذى يسن لنفسه قانون حركته مستقلا عن روح الإنسان ومعنوياته كلها مع أنهما تراث الآلاف من السنين .

ويقول توفيق الحكيم : لقد قدمت الحضارة للناس بعض الراحة فى أمور معاشهم ولـكنها أخرت البشرية وسلبتها طبيعتها الحقيقية وشاعريتها وصفاء روحها . نعم كسبنا السرعة وخسرنا ثروة النفس التى تنمو باتصالها المباشر بالطبيعة ، كل شىء فى المدنية الحاضرة يتآمر على قتل الفضائل الإنسانية العليا وصفاتها الأدبية السامية ، ولا ننس أن أوربا هى الوحيدة التى أعدمت فى يوم ما علمائها حرقا واتهمتهم بالسحر والجنون وخنقت حرية الرأى حتى فى شئون الأدب والفن وجعلت من المسيحية التى تبشر بالمحبة سلاحا للفتك أمام محاكم التفتيش ، ولـكن أوربا اليوم أبرع قليلا من ذى قبل ، فهى تجند إخفاء حيوانيتها تحت ريش صناعى يمثل أجنحة ملاك سماوى . أما اليوم فهى تمر بأخطر أزماتها ، لقد ظهرت من تحت الريش ثياب الخنازير البرية . وقد فهم الشرق أن فتاته ليست إلا غانية خليعة لا قلب لها ولا ضمير وأن مآلها السقوط ممزقة الجسد تحت موائد المعربدين .

* * *

وفى اعتقادى أن اليقظة التى يعيشها العالم العربى فى ظل قاعدة أساسية من قيمه ومفاهيمه وانفتاح على الحضارة العالمية فى اختراعاتها وعلومها التكنيكية وميادين الصناعة والذرة والقذائف الموجهة ، سيحقق ظهور (نموذج جديد) قائم على مفاهيم الفكر العربى الإسلامى الذى يأخذ الحضارة ويقيمها على أساس ثقافته الأصيلة ، دون أن يذوب فى الاممية أو يكون تابعا للفكر الغربى .

الكتاب الخامس

نحن والفكر الغربى

تتمثل مقومات العربي الإسلامي المعاصر في : « اللغة » « والأدب » « والدين » و « التاريخ » و « الثقافة » و « التراث » فهي في مجموعها ترسم وحدة الفكر في أمتنا العربية وعالمنا الإسلامي وقد انصبت حملات التغريب والغزو الفكري والشعوبية عليها جميعا محاولة تغيير مفاهيمها ، وتحريف مضامينها ، بوصف هذه المفاهيم ممثلة أساسية لدعائم قيمنا ومثلنا وروح أمتنا وطابع شخصيتنا .

وقد ثارت من حول «اللغة والدين والتاريخ والثقافة والتراث» معارك ضخمة تستهدف تجزئة المفاهيم المتلاقية في وحدة كاملة . كما ثارت شبهات متعددة حول القومية ونظرية الأجناس

وقد انصبت هذه الحملات على عزل الإسلام عن العروبة ، والدين عن التربية ، والعامية عن الفصحى والعلم عن الدين ، والروح عن المادة ، في محاولات تزييف ضخمة تتصل بالقضاء على التراث وتعميق دعوة مضللة تدعو للانفصال عن الماضي أو إثارة الشكوك حول بعض المواقف أو الأحداث في التاريخ العربي مستهدفة إسقاط قيمه الأساسية وبطولاته ومواقفه الخالدة .

ولقد كان أبرز ما وجه إلى مقومات فكرنا من دعوات التدمير ، ما أطلق عليه «نظرية التجزئة » هذه النظرية التي يحمل لوائها دعاة دهاه ، يستهدفون بها عزل الدين عن المجتمع وعزل الأدب عن الأخلاق ، وعزل التراث عن الثقافة وهكذا .

وقد غاب عن الذين جروا وراء هذه النظرات مدى الهدف البعيد الذي ترمي إليه ، ظنا منهم أن التجزئة تخصص وأنها عامل من عوامل ازدهار الفكر وترقيته -- وهو كذلك فعلا — ولكن ليس على الوجه الذي يحملنا على تجزئة كل قضية فكرية إنسانية بين علوم الإجماع والنفس والأخلاق والدين . دون أن ينظر إليها نظرة شمول تردها إلى مصادرها الحقيقية في بناء الشخصية الإنسانية أو علاج أزماتها .

— ١ —

الثقافة

لكى نعرف مفهوم الثقافة التى تمثل المفهوم العربى لكلمة (Culture) الغربية يجب أن تضع فى تقديرنا عدة أمور :

(الأول) أن الثقافة تختلف عن التعليم والتربية وتمثل الدرجة العليا للتربية كما أن المعرفة هى الدرجة العليا للتعليم .

(الثانى) أنها أقرب إلى العقائد منها إلى المعارف .

(الثالث) عدم الارتباط بينها وبين الحضارة فى مفهوم الاقتباس أو النقل .

• • •

وقد اختلفت آراء الباحثين حول مفهوم كلمة الثقافة ومضمونها ، فمن ناحية مفهوم الكلمة ومدلولها فى الفكر العربى نجد أن مصدرها هو القرآن الكريم « قاتلوهم حيث ثقفتموهم » وهى تدل على معنى العثور بعد البحث والتصدى ، وفى المصباح المنير :

ثقفت الحديث فهمته بسرعة ، وتثقفته أقمت المعوج منه ، وفى أساس البلاغة بمعنى طلب العلوم والمعارف ، وفى القاموس المحيط للفيروزبادى : ثقف ككرم وفرح ، ثقفا وثقافة صار حاذقا خفيفا فطنا ، وثقفه تثقيفا سواه .

وأول من استعمل كلمة الثقافة ابن خلدون ، وفى العصر الحديث حسن توفيق العدل فى كتابه (سياسة الفحول فى تثقيف العقول) .

كما اتفقت الآراء على أن الثقافة هى الوجه المقابل للحضارة .

بحيث تشمل الحضارة الماديات والصناعات والتجارة والصناعة الآلية تتمثل الثقافة[١] فى الأخلاق والمبادىء والأمور الذهنية والمعنوية .

فالحضارة[٢] تنتقل من أمه إلى أمة وهى قابله للانتشار بين الأمم بسرعة ، أما الثقافة فتبقى خاصة بكل أمة على حده ، وإن أثرت ثقافات الأمم المختلفة بعضها فى بعض قليلا أو كثيرا .

أما من ناحية المضمون فإن الآراء كلها تجمع على أن ثقافة أية أمه تشمل دينها وأدبها ونظمها وأخلاقها وتقاليدها وأساطيرها . وأنها تمثل طريقة الحياة إجمالا . وأن التربية[٣] والتعليم هى واسطة من وسائط المحافظة على الثقافة وميراثها من السلف إلى الخلف ، أى أن الثقافة ملك للأمة والتعليم ملك فردى .

ومن عشرات التعريفات للثقافة يبدو صلة الثقافة بالأمة هى أساسها الأول ، وأنها تتصل بالعقل[٤] والروح ، وأن لكل مجتمع ثقافته الخاصة التى يتسم بها ويعيش فيها ، كما أن لكل[٥] ثقافة مقومات مادية ومعنوية ، أما المادية فتتألف من طرائق المعيشة .

والمعنوية هى العادات والتقاليد التى تسود المجتمع وأن لكل ثقافة ميزاتها وخصائصها التى تحدد شخصيتها .

* * *

وبالجملة فإن الثقافة فى أمة من الأمم تتصل بقيمها وشخصيتها ومقوماتها الأساسية ومن هنا تكاد تجمع الآراء على أنها لا تستورد ، وإن كانت تتلقى وتمتص من الثقافات الأخرى ما يضيف إليها القوة والحياة .

ومن هنا يبدو الفارق بين « المعرفة » والثقافة فى كل ما تتلقى الأمم من فكر الأمم الأخرى وثقافاتها ، ومن هنا يصدق الرأى الذى يربط بين الثقافة والمثل الأعلى للانسان فى بيئته وفكره .

---

(١) فى مراجعة شاملة لآراء (سلامه موسى) .   (٢) ساطع الحصرى .

(٣) فى مراجعات لآراء تايلور وعبد اللطيف الطيباوى واطفى جمه وستيوارت وساطع الحصرى وأرثر أربرى وهارى شابيرو .

فالمعرفة تضم المناهج والنظريات المتصلة بعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد وهى مجموعة من الآراء تتطور وتتغير وتتعارض ، ولما كان النظر فيها ضرورى لمتابعة خطو الفكر الإنسانى فإن ذلك يتبع النظر منها خلال باب المعرفة الرحب الواسع ولا يمكن أن تتحول هذه المعرفة إلى « الثقافة » إلا فيما يتلاقى منها مع الأسس والمشخصات الأصلية ، ذلك أن ثقافة كل أمة لها طابعها الخاص فى الحياة ونظرتها إلى المشاكل الأساسية ولكن الثقافات تتلاقى وتأخذ وتدع ومن هنا أيضا يبدو صدق النظرة التى تفرق بين نقل الحضارة ونقل الثقافة باعتبار أن الحضارة مادية والثقافة ذهنية ، وعلى ضوء هذا الفهم لا يكون « الدين » من عناصر الحضارة بل من عناصر الثقافة .

نصل من هذا إلى القول بأن هناك « ثقافة عربية اسلامية » تختلف فى جذورها ومفاهيمها عن الثقافات الشرقية والغربية المتعددة .

وإن هذه الثقافة تتميز بشخصيتها وأسلوبها وأن هناك خلافات جذرية بين ثقافتنا وبين ثقافة الغرب التى كانت أشد اتصالا بنا بحكم سقوط العالم الإسلامى العربى تحت سيطرة الاستعمار الغربى (الفرنسى والبريطانى) على وجه الخصوص .

ويمكن القول بأن الثقافة العربية الاسلامية (فى العالم العربى) هى وريثة الثقافات القديمة المصرية والفينيقية والأشورية والبابلية ، وأن بلاده كانت مهبط الأديان الثلاثة وأن الفكر العربى الإسلامى قد قام على أساس الاسلام (وهو دين وفكر وحضارة) واللغة العربية بعد امتصاصه للثقافات الفارسية والهندية والإغريقية وقد بدأ طابعه ممثلا للألوهية ، واعتبار الدين جزء من المجتمع وتمثل قيم الاخاء والعدل والسلام والحرية .

وقد تمثلت الثقافة العربية الإسلامية فى تجربة شملت دورة كاملة من التاريخ ، وأثبتت فى عصور ازدهارها قدرتها وفاعليتها على تحقيق أهدافها وتمثل قيمها ، أما فى فترة ضعفها فليس على قيمها يقع الحساب ، إنما يقع على العوامل التى أدت إلى تخلفها . هذه التخلف التى لم يلبث أن تحول إلى يقظة جديدة حتى لم يمكن القول بأن الثقافة العربية الإسلامية

لم تمت وأن تولاها الضعف والاضطراب ، وأنها أستطاعت أن تواصل الحياة بغير سناد من سلطان الحكم وقيام الدولة التى تحمل مبادئها ، وقد استطاعت أن تقاوم الغزو الغربى ، هذا الغزو الذى حاول القضاء على مقوماتها أو تحويرها واقصائها على قاعدتها وتحويل ملامح شخصيتها وأبرازالخلافات الجذرية بين الثقافة العربية الإسلام و بين الثقافة الغربية :

(١) أن الفكر الغربى يحل مشاكله على قاعدة القوة بينما يحل الفكر العربى الإسلامى قضاياه ومشاكله على القاعدة الأخلاقية .

(٢) انفصال الفن عن العلم .

(٣) سيطرة المادة على الفن .

وفارق آخر بين الثقافة الغربيةوالثقافة العربية الإسلامية ، فالثقافة الغربية تطلق الغرائز والحريات إلى أقصى مدى بينما الثقافةالعربيةالإسلامية يؤمن بالمزج بين الروح والمادة واعتبار الخلق قوام الحرية

وفارق ثالث هو قيام السياسة فى الفكر الغربى على أساس الانتهازية ، بينما يقوم فى الفكر العربى الإسلامى على أساس الخلق والضمير .

وفارق رابع : هو أن الفكر الإسلامى العربى يرى الناس سواسيه ولا فضل لأبيض على أسود ، بينما يرى الفكر الغربىسيادةالأبيض والآرى وأن كل ما سوى الغربعبيدله، مع اقتناعه بشرعية فرض سيطرته علىالشعوب والعمل على تسخير جنس من البشر لخدمة جنس آخروأنه وعدم إيمانه بالقانون الأخلاقى فى معاملة غير أبناء جنسه .

* * *

ويقول قسطنطين رزيق : أن الثقافة الحديثة فى الغرب تقوم على أساس الإيمان بالانسان حيث كانت الثقافة فى العصور الوسطى المطبوعة بالمسيحية أو الاسلام تدفع البشر إلى التطلع إلى العالم الآخر وتزهدهم فى هذا العالم الآخر . وانقلب الايمان بالله والعلم

السماوى إلى إيمانه بالطبيعة والانسان القادر بعقله على السيطرة عليها واستغلالها . . . وأن هذه الثقافة لم تتمكن من إحراز تقدم محسوس فى حل مشاكل الانسان الأصلية بل أنه يجابه نتيجة لهذه الثقافة ذاتها إخطاراً أشد هولا وفظاعة من أخطار الماضى وذلك بالانتاج المادى ، وما ولدته الحضارة فى الانسان من تكبر وتجبر واعتقاده بأنه سيد مصيره » .

والواقع أن هذا الرأى يمثل الفارق الواضح والعميق الجذور بين الثقافة العربية الاسلامية والثقافة الغربية .

أما من ناحية الفكر العربى الاسلامى فقد عرف بالجمع بين الدين والدنيا وأنه لم يكن مطلقاً داعياً إلى التزهيد فى العالم الأرضى على النحو الذى صوره الكاتب ، فلم يكن الفكر العربى الاسلامى داعية زهاده ، وأن ما دخل عليه فى عصور الضعف من بعض هذه المفاهيم لا يمثل قيمه الأساسية وأصوله الأصيلة .

وقد كشف البحث عن فشل هذا الاتجاه الذى جرى عليه الفكر الغربى غير أن الفكر العربى الإسلامى يجمع بين القيم المادية والروحية ويمزج بينهما فى مختلف نظراته إلى السياسة أو الاجتماع أو الاقتصاد أو النفس .

وإذا كانت الفلسفة تهدف إلى البحث عن السعادة فإن الثقافة الغربية لم تستطع أن تحقق منذ القرن الخامس عشر إلى اليوم مفهوم السعادة ، بينما استطاع الفكر العربى الاسلامى أن يعطى هذه السعادة فى مفهوم واضح هو إيجاد وفاق طبيعى بين الروح والعقل والجسد ينعكس على الزمان والمكان .

وإذا كانت ثقافة الاغريق والرومان فى صبغتها عقلية وأن ثقافة الهند والشرق الأقصى فى صبغتها روحية وأن ثقافة الغرب (بشقيها) فى صيغتها مادية المصدر ، فإن الثقافة العربية الاسلامية وحدها دون ثقافات الإنسانية جميعا هى التى تحمل ذلك المزيج المتفاعل المتكامل المتوازن : بين الروح والمادة والعقل والقلب والجسم ، والدين والعلم .

وأن الثقافة العربية الاسلامية هى إنسانية الأساس والقيم والأهداف .

ولعل هذا هو السر فى امتدادها بهذه السرعة الغريبة التى عدها المورخون خارقة لنواميس الكون وتطور الحضارات ، ولعل ذلك يرجع إلى بروز روح الوحدة بين قيمها المختلفة وعدم انقسامها إلى مفاهيم مستقلة تتضارب وتختلف ، كما يحدث فى الفكر الغربى حين تختلف مفاهيم علوم النفس والاجتماع والأدب والدين والاقتصاد التربية والعلم التجريبى ، فالكل علم مفاهيمه التى قد يتعارض مع مفاهيم العلم الآخر بينما المفروض أنها جميعها تلتق فى خدمة الإنسان أساساً وتدور فى فلكه باعتباره ميزان الأشياء .

* * *

وقد كان من نتيجة ذلك أن اختل التوازن فى المدينة الحاضرة بين نمو القوى المادية ونمو القوى الروحية ، فقد بلغت الحضارة قمتها فى العلوم التجريبية بينما بقيت القوى الروحية ضعيفة متخلفة .

وقد ألقى جوستاف لوبون هذا السؤال : ماذا يحدث إذا استمر العقل فى النمو وظلت العواطف ثابتة لا يتغير ، لقد درسوا كل شىء فى العالم ، ما خلا الرجل فلم يدرسوه ، كشفوا الغطاء عن أسرار السماء ولم يكشفوا عن أسرار القلب ، لئن أمكننا أن نقول أننا ممدنون فإنه ينقصنا الجوهر » .

* * *

وعلى ضوء هذه المفاهيم تبدو فكرة الجوهر والعرض فى الثقافة ، فإن القيم الأساسية للثقافة وهى جوهر كل ثقافة تظل أساسا لكل قابلية جديدة فى مجال التحول ، ومن هنا تسقط نظرية التطور الدائم لكل قيم الثقافات . والغربيون أنفسهم لم يسقطوا جوهر ثقافتهم عندما اتصلوا بالثقافة العربية الإسلامية ونقلوا منها .

ومن هنا تبدو أهمية تقدير هذه النظرة فى الاقتباس أو الاقراض أو النقل أو الاستعارة من الثقافات الأخرى ، فلابد للاقتباس أو الافتراض أن يكون قائماً فى نطاق العرض لا الجوهر ، ولابد أن تكون هناك قدرة كاملة على الامتصاص ، والفهم أو التمثل .

فإذا لم تكن هناك هـــذه القدرة ضعفت شخصية الأمة وملامح ثقافتها الأصلية وانحرفت .

وليس ضيرعلى الثقافات أن تقرض أو تختص من ثقافات الأمم الأخرى ، ولكن العبرة تقديره الثقافة المختصة على التمثل وتحويل المستعار إلى كيانها لعملية هضم سليمة دون أن يظل قائماً كأنه شيء مستعار ، وهذا يرجع إلى قوة الثقافة الآخذة وقدرتها على الهضم وقد كانت الثقافة العربية الإسلامية من بين الثقافات الشرقية والغربية من القدرة والنضوج على الإستعارة والامتصاص ، غير أنه فى فترة قيام النفوذ الغربى عجز فكرنا طويلا عن عملية الهضم .

فقد كان موقفنا إذ ذاك غاية فى الضعف إزاء العلوم والأفكار المختلفة التى حملتها ثقافة الغرب والتى كانت أولياتها أساساً من منابعنا فقد ظلت سنوات طوالا وهى لا ترتبط بجذورها الأولى،وكأنهامن مستحدثات فكر الغرب حتى أصاب شبابنا إذذاك ذلك الإحساس بالقصور والعجز وكان لابد لنا أن نربط تطورات علم الاجتماع والاقتصاد والنفس والسياسة وغيرها بجذورها الأولى المستمدة من فكرنا أساساً ، وهذا ما استطعنا أن نصححه مفهومه بعد اليقظة .

ومن ناحية أخرى فنحن قد اقترضنا فى الماضى فى مجال لدينا فيه تراث ضخم .

والواقع أن الافتراض من الثقافات الأخرى دون قيد أو مراقبة يحدث فى الثقافة المقترضة حالة « عسر هضم » مما يؤدى إلى القصور عن بلورة العناصر الدخيلة أو المستعارة وتحويلها إلى كيان الأمة ونقلها إلى القوالب القومية .

ولما كانت الثقافة الغربية (بشقيها) تستمد جوهرها من المادية فإنها تنكر الروحية التى هى عنصر أصيل فى الثقافة العربية الإسلامية هذا بالإضافة إلى أن نظرية الفلسفة البرجماتزمية فى القضاء على الضعفاء يتعارض مع نظرية التكامل الاجتماعى التى يؤمن بها الفكر العربى الإسلامى[1] .

---

(١) عمر حليق — الرسالة م ١٩٥٠ .

- ٢ -

الدين

إن النظرة إلى « الدين » تختلف اختلافا جذريا بين الفكر العربى الإسلامى والفكر الغربى بشقيه . فهى أساس وقاعدة متصلة وممتزجة بمقومات فكرنا ، على نحو لا سبيل إلى انفصاله أو تجزئته ، بينما هى فى الفكر الغربى أمر منفصل ، على قاعدة هذا الفكر فى التجزئة والفصل بين علوم النفس والإجماع والاقتصاد والنفس والدين .

وفى فكرنا العربى يبدو الدين متصلا أساسيا فى النظرة الكلية الشاملة إلى الحياة وفى الرابطه بين الإنسان والله ، والإنسان والإنسانية ، وليس امتزاج الدين عاملا من عوامل الضعف أو التخلف بل هو عامل من عوامل القوة والإيجابية .

ولما كان الفكر العربى الإسلامى يقوم أساساً على إمتزاج الدين والدنيا والعقل والروح فإن الدين ليس إلا أحد وجهى الحقيقة الواحدة فنظرة فكرنا ليست روحية صرفه، ولن تكون عقلية صرفه ، وإنما هى نظرة شاملة قوامها العقل والروح .

ذلك أن الفكر العربى الإسلامى المستمد من الإسلام ، إنما يقوم على أساس أن الإسلام ليس دينا فحسب ولكنه دين وفكر وحضارة ومجتمع . ولذلك فهو لا يمثل الجوانب الروحية وحدها ولا يرتبط فحسب بالعلاقات التى تربط بين الإنسان والله . ولكنها تتمثل فى شمولها جناحى علاقة الإنسان بالله والإنسانية فى تفتح ومرونه .

ومن هنا تسقط أمام فكرنا قضايا الخلاف بين العلم والدين ، فقد كان الفكر العربى الإسلامى قادراً على الانفتاح على الحضارة والعلم والفكر الإنسانى متقبلا لكل تطورات المعرفة قادراً على مواجهتها ، بالإضافة إلى قدرته فى الالتقاء بحضارة الأمم المختلفة فى العصور المختلفة .

---

(١) اقرأ فصلا مطولا عن الدين فى كتابنا « الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية » .

أما الفكر الغربي فقد استبعد « الدين » استبعاداً كاملا من مفاهيمه وأصول ثقافته وجذورها بعد أن اصطدم بالمسيحية الغربية التي لم تكن من غرس بيئته الوثنية أصلا ، والتي كانت أماناتها لجذورها الإغريقية والرومانية قوية ، إلى الحد الذي حال دون تعمقها المسيحية الوافدة من الشرق ، ومن هنا تكونت صورة جديدة للمسيحية ، هي مسيحية بولس بكنيستها وطقوسها وكهنتها وما كان لها من دور في حماية قطاع وفرط نفوذها عن طريق صكوك الغفران ، في ظل هذه الصورة من المسيحية — التي هي ليست المسيحية الحقيقية في سماحتها وإشراقها — كون الفكر الغربي مفهومه عن الدين وانفصل عنه وأقام قاعدة فكره على المادية الخالصة ، وقد تابعه الفكر الماركسي في نظرته إلى الدين ، على اعتبار أن قاعدة الماركسية هي المادية أيضا .

ومرد هذا عندنا أن المسيحية الغربية كانت دينا روحيا خالصا ، لا يرتبط بنظام مجتمع ومن هنا استكملت حاجتها هذه من فلسفة الرومان ، ووثنية اليونان ، وكذلك فإن الفكر الديني الذي عرفته أوربا بكهنته وكنيسته وقيوده ، لم يكن قادرا على تقبل النهضة والحضارة ، والالتقاء معها ، بل على العكس من ذلك كان معارضا عنيف المعارضة لها محافظة على نفوذه وسلطانه أساساً وعجزا عن احرازه خصوصية الأفق المفتوح التي عرف بها الفكر العربي الإسلامي الذي كان قادراً على الإلتقاء مع كل حضارة وفكر والذي لم يكن لدينه كهانة أو نفوذ .

• • •

وقد واجه « الدين » هجوما عنيفا لا حد له من الفكر الغربي والفكر الماركسي على السواء . متابعا في ذلك الفكر الاغريقي الذي عرف بازدرائه للدين وهجوم أفلاطون عليه في قوله : « أن الأديان لم تمنع انتشار الشرور في البيئات غير الملحدة ولم تردع الخلق عن ارتكاب أنواع الموبقات وكل محرم ومكروه ، وإن الأديان اتخذت وسيلة لارتكاب أعظم استبداد » .

والمعروف أن الإغريق هم أول من قالوا بتحديد سلطة « الإله » ومنعها من الدخول إلى البحث

العلمى أو الأدبى ، ومن ذلك قول أرسطو أن « الإله » لا تستطيع أن يبدل نواميس الكون وقد انتقلت هذه النظرة إلى الفكر الغربى فقد وجه كثير من المفكرين الغربيين حملات عنيفة إلى « الدين » ممثلا فى المسيحية الغربية فى مقدمتهم : رينان ونيتشه وبرتراندرسل ، وغيرهم من الكتاب وهى حملات كانت تتمثل فيها روح الإلحاد .

كما وجه كثير من المفكرين طعنات قاتلة إلى الدين على نحو علمى ، لا يتجه إلى مهاجمة المسيحية الغربية أوالدين أساساً وإنما يبرز من خلال دراسات علوم النفس والاقتصادوالإجتماع وفى مقدمة هؤلاء فرويد ومار كس ودور كايم .

وتقوم هذه النظرات على أساس لا دينية الحياة ، وتحرير الإنسان من قيود الخلق والقيم .

وهذه عبارة سلامه موسى فى تصوير مفهوم الغرب للدين : يقول « إن هذه الحضارة لم تعرف الطريق الصحيح إلا بعد أن حطمت قيود الكنيسة التى فرضتها على الفكر ، وتخلصت من استبداد رجال الدين الذين حبسوا العقلية الفردية داخل نطاق التعاليم المسيحية الروحية التى تخالف اتجاهات الغرب التى تميل إلى المادية فكانت حركة النهضة التى قامت على أساس بعث ثقافة اليونان واستغلال مقوماتها فى خلق حضارة جديدة » .

* * *

أما الفكر الماركسى فإن موقفه من الدين واضح فى عبارة ماركس الصريحة « لا إله والحياة مادة » واعتباره أن الدين أفيون الشعوب معللا انتشار الأديان بالظروف المادية التى عاشها الإنسان الأول ، الذى كان عاجزا أمام الظواهر الطبيعية مما أداه قصوره عن فهم أسباب هذه الظواهر إلى ردها لإرادة عليا ، فضلا عن أن النظام الإقطاعى قد حمل الناس على الخضوع لقوة مجهولة لإكمال السيطرة عليها .

وقد كان فى نظرة ماركس وهو يهاجم الدين نفس مفاهيم الفكر الغربى ونظرته إلى المسيحية الغربية وتصرفات الكنيسة وسيطرة الكرادلة والباباوات .

وعنده أن ليس هناك روحية، وأن الروحية مصدرها المجهول والضعف، وأن الأخلاق والقيم إنما هي وسائل لحفظ المجتمع وهي مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي وهي قيم متطورة متغيرة، ويقول ماركس أن « حقيقة العالم تنحصر في ماديته » وبذلك تنكر الفلسفة الماركسية الألوهية والأديان والرسالات .

وبذلك يؤمن الفكر الغربي (بشقيه) بالالحاد الذي يعتبر جزءاً أساسياً منه فضلا عما دعت إليه الشيوعية من الحرب ضد الدين .

• • •

غير أن الفكر الغربي بشقية لم يقف عند حد محاربة الدين ، بل حاول إيجاد بديل له يتمثل في دعوات كثيرة منها البشرية (Humansim) والتي تجمل الآداب مرداً للنفس البشرية والدعوة إلى الإيمان بالإنسانية بديلا من الإيمان بالله حيث تعتبر « البشرية » الإنسان غاية لا تعرف غاية وراءها « man is imcurbly religions » .

وانكرت البشرية الايمان بالله أو الخلود أو العبادة ، وقالت أنه ليس من شرط الدين أن يكون للمؤمنين رب ، والبشرية تقول أن الفضائل ليست مراسيم الهبة وإنما هي اختبارات إنسانية وهي في تطور لا ينقطع ، وعندها أن أساس « الأخلاق » الاختبارات الانسانية التي تدلنا بتوالي الزمن وتكرار التجربة — على المفيد والمضر من أساليب المعاملة . وتلجأ البشرية إلى النفسيات الحديثة والتحليل النفسي في حل مشاكلها .

ومن هذه الدعوات ما حمل لواءه « برجسون » في نظرية التطور الخالق ، كما اعتبر الفكر الماركسي « الماركسية » بديلا للمسيحية :

وقد ظهرت عشرات من الدعوات والأديان التي اتخذت من المادية أساساً والتي غلبتها على النظرة الروحية الخالصة ، أو النظرة التي تجمع بين الروحية والمادية وهي في مجال الأخلاق تحمل نفس النظرة التي دعا إليها فرويد .

ولا شك أن تطور الفكر الغربي واعتماده على المادية كجذور أساسية لنظراته

فى فلسفات الأخلاق والتربية والسياسة والإجماع قد حال دون أن تعود النظرة إلى الدين إلى مفهومها الأساسى .

فقد فصل الفكر الغربى الدين والأخلاق عن مفاهيمها وفلسفتها السياسية حين قال ميكافيلى « إذا كان الدين سيطلب الأمانة والصدق والرحمة فللسياسة باعتبارها علما أوفنا الحق فى أن تستخدم الغدر والخيانة والرياء » .

وفى مجال التربية فصل ديوى نظريته عن الدين أساساً واعتبر الأساس المادى هو العامل الرئيسى فى إقامة مناهج التربية .

وفى مجال علم النفس فصل « فرويد » النفس الإنسانية عن الدين .

وفى مجال علم الاجتماع قامت نظرية دوركايم على فصل الدين عن المجتمع .

* * *

بل إن الإصطلاح الذى يستعمله الفكر الغربى فى التعبير عن الدين لا يمثل مفهومنا للدين فكلمة Religion مشتقة أساساً من كلمة Religar اللاتينية ومعناها المعاشرة الاجتماعية .

وكل ما يتحدث به علماء أوربا اليوم عن الدين لا يصل إلى الإيمان بالله أو الأديان السماوية أو اعتبار الدين عاملا أساسياً فى الفكر والحياة وإنما هى دعوة إلى التماس عقيدة فكرية لا تكاليف لها ولا مسئولية ، أما الدين بمفهومه فهو — فى نظرهم — مرحلة تاريخية مرت بها البشرية قبل أن يستنير عقلها وأنها انتهت بظهور فكر الحضارة .

* * *

أما نحن فى الشرق الاسلامى ، وفى الفكر العربى بالذات فالدين لدينا ضرورة اجتماعية لا يستغنى عنها ، وهى جماع بين السلوك الأخلاق والفهم العقلى المستنير وشعور بالتوفيق بين الإنسان والله والإنسان الكون والإنسان والإنسانية .

وللدين مظهران : عبادات ومعلات . وتتمثل المعاملات فى الشرائع التى تنظم علاقات الناس :

ومن هذا المفهوم تنتفى من آفاق فكرنا دعوات الشك والقلق والفراغ والضياع ولقد كان امتزاج الروحية والمادية العقل والقلب والدين والعلم فى الفكر العربى الإسلامى مصدراً من مصادر القوة والإيجابية فقد رفض الفكر العربى الإسلامى « المادية المغرقة » كما رفض « الزهد المغرق » . وهذا ماعجز الفكر الغربى عن تحقيقه حين تحول من الروحه إلى المادية وعجز أن يجمع بينهما فى مزاج معتدل وقد هاجم هكسلى المسيحية الغربية من هذه الناحية ورأى إنها لا تصلح مطلقا لأنه تكون عاملا مدنيا ورد جميع نظرياتها . وارتكزت فلسفة سبنسر على قاعدتى المادية واللاادارية وكذلك فعل ولاس ودارون من قبيل سبنسر وهكسلى . وكان رينان حربا على المسيحية التاريخية ، وكانت نظرته إلى الكتاب المقدس على إنه أثر من تكامل الخرافات والأساطير وكذلك وضع الفكر الغربى التوراة والكتب المقدسة على بساط النقد المادى الخالص . وهاجم نيتشه أخلاق المسيحية ، وصارعت المسيحية أصحاب الراى الحر وفى مقدمتهم جاليلو ثم دارون وظل الفكر الغربى يمعن فى هذا الطريق حتى تغلبت طاقاته المادية على الطاقات الروحية واصبحت عضلات العالم أقوى من عقله .

* * *

أما الفكر العربى الإسلامى فقد كان غير ذلك تماما . فقد أعلن برتراند رسل فى كتابه الثقافة والنظام الإجتماعى أن الإسلام دين سياسى ، موجه إلى الجماعة متوغل فى حياة الفرد والمجموع توغلا كليا على حين اعتبر الأديان الأخرى ديانات أفراد أى ديانات غير سياسية .

وأعلن جورج سارطون بأن الإسلام حرر العقل وحث على النظر فى الكون ورفع قدر العلم وأن حيوية الإسلام كانت فى مرونته . وأن هزائم المسلمين السياسية لم تزعزع ثقة المسلمين بأنفسهم .

ولقد كانت أصالة الدين فى فكرنا العربى الإسلامى حقيقة كاملة ، فقد بدأ العامل الدينى واضحا مشاركا فعالا فى توجيه الأحداث التاريخية للعالم الاسلامى والأمة العربية وتقرير مصائرها .

وليس من اليسير فهم الفكر العربي الاسلامي بعيدا عن التفسير الديني ، فالدين متصل ممتزج تماما بدراسات السياسة والاقتصاد والاجتماع والتربية ، وهو لا ينفصل عن المقومات الأساسية .

ولقد كان الفكر الاسلامي أثره في مقاومة أكبر ثلاث أخطار تعرضت لها الأمة العربية وهي التتار والحروب الصليبية والغزو الغربي الحديث ومن هنا كانت حملة الاستعمار والتغريب والشعوبية على الدين ضارية عنيفة ممتدة .

ويرى يوسف الحوراني أنه ليس من تفسير لبقاء الاسلام محتفظا بفعالياته الاجتماعية في عموم المجتمعات الاسلامية إلا «لأن هذا الدين يرى قضايا الأرض كما يرى قضايا العالم الآخر ، فليس منفصلا عن واقع الحياة بل هو يعالج كل القضايا وقد رسم سلوكا مدنيا خاصا ».

* * *

وحين انتقلت إلى فكرنا العربي الاسلامي مفاهيم الفكر الغربي في « الدين » حاولت أن تصبغ « الاسلام » لتضعه تحت نفس المجهر ، ولتحكم عليه نفس الحكم . وقد كان الدافع إلى هذا تغريبي محض ، يستهدف « تحرير » الفكر العربي الاسلامي من « الدين » واطلاق التيارات الغربية المختلفة التي تحاول أن تجرده من شخصيته ومقوماته ، وتدفعه إلى بؤرة التميع والتحول والتحلل . والهدف من ذلك إذا تحقق هو تمكين النفوذ الأجنبي من السيطرة على كيان الأمة . وتحويلها إلى العبودية الكاملة في فكرها وروحها .

ولقد يمكن القول أن التابعين للاستشراق والتغريب (ولا أقول تلاميذ المستشرقين فإن كثيرا منهم هم من أخلص المفكرين لروح العروبة والاسلام إيمانا بوطنهم وأمتهم .) لم يفهموا الفكر العربي الاسلام أصلا ولم يتعمقوه قبل أن يتصلوا بهذه البيئات ، وظنوا أن ما ينطبق على المسيحية الغربية — ولها تاريخها الطويل في الخلاف مع العلم والحرية والانطلاق الحضاري والانساني — يمكن أن ينطبق على الفكر العربي الاسلامي الذي كان دائما قادراً على الحياة والحركة والتطور .

ومن هنا تأثر الكثيرون على النحو الذى تكشفه النصوص[1] ، وتجمع عليه حركتى التغريب والشعوبية ، والأولى تهدف إلى القضاء على مقومات الفكر العربى الإسلامى لتعزيز النفوذ الأجنبى وتمكينه من السيطرة ، والثانية تهدف إلى القضاء على الإسلام واللغة العربية :

ولعل هذه التجربة من أصدق التجارب فى مجال التغريب :

يقول الدكتور محمود عزمى أنه حين كان يدرس الاقتصاد السياسى بمدرسة الحقوق كان يتعلم : أن « الربا » أصل كل نمو اقتصادى ، لأن الفائدة التى تعود على صاحبه هى وحدها التى تدعوه إلى أن يقرض ماله اشتراكا منه فى الجماعات المالية الكبرى ، وكان يرى أن هذا القول فى علم الاقتصاد تزيده دلائل الواقع ، ولكنه كان يستطيع أن ينسى أن الله قد أحل البيع وحرم الربا وكان لا يستطيع أن يوفق بين الأمرين ، فقصد إلى ناظر المدرسة الأستاذ الفرنسى « لامبير » وأفضى إليه بما يشغله « الربا حلال فى الاقتصاد السياسى حرام فى الشريعة الإسلامية » فكيف التوفيق فأجابه الأستاذ : حين يدرس الاقتصاد السياسى لا نفكر فى الشريعة الإسلامية ، وحين تدرس الشريعة الإسلامية لا تفكر فى الاقتصاد ، ولكن هذه الإجابة لم تقنعه . وبعد أن أتم الدراسة أرسل إلى « السربون » وكتب له أن يحضر ثلاث سنوات متوالية محاضرات الأستاذ « دوركايم » فى علم الاجتماع وكان من نتيجة ذلك أن انطبعت فى ذهنه طريقة تفكير الأستاذ وتحليله وتدليله ، وكان من نتيجة انطباع هذه الطرائق التى لم يذكر اسم الله فيها إلا نادراً ، واسم « الدين » إلا محترما مبجلا على اعتبار أنه حادث « عمرانى » له قدره « التاريخى » فحسب، يقول « ثم أصبح فنانا عن طريق الاقتناع العقلى الثقافى يؤمن بالعلم وبالعلم وحده . مع اعترافه بأن الحقائق العلمية نسبية فهى معرضة لأن تتغير ، كما درس فى محاضرات العلامة البيولوجى لود أنتيك أستاذ علم الحياة فى السربون ، وخرج من ذلك كله بأن « التدين » وعدم التدين إنما هى حالة عقيدة وإيمان يتوافر فيهما الاستعداد فى بعض النفوس ولا يتوافر فى البعض الآخر .

(١) إقرأ مزيداً من النصوص فى كتابنا « الثقافة العربية المعاصرة : قضاياها ومعاركها »

ولا تحملان دليلا على صحة أحدها أو عدم صحة الآخر ، فكما أن الدين لا يستطيع أن يقدم الأدلة القاطعة التى تثبت وجود الإله وهو أساس التدين ، فإن العلم لا يستطيع هو الآخر أن يقدم بالأدلة القاطعة التى تثبت عدم وجوده[١] ولكن للعلم ميدانا وللدين ميدانا »

هذه هى صورة التغريب فى محاولته تجاه « الدين » متمثلة فى تجربة الدكتور محمود عزمى ، حيث يهاجم الدين هجوما علميا ، والدين هنا هو الدين فى مفهوم لامبير ودور كايم ، وهو مفهوم يختلف أختلافا واضحا عن مفهوم الفكر العربى الإسلامى ، فإن « الله » و « المال » و « الشريعة » تلتقى كلها فى مفاهيمنا ولا تتعارض .

ومن حيث يلتقى العقل والروح فى مقومات فكرنا تحل مشكلة الدليل على وجود الله حيث نلتمسه عنهما معا ، وليس عن طريق أحدها ، وهو العقل وحده .

ويرجع هذا أساساً إلى أن مفهوم « الدين » فى الفكر العربى الإسلامى لم يكن واضحاً أساساً عند الدكتور « عزمى » .

* * *

ولعل الدكتور طه حسين ربيب الأزهر والتربية الدينية الإسلامية الخالصة أن يقول هذا وأكثر منه فإنه أساساً من أخلص تلاميذ «دوركايم» فيلسوف الاجتماع اليهودى ربيب النظرة المادية الداروينية ممتزجة بالنظرة الماركسية :

فالدين عنده « ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لم ينزل عن السماء ولم يهبط به وحى وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وأن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً فى وقت واحد ، مؤمناً بضميره وكافراً بعقله ، فإن الضمير يسكن إلى الشىء ويطمئن فيؤمن ، أما العقل فيغير ويبدل ويفكر أو يعيد التفكير من جديد فيهدم ويبنى ، ويبنى ويهدم[٢] » .

ومن هنا تبرز فكرة الفصل بين العلم والدين والعقل والقلب ، وهى نظرية أساسية فى الفكر الغربى القائم على الوثنية الإغريق والمادية الداروينية ، أما الفكر العربى

(١) الهلال — محمود عزمى (مجلد ١٩٢٩)

(٢) السياسة الأسبوعية : ١٧ يولية ١٩٢٦

الإسلامى فيمتزج فيه العلم والدين والعقل والقلب ولا تتحقق سلامة أى نظرية وعمقها ووضوحها إلا وفق هذا المزج الطبيعى بينما تكون هذه التجزئة هى مصدر الشكوك والريبة والخصومة .

* * *

ويمكن أن يطلق على هذا الاتجاه البارز الواضح عند عزمى وطه : ظاهرة « الإلحاد » التى تمتد إلى الرعيل كله فى الثلاثينات. فاسماعيل مظهر فى مجلة العصور يناقش «الدين »ويقول:

هل نعتقد أن الدين غاية أم وسيلة ، أما أنا فاعتقد أن الدين وسيلة وليس غاية فى ذاته « الدين » وسيلة توصلنا إلى غايات أهمها معرفة الله ، إذن فكل وسيلة توصلنا إلى معرفة الله وتخلص أرواحنا من جحيم الشك والريبة يمكن أن تعتبر دينا ، فإذا كانت « حرية الفكر » توصلنا إلى هذه الغاية فهى لا شك « دين جديد » يمكن أن يكون لدى الآخذين به أهدى سبيلا :

سنقول إن حرية الفكر قد تسوق الناس إلى الإلحاد والإنكار ، ولكن هل حمى الدين الناس من الإلحاد . لم يحمهم من الإلحاد مطلقا ، على أنى اعتقد اعتقاداً جازما بأن الملحد المطمئن إلى المادة أعود بالنفع على الانسانية من المؤمن الذى لم يعرف من الايمان غير التعصب لمذهب أو صورة من صور الاعتقاد .

والواقع أن الدين علاقة بين الفرد وبين الله ولا شأن له بالمجتمع مطلقاً .

والذين يقولون بأن للدين أثراً فى المجتمع واهمون ، فإن المجتمع اليوم قائم على أمرين : (١) القوانين الوضعية (٢) المعاهد والنظامات الموروثة التى ليس الدين إلا مظهراً من مظاهرها . فما دخل الدين إذن فى النظام الاجتماعى .

ومن يظهر خطأ الدعوى بأن الأديان شرائع يسير عليها الناس ، والحقيقة أن الدين نظام من النظامات الاجتماعية اكتسبت صفة القداسة ، نسبة إلى قوى تستمد مما فوق

العقل لا أكثر ولا أقل ، أما الشرائع التى نزلت بها الأديان فليست جديدة ، بل هى شرائع مستمدة من العرف الذى جرت عليه الأقوام التى ظهرت فيها الأديان [١] . »

ومهما يكن القول فى هذا النص فإنه مترجم عن « الفكر الغربى » على النحو الذى يفهمه من « الدين » وهو لا ينطبق بتاتا على مفهوم فكرنا العربى الإسلامى للدين كدين ، ولا للاسلام نفسه كدين وحضارة ونظام اجتماعى .

* * *

غير أن دعوى التغريب والشعوبية تبدو واضحة حين يهاجم اسماعيل مظهر نص « الإسلام » فى الدستور فيقول : لست أعرف حقيقة الباعث الذى حدا بالدين وضعوا الدستور إلى اثبات هذا النص ، فالدولة شخص معنوى ، والنص على إن ذلك الشخص المعنوى له دين اسمه الإسلام أمر لا يخلو من التناقص لأن هذا الشخص المعنوى إنما هو شخص مجرد . ولكنى أعتقد أن هذا النص لم يثبت الاستجابة لوعى خفى مستمد من روح الإسلام وإنه دين ودولة معا » ويقول طه حسين نفس القول « أن للدولة المصرية دينا رسمياً هو الإسلام ولو قد استشارنى أولئك أو هؤلاء لطلبت اليهم أن يتدبروا وأن يتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص فى الدستور [١] . »

* * *

ويبرز هذا المعنى واضحاً فى رأى « الشيخ » على عبد الرازق : فى القول بأن « دين » الإسلام روحانى محض لم تكن حكومة له ولا شريعة .

* * *

ويتعمق هذا الاتجاه حتى تصبح ظاهرة « الالحاد » صريحة حين يصدر اسماعيل أدهم أحمد كتابة « لماذا أنا ملحد » حيث يعترض على قول بختر زعيم ملاحدة القرن التاسع عشر الذى يقول إن الالحاد هو الحجود بالله وعدم الإيمان بالخلود ويقول : ان هذا التعريف سلبى محض ، ولا أجد بداً من رفضه ، والتعريف الذى استصوبه وأراه يعبر عن عقيدتى

---

(١) كوكب الشرق — ١٢ اغسطس ١٩٣٣ .

كالجحد هو أن الإلحاد هو الإيمان بأن سبب الكون يتضمنه الكون ذاته وإنه ثمة لاشيء وراء هذا العالم » .

ثم يردد كلمات كل زعماء المادية الغربية ، مثلا عمانويل كانت الذى يقول « أنه لادليل عقلى أو علمى على وجود الله وإنه ليس هناك من دليل عقلى أو علمى على عدم وجود الله » .

ثم لايلبث اسماعيل أدهم أحمد أن يصور أسباب إلحاده فى ثنايا كتابه « لماذا أنا ملحد » الذى قدمه له وطبعه الدكتور أحمد أبو شادى فكشف عما كشف عنه الدكتور عزمى من عنف التربية الأولى والقسر فى التوجية نحو العبادة ، مما كان له أثره العكسى وظهور روح التحدى ورد الفعل فى معاداة الدين جمله .

يقول « كان أبى مسلما متعصبا للاسلام وأمى مسيحية بروتستانتية ، ذات ميل لحرية الفكر والتفكير ، توفيت فى السنة الثانية من سنى حياتى وعشت أيام طفولتى مع شقيقتى فى الاستانه وكانتا تلقنانى تعاليم المسيحية وتسيران بى كل يوم أحد إلى الكنيسة . اما أبى فقد انشغل بالحرب ، غير أن بعد والدى عنى لم يكن ليمنعه من فرض سيطرته على من الوجهه الدينية ، فقد كاف زوج عمتى وهو أحد الشرفاء العرب أن يقوم بتعليمى الدين فكان يأخذنى لصلاة الجمعة ويجعلنى أصوم رمضان وأقوم لصلاة التراويح وكان هذا يثقل كاهلى كطفل فضلا عن تحفيظى القرآن . والواقع أننى حفظت القرآن وجودته وأنا ابن العاشرة غير إنى خرجت ساخطا على القرآن لأنه كلفنى جهداً كبيراً كنت فى حاجه إلى صرفه إلى ماهو أحب إلى نفسى منه وكان ذلك من أسباب التمهيد لثورة نفسية على الإسلام وتعاليمه . ولكنى كنت أجد من المسيحية غير ذلك ، كانتا اختاى قد درجتا على أن كل ماتحويه التوراة والإنجيل ليس صحيحا وكانتا تسخران من المعجزات ويوم القيامة والحساب وكان لهذا كله أثر فى نفسيتى . . وكان أبى لايعترف لى بحق تفكيرى ووضع أساس عقيدتى المستقبلة فكان يعرض على أراء الإسلام والقيام بشعائره ، وقد ثرت يوماً على هذه الحاله وامتنعت وقلت له : إنى لست بمؤمن وأنا داروني . . الخ »

ومن هنا يظهر مصدر « الألحاد » فى التربية المتزمتة التى تفرض الدين فتدفع إلى حربه وخصومته .

وقد اتسع هذا الاتجاه وتعمق حين أخذ الدكتور عبد الرحمن بدوى فى دراسة «الإلحاد فى الإسلام» محاولا أنه يجعل « الإلحاد » ظاهرة مقررة فى كل حضارة . « ذلك أن الإلحاد نتيجة لازمة لحالة النفس التى استنفدت كل إمكانياتها الدينية فلم يعد فى وسعها أن تؤمن ، وقد عرض لفاسفة نيتشة الإلحادية التى عبر عنها فى قوله « لقدمات الله » ومن قبل الإلحاد اليونانى الذى يعلن موت الآلة ، ثم ذهب من هذا إلى القول بأن الإلحاد الغربى قال « لقد ماتت فكرة النبوة والأنبياء » وأن النبوة هى الوسيط بين الله والإنسان .

ثم عرض لنا أسماء إلحاد ابن المقفع وابن الراوندى وجابر بن حيان ومحمد زكريا الرازى .

وهو فى هذا يذهب مذهبا مغربا فى القول بالإلحاد فى الإسلام ، إذ أن اختلاف رأى الفلاسفة فى النبوة أو معارضة إعجاز القرآن لا يمكن أن يسمى إلحاداً ، إذ الإلحاد متصل أساساً بإنكار الله : ولكن هذا يمكن أن يسمى شعوبية أو زندقة .

ومعروف لمن درس مبادىء التاريخ العربى الإسلامى أن الشعوبية والزندقة تمثلان حركة سياسية ترمى أساساً إلى إسقاط الحكم والسلطان والنفوذ العربى وتغليب النفوذ الفارسى عليه .

وإن كل ما أورده الدكتور بدوى على أنه إلحاد فى الإسلام هو ما يمكن أن يسمى بالشعوبية وإن كل الأسماء التى أوردها عرفت بالنزعة الفارسية الهدامة للقوة العربية .

وقد عارض بعض الباحثين رأى الدكتور بدوى[1] ، وقال أن نفى النبوة لا يتضمن نفى الألوهية ، وأن كان نفى الألوهية يتضمن نفى النبوة ، وأن الإلحاد تعبير عن نفى وجود الله ، وليس نفى النبوة إلحاداً وأن نفى النبوة لايتضمن نفى معرفة الله . أما نفى معرفة الله فإنه يتضمن نفى النبوءة .

وقد توسعت محلات العصور (اسماعيل مظهر) والمجلة الجديدة (سلامة موسى) وغيرها فى نشر دراسات الإلحاد (Atheiswe) وفى مجلدات ١ و ٢ و ٣ للعصور مقالات متعددة

---

(١) م — ١٠ مجلة الأبحاث .

تدور حول هذه المعانى وتتوسع فيها فتنقل آراء الملاحدة أمثال برتراند رسل فى كتابة (لماذا أنا ملحد) الاسم الذى أطلقه اسماعيل أدهم أحمد على كتابه .

* * *

وقد اتخذت معارضة الدين صورة « الشعوبية » فى آراء رجال من الأزهر كان فى مقدمتهم « على عبد الرازق » الذى كان جريئا فى الحديث عن التبشير الذى يقوم به الإرساليات الأمريكية فى مصر فى الجامعة الأمريكية عنها . محاولا التهوين من شأن حركة التبشير التى ضحت لها مصر والعالم الإسلامى كله ومصوراً إياها بأنه ليست مسألة دينية وإنما هى مسألة سياسية وأخلاقية يقول « التبشير المسيحى مرض سياسى وخلقى وعلى وعلى رجال السياسية والأخلاق فينا أن يبحثوا عن طريق الخلاص منه » .

وهو بهذا يأخذ بالمذهب الغربى فى تمزيق القضايا وفصلها بين رجال الاجماع والأخلاق والسياسة .

ومن هذه المفاهيم الغربية قوله أن التهاون الدينى ظاهرة خلقية ينبغى أن يشتغل بالبحث منها علماء الأخلاق قبل علماء الدين [١] .

ويصل هذا الاتجاه إلى حد أن يصرح الدكتور طه حسين فى حديث له مع روم لاندو (كتاب البحث عن غد — لندن ١٩٣٨) فيقول : عندى أن الدين كقوة روحية لا أثر له فى نفوس أولئك الذين يتلقون علومهم فى مدارس دنيوية . وهم كثرة المتعلمين . فأنت إذا تحدثت مع أى فرد منهم تجدهم جميعا كافرين بالدين والتقاليد . وإنما هم يدينون بالفكر ، وأن شئت يؤمنون بالمادة . ذلك لأنهم بعد أن خضعوا قرونا لسيطرة الدين اهتدوا فى الثلاثين سنة الأخيرة إلى ما وصلت إليه أوربا منذ قرون ، أعنى نظرية الإدراك المنطق، وهذا الكشف ألهب نفوسهم وصرفهم عما عداه من المعبودات الأخرى ، وقال : والدين بالنسبة لطلبة الأزهر لا يعدو أن يكون حرفة يحترفونها وتدر عليهم رزقا ، ولا شىء أكثر

---

(١) اقرأ المحاضرة بكاملها فى كتاب « حضارة مصر الحديثة » .

من ذلك ، بل أذهب فى اعتقادى إلى أبعد من هذا الحد ، فأقول أن الأزهر يدين بالمادة جهراً ، وأن الإسلام حين يستعيد قوته مرة أخرى سيكون روحيا تناولته يد التجديد[1] » .

ومؤدى هذه النصوص ليس هو الواقع الذى تمثله الحياة المصرية أو العربية تجاه الدين ، وإنما هى « صورة » الحلم الذى يراود حركة التغريب والشعوبية فى هذه الفترة من أوائل الحرب العالمية الثانية وقد كشفت الأيام عن غير توقع الدكتور وغير ما توقعت الشعوبية والتغريب . فكانت اليقظة المصرية العربية تحمل طابع الايمان بالتقاء الروح والعقل . وترابط الدين بالثقافة والمجتمع . ومن ثم توسع نطاق الدراسات الاسلامية وأتيح للازهر أن يدخل فى مرحلة عامية جديدة وكان لانشاء المجلس الأعلى للشئون الاسلامية وصدور عشرات من الكتب الاسلامية المحررة وكتب التراث والمجلات الرصينة فضلا عما أعطى الميثاق من إيمان بالقيم الروحية أثره الواضح .

بل إن هذه المفاهيم عن تصور «الدين» والمستمدة من الفكر الغربى كانت عمله زائفة لم تلق قبولا إزاء مفاهيم الفكر العربى الإسلامى إلى تمثلت فى حركة التجديد والبعث التى قام بها الرافعى وهيكل والزيات ومنصور فهمى وعبد الوهاب عزام وسعيد العريان .

والدكتور منصور فهمى واحد من عشرات من هؤلاء الذين خدعهم التغريب وألقى إليهم مفاهيم « الدين » على النحو الغربى فتأثروا به وساروا شوطا فى ظل هذه المفاهيم ثم استطاعوا بعد أن يتحرروا منها . والمعروف أن الدكتور منصور فهمى قد كنت أطروحته للدكتوراه[2] سنة ١٩١٣ فى باريس تحت إشراف عالم يهودى هو «ليفى بريل» . وكانت عن « حالة المرأة فى التقاليد الإسلامية وتطوراتها » وأنه أودعها آراء التغريب فى الإسلام والدين والرسول . ثم لم يلبث أن تحول عن هذه المفاهيم وتحرر عنها وهذه عبارته :

« عرضت لى الشكوك الدينية فى عهود الشباب ، أثناء إقامتى فى فرنسا لطلب العلم ، وقد نشأت هذه الشكوك نتيجة للتفكير وطلب الحقيقة ولم تكن على الطريقة التى يتظاهر بها بعض الأدعياء ، حينما يريدون أن يتخذوا سمت الفلاسفة والعباقرة من المفكرين والباحثين فيظنوا خطأ أن ذلك يستلزم الظهور بمظهر الشك والحيرة والطعن على المقررات والمعارضة للمألوف .

(١) منبر الشرق — ١٨ نيسان ١٩٣٩ .　　(٢) اقرأ البحث فى كتاب المعارك الأدبية .

وقد استمرت هذه الشكوك التى حيرتنى قرابة ثلاثة أعوام ، وكانت وسيلة إلى الإيمان ، وقنطرة إلى ثبات اليقين ، وبابا للسكون اللازم وقد انتهيت من شكى الدينى وحيرتى الروحية إلى نتيجة حاسمة واضحة ، هى أن القيم الرفيعة والأصول الأولى التى صقلتها الأزمان وارتقتها الأديان هى أولى الأمور وأحقها بأن تكون الدعائم القوية التى نعتمد عليها فى شتى مسالكنا خلال الحياة » .

* * *

ومن النظرة الشاملة يتبين : أن النظرة الغربية للدين إنما هى مرتبطة أساساً بالمسيحية الغربية وبالجذور العميقة للوثنية الإغريقية التى لم تتخلص منها أوربا وللنظرة العلمية المادية الخالصة التى تحولت إلى نظرة متحررة فى مجال الغرائز وإبراز حيوانية والإنسان وتعريته .

ولقد كان لنزعة الالحاد فى الفكر الغربى عواملها النابعة من روح العصر وطابع الحياة والفكر ، وقد زاد فى تعمقها الحربين العالميتين اللتين قاست منهما أوربا خلقيا واجتماعيا وروحيا لأحد له وهو مالم نعرفه فى العالم العربى الاسلامى على ذلك النحو .

ومن هنا يبدو أن حمل هذه المفاهيم ونقلها إلى فكرنا العربى الاسلامى ليس طبيعيا أساساً وأنه لم يجد مداخله الواقعية ، ذلك أن فكرنا العربى الاسلامى قد استطاع أن يقضى على الوثنية تماما ، ولأننا ما زلنا فى « أساس فكرنا» نؤمن بامتزاج الروح والمادة والقلب والعقل والدين والحياة وبذلك لا تقوم لدينا تلك الشبهات والشكوك ، ولا تتأثرنا روح القلق والضياع التى تتفشى فى الفكر الغربى .

ومن هنا يبدو ، أن « اقحام » قضية الدين وفق المفهوم الغربى إنما هى محاولة خطيرة تدفع إليها دعوة التغريب ونزعة الشعوبية وهما يسيران فى خط واحد ويستهدفان القضاء على المقومات الأساسية للفكر العربى الإسلامى .

وليس فكرنا العربى الإسلامى فى إصالته ينكر الحضارة ، ولا يخاصم الفكر الغربى ولا يغلق أبوابه أمام الفكر الإنسانى جملة بل على العكس من ذلك أنه ينفتح له ويأخذ منه ويدع ، ولا شك أن الحضارة الغربية قدمت للانسانية رفاهية وترقية وتنويرا لأحد له

وكذلك الفكر الانسانى فى جوانبه المشرقة اللامعة المضيئة حين قدم روائع خالدة فى عوالم الأدب والفن والاجتماع والنفس والاقتصاد ، ولكنها بالقياس إلى فكرنا لا تقبل كلية ولا نغرق فكرنا فيها تماما ، ولا نأخذها أخذا معمما . وإذا نقدت الحضارة فإنما ينقد إنحرافها عن رسالتها وانفصالها عن الهدف الإنسانى الدافع إلى التسامى بالإنسان وإبلاغه إنسانيته ، وإذا نقد الفكر الغربى فإنما ينقد من وجهة محاولة فرض وجهة نظره وتحويلنا إلى مفاهيمه للقيم فى ظل هدف النفوذ الغربى الطامع إلى السيطرة الاستعمارية باسم بديله «التغريب» وأعتقد أن من حق الفكر العربى أن يحافظ على مقوماته حتى لا يصبح شيئا غامضا مهوما مبهما لا هو بالفكر العربى الإسلامى ولا بالفكر الغربى ولا شك أن امتزاج الروحية والمادية والعقل والقلب فى فكرنا يجعل للدين مقامه ومداخله إلى مختلف عناصر الفكر وقضاياه على النحو الذى لا يجمد ولا يتحلل ، فنحن لسنا ماديين مادية صرفه ولا روحيين روحية خالصة ، وأن الاسلام فى فكرنا العربى يشمل الروحية والمادية معا ، ويعنى اتصال الإنسان بالله من ناحية وبالإنسانية من الناحية الأخرى .

وليس فى الإسلام كهانة ومن هنا فإن نظرية الدين وتاريخه وموقفه من الحضارة الغربية على النحو الذى عرفته المسيحية الغربية لا ينطبق على فكرنا العربى ولا على الإسلام الذى ليس دينا فقط ولكنه دين وحضارة وفكر . ومن ناحية أخرى فإن فكرنا يؤمن بنظرية الاقناع العقلى والبرهان ولا يفرض مفاهيمه بالعنف أو القوة ولا يحمل طابع التعصب أو النظرة الضيقة ويعارض الجمود ولا يرفض الحضارة ولا ثمرات الفكر الانسانى بل يأخذ فيها ويدع ويعيش فى مستوى الركب الانسانى صاعداً معه على الطريق . .

* * *

وفى هذا المجال نعرض لنزعة « العلمانية » التى يحاول الفكر الغربى فرضها على فكرنا العربى .

* إن العلمانية (secular) تعنى أساساً كلمة لادينى وقد حرص النفوذ الأجنبى على بثها فى مجال فكر الأمة العربية ، مرتبطة بالتطور والنهضة ، وبناء الحضارة ، غير أن يقظتنا العربية المصرية استطاعت أن تتحرر من هذا الاتجاه ، ولم تر فيه ضرورة ولا حاجة ، وقد أصرت بإيمان على أن تجعل الأديان والروحية عاموداً أساسياً من أعمدة بناء النهضة والحضارة ، ولم تر تعارضاً فى الجمع بين مقتضيات الحضارة وبين الروحية المستمدة من الأديان ورسالات السماء .

وبذلك فوتت على التغريب هدفه فى محاولة ربط الحضارة بالعلمانية . ومحاولة جعل تركيا مثلا لهذه التجربة ، ولقد أشار مستر جب إلى هذا المعنى من قبل حين قال «إن الفكر العربى الإسلامى لن ينفصل عن مقوماته الروحية كما فعلت تركيا» ولقد كان جوهر الإسلام ولا يزال قابلا للالتقاء بالفكر العصرى بل لعله لا يكون من المبالغة القول بأن مذاهب الديموقراطية والاشتراكية والقومية وهى مذاهب عصرية مستحدثة لها جذور بعيدة الأعماق فيه فهو يتقبلها من خلال ضميره بمفاهيمه ولا يرى فيها تعارضاً كما ترى بعض المذاهب الغربية فهى فى جذور فكرة تمثل الشورى والعدل الاجتماعى والتجمع الوطنى ومقاومة كل نفوذ أجنبى .

وهنا تبدو قدرة فكرنا العربى الإسلامى ومرونته فى تقبل هذه القيم الإنسانية والانفساح لها لأن لها مصادر مستمدة منه أساساً ، وإذا وقع الخلاف بين عالمنا العربى الاسلامى وبين العالم الغربى ، فإنما يقع فى مفهوم هذه القيم ، فنحن لا نأخذ مفهوم الغرب لهذه القيم أساساً ولكنا نستمد مفاهيمها من تراثنا وشخصيتنا وبيئتنا ونراعى فيها ظروف العصر والبيئة والتقدمية فى التطبيق .

* * *

وإذا كان الغرب قد اتخــذا مذهب العلمانية فإن مصدر ذلك راجع إلى ما احتاج إليه من تحرر من الدين فى رسم مناهج الإصلاح أو المذاهب الاجتماعية ، أما فى الفكر العربى الإسلامى فليست هناك ضرورة أو حاجة ملحة إلى (العلمانية **seculalar**) حيث يتسع الفكر العربى الاسلامى لتقبل كل إصلاح وتحقيق كل تطور دون أن تقوم أى معوقات أو قيود تحول دونه ، فهو مفكر مفتوح قادر على الحركة ، قادر على التلقى والمواجهة ، والأخذ والعطاء وقد مرن على ذلك منذ ألف وأربعمائة عام ، واجه فيها العديد من الحضارات والنهضات فأخذ منها وأعطى دون أن يجمد أو يتوقف أو يصطدم .

ولقد ارتبط قيام العلمانية فى الغرب بقيام الالحاد ومعاداة الفكرة الدينية ، ولذلك فنحن فى العالم العربى الاسلامى الذى يعتبر الدين ورسالات السماء والروحية جزءاً أساسياً من فكره ومفاهيمه لاتقبل العلمانية ولا نقرها ، بل يجد فكرنا أن الدين جزء من مقوماته الأساسية وعامل قوى من عوامل اليقظة والحرية .

وليس شك أن العلمانية قد ارتبطت فى الغرب بوطأة الكنيسة على حياة الفكر والمجتمع وتحالفهما مع قوى الاقطاع وسلطان الأمراء ، ومن هنا تدرجت العلمانية حتى أصبحت

فلسفة وعقيدة . أما فى العالم الاسلامى والأمة العربية فإنه لم يقع صدام بين النهضة والدين أو بين العصرية والفكر العربى الاسلامى وكان الاسلام قادراً دائماً على تقبل التطور والنهضة والتقدم والالتقاء بها ، فإذا قامت دعوات أو أوضاع دينية منحرفة لم تلبث دعوات الاصلاح أن تواجهها فتكشف انحرافها وتعيد الوعى إلى المفهوم الصحيح للاسلام الذى يتسم بالسماحة واليسر والتفتح للتجديد والتطور والعصرية والتقدمية والذى يبعد دائماً عن التعصب .

وإذا كان الاسلام قد اتسم بأنه دين وفكر وحضارة فإن روح الدين فيه وفى الأديان المنزلة تلتقى جميعا فى مفاهيم واضحة أساسية فى العلاقة بين الله والانسان وبين الناس فى المجتمع اتصلت خلال العصور ، وقد كان الشرق بيئة الأديان المنزلة وغير المنزلة .

وهى فى جوهرها الأصيل تنكر العنصرية وفوارق الجنس واللون ، وتدعو إلى المساواة وترفع قدر الانسان تحت حكم الله ، وتؤمن بالوحدانية والحرية والاخاء ، والدفاع عن الأرض ومقاومة الغاصب ، والسلام والسماحة مع كل العناصر البشرية وطابعها إنسانى عالمى أساسا .

وفى الرد على ما يقوله التغريب من أن تأخر العالم الاسلامى يرجع إلى إيمانه بالروحانيات وتمسكه بالدين ، نقول أن الفكر العربى الاسلامى أقام حضارة ضخمة ارتبطت فيها الروحيات بالماديات ، ولم تتعارض ، بل التقت وامتزجت ولم يكن جانبها الروحى السمح المستنير الذى لا يؤمن بالجمود أو الانحراف حائلا دون البناء الحضارى والتقدم فى مجال البحث العلمى فى مجال الفلك والطب والكيمياء والفيزياء . وقد حققت كثيراً من النتائج الايجابية ، وفى ضوء انتصارات الحضارة العربية الاسلامية فى ظل إيمانها بمقومات فكرها كانت الهزيمة والتدهور فى التخلف عن هذه المفاهيم وانفصال الروحية عن المادية وكان انهيار هذه الحضارة نتيجة لانصرافها عن التجدد والتطور وسيطرة الجمود والتقليد فكان جنوحها عن قيمها التى تربط الروح بالمادة معا والتى تبعد عن التعصب والانحراف معا هو مصدر تدهورها .

— ٣ —

التراث

واجه « التراث » العربى الاسلامى حملة ضارية استهدفت القضاء عليه كقوة فعالة فى بناء الفكر العربى الاسلامى وبوصفه ممثلا للجذور الممتدة لفكرنا الحاضر ، والواقع أن المقارنة قد جرت فى هذا المجال بالتراث الاغريقى والرومانى ووضعه بالنسبة للفكر الأوربى الحديث . ومن حيث أن التراث الاغريقى المرتبط باللغة اللاتينية قد انتهى وتوقف بعد تحول هذه اللغة التاريخية إلى اللغات الأوربية الحديثة ، فقد مضت الدعوة إلى اجراء المشابهة حيث لا مجال للمقاربة بالتراث الاغريقى الذى انفصل عن الفكر الغربى منذ سقوط الدولة الرومانية فى القرن الرابع الميلادى حتى بدأت النهضة فى القرن الخامس عشر . ومن هنا لم يكن هذا الفكر اليونانى والرومانى إلا تراثا انتقل جانب كبير منه إلى الفكر العربى الاسلامى ثم أعيد إلى الغرب عن طريق الحروب الصليبية أو الأندلس أو القسطنطينية مضافا إليه ما حققه الفكر العربى الاسلامى من تطوير واضافات وابداع .

فهنا يمكن حقا أن يقال أن هذا الفكر اليونانى والرومانى هو تراث بالنسبة للفكر الغربى فقد انقطع عنه ألف عام وتغير فى لغته ومضمونه ، فإذا جاء الغرب فاتخذه « فرشا » لفكره الحديث فإن كلمة « تراث » التى تعنى ترجمة كلمة **Legacy** تكون صحيحة حتما . أما بالنسبة للفكر العربى الاسلامى فإن الأمر يختلف كل الاختلاف .

ذلك أن « جذور » الفكر العربى الاسلامى ما تزال حية ممتدة متطورة فى مجال الدين واللغة والتاريخ والثقافة والتشريع والأدب ، هذه الجذور الممتدة المضطردة التطور والحركة لا يمكن أن توصف بأنها تراث **Legacy** على نفس مفهوم التراث اليونانى والرومانى بالنسبة للحضارة الغربية .

وأكبر مدعاة لنقض هذا الرأى بقاء اللغة العربية قائمة وهى أم جذور الفكر وحاملته ، فما تزال اللغة العربية التى كتب بها الفكر العربى الاسلامى قبل ألف وأربعمائة عام حية نابضة بالحياة متطورة مع الزمن خصبة قادرة على تقبل المصطلحات الحديثة .

وهى جذور ما تزال قائمة كالدعائم والأعمدة الضخمة تحمل البناء وتمتص من مختلف الثقافات الفارسية والهندية واليونانية والرومانية والغربية الحديثة دون أن تهدم دعائمها ، فهى تأخذ من هذه الثقافات وتدع ، وتحول ما تأخذ إلى كيانها بالهضم والتمثل ، دون أن تقع فى ازدواجية الفكر الغربى المعاصر الذى يقوم على أساس وثنية الإغريق ومسيحية الشرق هذه الأزدواجية التى انصهرت بعد فى المادية الداروينية .

أما جذور الفكر العربى الإسلامى فما تزال تتمثل فى وحدة تمتزج فيها هذه العناصر وتتلاقى كأجزاء الجسم الحى .

ولا ريب أن هذه الجذور أو المنابع ما تزال تتفاعل مع ثقافتنا وحياتنا ولما ينقطع تفاعلها وما من نظرية حديثة أو فكرة الأولها فى جذورها مصدر .

وإذا كان الفكر العربى المعاصر قد اتخذ له من الفكر اليونانى الرومانى تراثا وقاعدة أطلق عليها حركة الإحياء **rensanse** فأى قاعدة أو أساس يمكن أن يقام عليه بناء فكرنا العربى الإسلامى المعاصر إذا ما تخلينا عن جذورنا ومنابعنا .

وفى الوقت الذى يحمل التغريب والشعوبية — والشعوبية لها دور ضخم فى هذا المجال — لواء الدعوة إلى انكار التراث وحجب القديم نرى الفكر الغربى يواصل ارتباطه بالتراث اليونانى الرومانى بعد إنفصال ألف عام على نحو يكاد يبلغ درجة التقديس . حتى لقد دفع هذا الإيمان بعض المفكرين الغربيين إلى انكار فضل الفكر العربى الإسلامى والثقافات الشرقية القديمة على الفكر اليونانى وعدوا رحلة علمائهم وأدبائهم إلى المشرق ليست ذات صلة مطلقة بالاقتباس من الفكر الشرقى القديم مواريث بابل وأشوار والفراعنة .

وقد حاول « جوبدى » إثبات ذلك فى محاضرة مشهورا له ألقاها بالقاهره قال فيها :

إن رحلة علماء اليونان إلى الشرق لم يكن من أجل العلم ولم يكن للشرق أثر فى ثقافتهم ، وهو قول متعصب خال من الحقيقة .

وتجرى هذه المغالطة الضخمة بالرغم من إجماع المؤرخين والباحثين على اثبات فضل الفكر الشرقى على الفكر اليونانى .

ومن ناحية أخرى حرص الفكر الغربى فى عهد الرينسانس على تنقية ما ترجمه من الفكر العربى الإسلامى من طابعنا ، ومضى المؤرخون ينكرون فضل الفكر العربى الإسلامى جملة بل ويعتبرون هذه المرحلة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية إلى بدء حركة الاحياء والنهضة فى أول القرن الخامس عشر فترة العصور الوسطى المظلمة ، وهى جرأة وتعصب وكنود للفكر والحضارة العربية الاسلامية التى غمرت العالم كله ووصلت إلى مواطىء أقدام أوربا قرب باريس وروما وعند نهر اللوار .

وفى نفس الوقت الذى يقف الفكر الغربى من تراثه هذا الموقف ، فى احيائه والاتصال به — على مدى الانفصال الطبيعى خلال ألف عام — ومحاولة انكار كل فضل متصل به على غير نحو علمى منصف ، نجد الدعوة توجه إلينا لانكار تراثنا المتصل الحى المتفاعل الذى لم يمت ولم ينقطع ولم تسقط لغته فى هوة النسيان .

ونجدنا بروح الاخلاص والانصاف التى يتسم بها فكرنا لا ننكر الروافد التى اتصلت بفكرنا ونعترف بها ، ولا نرى بأسا من أن الاعتراف بأن الفكر العربى الاسلامى كان مفتوحا على الفكر الانسانى قادر على الامتصاص منه ، مستمدا من عصاراته ، ومحولها إياها إلى كيانه ، خالقا منها — على أساس من مقوماته الأصيلة — فكراً حيا ناميا .

* * *

وقد كانت حملات التغريب والشعوبية على التراث هادفة أساسا إلى حجب الماضى الذى يتمثل فى الدين والقرآن واللغة العربية والتاريخ باعتبارها الروابط الأساسية لوحدة الفكر العربى الاسلامى والضمان الأكيد الحائل دون تفتت الأمة وانصهارها فى الفكر الغربى ولما كان النفوذ الغربى حريصا على هدم هذه المقومات فقد إمتدت الدعوة إلى مقاومة التراث والماضى بحجة أنه قديم بال لم يعد يصلح للحياة .

فكان من رأى الدكتور زكى نجيب محمود أن رجوعنا إلى الثقافة العربية القديمة هو أشبه شىء « بالوباء يصيب نهوضنا الفكرى الذى لم يستقم بعد على قدميه ، وربما أحدث هذا الوباء فى عقولنا من الضرر ما قد يستحيل بعد اليوم زوال أثره والنجاة من شره . وليت الأمر فى ضرره يقف عند حد انعدام نفعه ، بل أنه ليعيد لنا جواً فكريا قد يضطرنا اضطراراً إلى تنفس هوائه حتى تمتلىء به رئاتنا وصدورنا فنكون عندئذ بمثابة من يعود بالزمان القهرى . ماذا يريد بنا هؤلاء الناس الدين يلوون وجوهنا وعيوننا إلى الوراء . . »

أما سلامه موسى فيرى « أن ماضيا كله سخافات وجهالات لا يصح الافتخار به » .

أما حسين فوزى فيرى « أن الثقافة العربية ماتت عقب القرون الوسطى وذهب غبارها مع الثقافات الأخرى التى عرفت أوربا بين أغلال الامبراطورية الرومانية وعصر الرنيسانس ولا قيمة للثقافة العربية أكثر من أنها لعبت دور انتقال فى العصور الوسطى فكانت مستورداً لبعض مظاهر تفكير اليونان فيما قبل عصر أحياء العلوم . وقد كانت حلقة اتصال بسيطة بين اليونان وعصر البرينسانس وقد انطفأ نورها كما ينطفىء السراج الذى نضب زينه واحرقت ذبالته وانكسر إناؤها وعلى جميع الأمم التى تتكلم العربية أن تنصرف عن هذه الثقافة فلا نضيع وقتنا فى نبش قبور لن نجد فيها حتى ولا عظاما متماسكه وكانت وإلى التراب تعود » .

وليس فى هذا الكلام كله رأى علمى ، وإنما هو مشاعر عاطفية تحمل طابع الشجب والانتقاص والكراهية التى انتفعت بها الشعوبية ورددت صداها .

فما أعرف كاتبا غربيا مهما بلغ به إنكاره للتراث هاجم التراث الغربى على هذا النحو ، بل أن كاتبا من كتاب الغرب المبغضيين لم يهاجم التراث العربى الاسلامى على هذا النحو .

وإذا كان علينا أن نعرض اتجاه الذين جحدوا التراث العربى الإسلامى على مفاهيم الغرب للتراث نفسه فاننا نجد تناقضاً واضحاً ، إذ بينما نرى الدكتور عبد الرحمن بدوى يقول « إن التراث اليونانى عامل لا يزال يحيا بكل قواه فى الحضارة الغربية » .

ونرى كوستاس اكسيلوس فى دراسته المطولة عن مفهوم «التراث» يقول أن التراث «يبقى ويستمر عندما تتوافر منه عنصر انطلاقة أصيلة . إنه يسوسنا حتى عند ماندير له ظهرنا وأن ذكره مرتبط بفاتحة تواصل الماضى إلى المستقبل . ذلك أن المستقبل سيلحق يوما بالماضى ، لأن الحاضر ليس إلا جسراً معلقا بين الماضى والمستقبل وأن هذه التراثات قوى فعلية حيه رهيبة مضيئة ومظلمة ونتائجها تمضى بعيدا أبعد من القرر والمراد ، وأن ما يسمى تراثات إنما يصوغ فى وقت واحد الكائنات والأشياء » .

ويصور الدكتور طه حسين حاضر الفكر الغربى بعد الثورة الفرنسية التى تعد حدثا جذريا ضخما فى هدى وارتباط بالماضى فيقول «قد ظن أصحابها أنهم قطعوا كل سبب بين نظامهم القديم ونظامهم الجديد وأنهم استأنفوا حياة لم تعهدها أمتهم من قبل ، فلما سكت عنهم عنف الثورة وانتهوا إلى الإستقرار وإلى التفكير الهادىء المطمئن تبينوا أنهم قد غيروا ولم يرتجلوا ، وأنهم قد وصلوا القديم بالحديث ، وكان حظهم من الابتكار والإرتجال أقل جدا من حظهم من استيفاء القديم ووصل أسباب الماضى بالحاضر والمستقبل » .

والغربيون نفسهم يفهمون من التراث مانفهم ، وليس مايفهم دعاة التغريب فهذه سيمون وايل تكتب عن الحاجة إلى الجذور (The neab to roots) .

تقول أن للتراث الماضى فى عنق الحاضر مسئوليه قدسيه ، فإذا انهدم الماضى فإن عودته ضرب من المحال ، ومن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ماورثوه عن أسلافهم من تراث ، فما علينا إلا أن نجعل همنا الأكبر الاحتفاظ الذى يبقى لنا من تراث الماضى .

هذه الجذور ليست نزعة عاطفية معناها الرجعية والجمود ، وإنما هى غريزة روحية تكمن فى نفوسنا جميعا . وفى الثورة على الماضى دعوة إلى القطيعة بين الجذور والأغصان » .

وفى الثقافة الهندية نرى وجهة النظر فى التراث واضحة فى عبارة « نهرو » الذى يقول : لقد ولينا وجهنا وجهتين : إلى الأمام نحو المستقبل وإلى الخلف نحو الماضى ، بينما تجاوبنا كل منهما ناحيته ويشدنا نحوه ، فكيف إذن نستطيع أن نوفق بين هذا الصراع ونخرج من ذلك بأسلوب من الحياة يحقق حاجاتنا المادية وفى الوقت نفسه يشبع عقولنا ونفوسنا ،

إن علينا أن نتطلع إلى المستقبل وأن نعمل له جاهدين عن قصد يحدونا الإيمان القوى وأن نحتفظ فى الوقت عينه بتراثنا الماضى ماثلا أمامنا لكى نستمد منه القوة والعزيمة .

وأن التغيير أمر لا بد منه ولكن استمرار الحياة من غير اضطراب أو تقطع أمر لا يقل عن ذلك أهمية ، وخير مستقبل هو ما كان قائما على الحاضر والماضى على السواء . أما أن ننكر الماضى وننزع أنفسنا منه فمعناه اقتلاع أنفسنا اقتلاعا من تربتنا فنخرج منها وقد ييبس عودنا وجف مافيه من عصارة الحياة الحقة[1] » .

وفى نفس الوقت الذى يرتفع الصوت من داخلنا ومن كتابنا فى الدعوة إلى حجب التراث وإنكار الماضى كله . نرى كتاب الغرب يؤكدون أننا لن نفعل ذلك ولن نستجب له .

يقول « كامفاير » : لن ينفصل العرب عن الماضى المجيد ، ليس من الممكن أن يحدث فى العالم العربى شىء يشبه ما حدث فى تركيا . وسيكون استعادة هذا الماضى وتجديد الحديث عنه هو أحد العوامل القوية فى حركه البعث الوطنى والدينى ، أن حركة بعث الإسلام لا تمكن أن تنقطع أو تتوقف لأن الناس فى حاجة إليها فهى إحدى مقومات نهضتهم الوطنيــة .

ويقول « جاك بارك » : أن مستقبل العرب يتمثل فى إحياء الماضى لأن المستقبل هو فى كثير من الحالات المـاضى الحى أو المـاضى الذى وقع أحياؤه وعيشه من جديد .

ويقول « جب » ليس فى وسع العرب أن يتحرروا من ماضيهم الحافل كما تجرد الأتراك وسيظل الإسلام أهم صفحة فى هذا السجل الماضى إلى درجة لا تمكن أن ينفصل عنها الساعون إلى إنشاء مثل عربية عليا .

ويقول بلاشير : كما أن للشعوب الغربية الاحتفاظ بتراث أجدادها القدامى ، كذلك للشعوب العربية الاحتفاظ بتراثها الأصيل وعليها أن تدرك أن كل تراث ثقافى يتضمن امكانيات التطور[2] .

---

(١) الهند : اليوم وغدا لنهرو .
(٢) مجلة الآداب (١٩٥٦) .

ومهما كان لهؤلاء الباحثين من رأى فى الفكر العربى الاسلامى فإن مفاهيمهم هــذه تتعارض تماما مع ما يتهم به التراث العربى الاسلامى من نقص فى الايجابية أو الحيوية أو الارتباط بالحافز .

* * *

ومع هذا الرأى الذى أبداه مستشرقون غربيون ، فان حركة التغريب التى يقودها النفوذ الأجنبى كانت وراء الحملة على التراث . وعندما أخذت حركة إحياء التراث تبرز كعمل إيجابى وكقوة مقاومة للتحدى ورد فعل له فى الثلاثينات ، تدخل كتاب لهم نفوذ ، وخصومه سابقة للتراث ، فهاجموا الأعمال التى بدأت وفرضوا أساليبهم ومناهجهم ، وظن بعض السذج والبسطاء أنهم عادوا إلى الحق ، وأنهم آمنوا بأمتهم وفكرها . والواقع أن ليس كذلك وإنهم إنما حملو أساليب التغريب ومفاهيمه لقيموا عليها أحياء التراث وليستغلوا هذا التراث فى خدمة أهدافهم ، سواء كانت مقاومة الشيوعية أو تاييد الديمقراطية الغربية أو مؤازرة الحلفاء فى الحرب. وبذلك جرت محاولة استغلال التراث لخدمة اهواء النفوذ الغربى. فضلا عن أن الأساليب التى اصطنعت لم تكن خالصة لوجه العلم ، وكانت ذات هدف واضح فى ابراز جوانب معينة .

(١) تغليب الاسطورة على السيرة .

(٢) تاكيد بعض الاتهامات الموجهة للرسول وتاريخه واعطائها صورة البطولة .

(٣) محاولة ابراز مفهوم خاطىء بان عظمة أعلام الإسلام مستمده من شخصياتهم أصلا ومن بيئاتهم قبل بزوغ الإسلام وليست مستمده من أثر الإسلام الذى كان نقطة تحول فى بناء الشخصية العربية وغير العربية وتربيتها .

والمعروف أن حركة الاستشراق التى سارت فى فلك الإستعمار النفوذ الأجنبى كانت قد أولت اهتماما كبيرا للتراث العربى الإسلامى واستطاعت أن تحصل على كميات ضخمة من مخطوطاته أودعتها مكاتبها فى باريس ولندن وغيرها . وانها حاولت أن تروج لجوانب معينة من هذا التراث وتغفل جانبا آخر كأن تهتم بنشر التافه والملىء بالاضطراب أو الشعوبيات .

وكان المستشرقون الذين استقبلوا بعثاتنا قد رسموا فعلا خطة واضحة لمفاهيمهم

فى التراث العربى الإسلامى والفكر العربى الإسلامى فقد أقاموا فروضهم أساساً ثم التمسوا لها الأسانيد من نصوص مبتورة أو روايات مضطربة أو بعض ما أورده خصوم العرب و الإسلام والحاقدين عليه من دعاة المانوية أو البابكية أو الخزمية . . من عشرات الفرق التى كانت تكيد للاسلام والعرب .

ومن هنا فقد فرض هؤلاء المستشرقون آرائهم فرضا، وأمامى أكثر من دليل على أن الرسائل التى كتبها منصور فهمى وطه حسين وزكى مبارك قد حملت مفاهيم المستشرقين، ثم انتقلت هذه المفاهيم مع الرواد الأول إلى الجامعات فى العالم العربى والإسلامى فمضت فى نفس الطريق حينا طويلا . وكان من أقسى الأعمال أن يحاول مبعوث الخروج من هذا النفوذ المفروض والاتجاه المرسوم بان يقول رأيا مخالفا وقد لقى زكى مبارك وضياء الريس عنتاً كبيراً نتيجة لمقاومة اتجاهات المستشرقين وكانت الخطوط الرئيسية فى هذا هى :

إن الفلسفة الإسلامية والفكر العربى الإسلامى كله مستمد من الفلسفة اليونانية . وإن الشريعة الإسلامية مستمدة من الشريعة الرومانية . وأن القرآن من نظم محمد ، وإن الإسلام جماع من الأديان السابقة له ، إن النبى محمد كان ذا رجوله خارقة وهذا سر تعدد زوجاته وإن العرب قبل الإسلام ، كانوا امه ذات بلاغة وبطولة وإن بطولات النبى وعمر وعلى مستمدة من البيئة العربية وليس من الإسلام نفسه . وقد انصهرت هذه المفاهيم الخاطئة فى معظم الدراسات وكما أقيم إحياء التراث العربى الإسلامى فى ضوئها وعلى خططها .

فكان الاهتمام الضخم بأبى نواس وبشار من الشعراء وبالمنحرفين فى الصوفية كالسهروردى وابن عربى والحلاج وكان من أوائل كتب احياء التراث التى طبعت الأغانى وألف ليلة وترجمات عمر الخيام .

ولم يتوقف المستشرقون عن قذف التراث العربى الاسلامى بعشرات النظريات والآراء المدمرة منها نظرية انتحال الشعر الجاهلى ، والشك فى الكتب المقدسة ، وفصل الأدب عن الدين . أما الشخصيات الضخمة فى تاريخنا فقد وجهت اليها الاتهامات ، المتنبى لقيط ولا أب له ، ابن خلدون محترف .

ثم جرت الدعوة إلى اتخاذ الفلكلور وسيلة يستغلها التغريب لمحاولة القضاء على الجوانب

الايجابية فى التراث تحت ضغط ابراز جوانب معينة واعطائها أكثر مما تستحق من الاهتمام إذا عرضت فى اطار التراث كله .

ولا شك أن أحياء التراث العربى الاسلامى من أخطر الأعمال التى تواجه حركة التغريب لأنها ترد المثقفين إلى جذورهم وتكشف لهم عن مقومات فكرهم ، وتعطيهم زاداً فكريا وروحيا لا حــــد لقوته وأثره ، ودوافعه فى الإيمان بالشخصية العربية الإسلامية والثقة بها .

ولذلك فهو لا يألوا جهداً فى إغراق السوق بالتافه والمضطرب والشعوبى من المخطوطات ليؤكد نظرة معينة إلى التراث ، ثم هم يفرضون نظريتهم المستمدة من مفاهيمهم للفكر الغربى الوثنى المادى — على تحقيق التراث ، ومن هنا يبدو قصور التحقيق العلمى للتراث .

وليس فى هذا تجن أو مبالغة فإن الغربيين فى مختلف أبحاثهم عن التراث يعلنون أن تراثهم يمد وجودهم بالعلمانيـــة والإلحاد وأن التراث الهلينى قد أخصب التراث اليهودى المسيحى .

* * *

وإذا كان هذا التيار قد تعمق فعلا ، وانحرف فى إحياء التراث فإن جهوداً ضخمة لتحريره وحمايته قد بذلها رجال صادقون لأمتهم وتراثها لا يمكن أن تنسى ، ولا أن تضيع ، وقد كانت حتما فى العقد الثالث من هذا القرن تمثل تياراً منصفاً سار فيه أحمد زكى وأحمد تيمور وطاهر الجزائرى ومحب الدين الخطيب ثم من بعدهم وعبد الله كنون وإبراهيم الإبيارى وأبو الفضل إبراهيم وعبد السلام هارون ومحمد الفاسى ومصطفى جواد .

وكان الدعاة إلى إحياء تراثنا العــــربى الإسلامى أساساً من اتباع حركات الاجتهاد والتجديد وكان أغلبهم قد تعلموا فى أوربا — أمثال عبد العزيز شاويش وعلى مظهر ويحيى الدرديرى ولم يكن هذا الجيل خاضعاً للمستشرقين بل على العكس موجهاً لهم ، وحملات عبد العزيز جاويش على المستشرقين فى مؤتمرهم عام ١٩٠٥ مشهورة وقد حملت بعض المتعصبين من كتابهم على التراجع عن آرائه . أما زكى باشا وتيمور باشا فقد كان المستشرقون يقفون منهما موقف

التلاميـذ ، وقد عرف زكى باشا بمعارضته وحملاته الضخمة على أخطاء المستشرقين وانحرافاتهم .

غير أن هذا الرعيل الذى يتمثل فيه الإيمان بالتراث العربى الإسلامى وفهمه وفق مقوماتنا قد ضاع إزاء الجيل الضخم الجديد من أتباع المستشرقين ولا أقول تلاميذهم، هؤلاء الذين تصدوا لإحياء التراث وفق مفاهيم التغريب ، هذه المفاهيم التى بناها المستشرقون منذ وقت طويل فى ظل اهتمامهم البالغ بجمع التراث منذ وقت باكر . ويروى كرد على فى كتابه « خطط الشام » أن فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولندا وروسيا أخذت تجمع منذ القرن السابع عشر مخطوطات عربية عن مختلف البلاد التى تبتاعها بواسطة وكلائها وقناصلها الأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وقد باع خدم المساجد الأوراق الصفراء التى كانت تضمها خزائن المساجد ، وروى الفيكونت دى طرازى فى كتاب « خزائن الكتب العربية » أن خادماً يدعى ابن السليمانى عين فى حوالى منتصف القرن الماضى حارساً لثلاث مكتبات كبرى فى مساجد القاهرة . وكان الرجل يستعين على رزقه ببيع عيدان قصب السكر ، وكان يقيم فى زاوية تحت سلم مسجد السلطان حسن ويضع بجانب بضاعته من القصب ألواحاً من مخطوطات المساجد الثلاثة يبيع منها لمن يدفع » .

هكذا أولى الغربيون هذا التراث، اهتماماً استهدف محاولتهم إخفاء جانب منه أو تحريف تفسيره أو استغلاله على نحو من الإنحاء فى مخطط التغريب وخدمة النفوذ الغربى ، ورسم خطط مقاومة آثاره أو مقاومة إحيائه على النحو الصحيح .

وتبدو المناقضة واضحة : إنه فى نفس الوقت الذى يدعونا التغريب إلى إهمال التراث يهتم به ويبذل من أجل الحصول عليه وتحليله وإعادة طبعه ونشره جهداً كبيراً ، وبينما تدعو الشعوبية إلى رفض التراث العربى الإسلامى جملة والحملة عليه ، فهى تولى اهتمامها التراث الفرعونى والفينقى والآشورى والبابلى وكل ما قبل الإسلام . وفى هذه الحملة مغالطتين : أولا أن الغـرب الذى يستظل به هؤلاء ، ويؤمنون بولائه قد آمن بتراثه وأحيـاه وأطلق على عصر نهضته « الرينسانس » أى الإحياء . والأخـرى أن أعلام المستشرقين فى الغـرب يعملون فى مجال إحيـاء التراث العربى الإسلامى ، ومع ذلك فإن دعاة التغريب والشعوبية

يصفقون لهم . وفى هذا المعنى تقول الدكتورة بنت الشاطىء : « إذا اشتغلنا نحن العرب بتراثنا ، اتهمنا بالرجعية ، ووصمنا بالتأخر ، وشبهنا بالهيـا كل الخربة ، وإذا اشتغل بها أمثال : مرجليوت وجب وماسنيون وبروفنسال وكانياتى وكراتشكوفشكى وشاخت ؛ فهم علماء أفذاذ» . وعلى نفس النسق نرى دعاة التغريب يرون أن اهتمامنا بالتراث العربى والإسلامى عملا مرفوضاً ، بينما إذا اهتممنا بتراث الإغريق أو بتراث العرب قبل الإسلام ، كان هذا العمل بالغ التقدير فى نظرهم .

وحين يزعجهم تجديد التراث العربى الإسلامى وإحيائه ، لا يزعجهم أن يعود اليهود إلى إحياء اللغة العبرية التى ماتت منذ ألف عام .

وهناك ظاهرة بالغة الأهمية فى هذه التبعيـة فى فهم التراث أو التأثر به ، فإن كتابنا لم يكتبوا عن محمد ولا الإسلام بإنصاف ، إلا بعد أن سبقهم إلى ذلك أمثال جوستاف لوبون وأميل درمنجم . وأن تأثرهم بهذه الكتابات المنصفة إنما كان جرياً على اتجاههم فى التبعية ثم لم يلبث هذا المجرى أن تحرر حين سار فيه الجيل الذى تابعهم .

وفى مجال التأليف عن التراث ، بدت نزعة التأثر بنظـرة المستشرقين واضحة فى أمثال « تاريخ التمدن الإسلامى لجورجى زيدان » و « تاريخ العرب لفيليب متى » و « فجر الإسلام لأحمد أمين » و « الأدب الجاهلى لطه حسين » و « النثر الفنى لزكى مبارك » .

وفى كثير من إنتاج العالم العربى والإسلامى نماذج مماثلة لهـذا ، فعظمة الفردوسى مثلا ترد إلى وطنه الفارسى ، لا إلى ثقافته الإسلامية . وحيث نرى محاولة إعلاء التراث الإقليمى الخالص وتصفيته من التراث العربى الإسلامى كدعوة أميل خورى حرب فى لبنان أو التخلص من الحروف العربية والكلمات العربية كما فعلت تركيا .

وقد استطاع المستشرقون فى حوالى الخمسين عاما الماضية أن يقدموا دراسات متعددة فى مختلف مجالات التراث العربى الإسلامى ، التاريخية والأدبية والفلسفية والصوفية ، فرضوا فيها شكوكهم وأهواءهم ودعوتهم التغريبية فى دقة بالغة من خلال البحث العلمى ، حتى أصبح الآن ، وليس فى وسع الباحث العربى أو الإسلامى ــ مع الأسف ــ إلا أن يأخذ بها كالمسلمات دون أن يتحفظ أو يفطن لما فيها من سموم وانحرافات . وإننا نرى الآن أغلب كتابنا ، وقد

أصبحوا يعتمدون اعتماداً كاملا على دوائر المعارف الإسلامية والبريطانية والفرنسية فى كل ما يتصل بأمر ثقافتهم وتراثهم ويجدون أنه من الأسهل اليسير أن ينقلوا هذه النصوص ويبنوا عليها كتاباتهم ، وبذلك يسايروا أخطاء المستشرقين ، ومغالطات دعاة التغريب ، ويعمقوا آراءهم ويذيعونها ، وقل منهم من يراجع هذه الآراء ويمحصها ، أو يرى وجهة نظره من خلال مفاهيمه للفكر العربى الإسلامى وفى ظل الكسل العقلى فى العالم الإسلامى ويواصل المستشرقون أبحاثهم فى هذا الصدد ويوالونها ، وقد أعادوا طبع دائرة المعارف الإسلامية ، التى ما زلنا نواصل ترجمة طبعتها الأولى منذ عام ١٩٣٢ ولما ننته بعد منها ، على ما هى مليئة به من الانحرافات والأخطاء وأفكار التعصب .

وتلك صورة بشعة غاية البشاعة ، أن يعتمد الفكر العربى الإسلامى ودعاته على مراجع المستشرقين وآرائهم ونحن نعرف فى تأكيد أنهم يخطئون مرتين : مرة بالقصور الذاتى فى فهم الفكر الإسلامى ، ومرة بالتعصب وموالاة النفوذ الأجنبى . ونضيف إلى هذا دسائس اليهودية العالمية ، التى تحاول أن تثبت أن لها حقاً تاريخياً فى فلسطين ، أو تضيف تحريفات مقصودة لبعض جوانب التاريخ والفكر . كما أولى المستشرقون اهتماماً كبيراً للشرق وبلاد العرب قبيل الإسلام ، ودراسة الحركات المنحرفة من داخل تاريخ الإسلام وفكره ، والاهتمام بها ، وإبراز الخطوط العامة للفكر الشعوبى ، الذى هاجم مقومات الفكر الإسلامى ، واعتباره حقائق أساسية . من خلال هذه الملاحظات يجب أن تكون نظرتنا إلى التراث العربى الإسلامى فنحتاط تماماً فى الاعتماد على كتابات التغريب والشعوبية من ناحية ، ونعيد النظر فى تراثنا من ناحية أخرى . فنحن أساساً لا نرفض تراثنا ، ولا نعتقد أن ذلك ممكناً ، فليس هناك قوة مهما بلغت ، تستطيع أن تنتزع أمة من جذورها وروابطها وقيمها الأساسية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فليس معنى « تقدير » التراث هو قبوله دون تحقيق علمى دقيق ، وليس معنى قبوله وفحصه ، هو إعادة تمثله أو تطبيقه . وعلينا أن تكون نظرتنا إلى التراث أصيلة مستمدة من مفاهيمنا ، فلا نعتمد على وجهة نظر الفكر الغربى ، الذى تختلف مقوماته عن مقومات فكرنا ، ولا على مخطط الاستشراق والتغريب والشعوبية ، الذى لا يؤمن بأمتنا أو فكرها أساساً . ولا شك فى ضرورة النظرة إلى التراث فى هذه المرحلة من حياتنا الفكرية ، فهى بمثابة شهادة الميلاد لنا ، والضوء الكاشف الذى نأمن فى ظله العثار ، ففى تراثنا ، مقومات

فكرنا الأساسية الحية المستمرة الممتدة التى لم تمت ، ولم تتحول إلى المتحف ، ولم تنفصل عن تاريخنا . وليس تراثنا ميت يحيا ، ولو كان كذلك ما كان هناك من ضير ، فقد أحيا الأوربيون تراث اليونان والرومان بعد أن قبر ألفى سنة ، وكذلك أحيا اليهود لسانهم العبرى وبعثوا فكرهم بعد ألف عام ويزيد ، إن طاقة التراث الحى تعطى ولا تنقص ، وكل قول يوجه إلى هدمها أو البعض منها هو لون من الشعوبية والتغريب . ونظرية إحياء التراث وتمثله ، تهدف أساساً إلى الربط بين الماضى الحاضر من ناحية ، والاندفاع إلى الإيجابية من ناحية أخرى ، وهى دعوة للاستيحاء لا للتقليد ، وللتكملة لا للتكرار ، وفى تقدير كثير من المؤرخين أن النهضة لا تنجح إلا إذا قامت على التراث وارتبطت بالجذور . ومعنى هذا أن يظل فكرنا نابعاً من قيمنا الأساسية ، مرتبط بماضينا .

وكل ما تدعونا اليقظة إليه هو تحرير هذا التراث ، مما علق به من الشوائب على نحو قوامه الإيمان بفكرنا وأمتنا ، وعلى أساس الجرح والتعديل ، ومعرفة الجوهر من العرض ويقوم هذا العمل على أساس أن فكرنا مزيج من الروح والمادة والدين والحياة وأنه لا ينفصل بينهما ، وعلى ألا تتخذ ظروف دين أو فكر أو تراث آخر أداة لتطبيقها على فكرنا العربى الإسلامى . أن نظرتنا إلى الحياة تنبع من تاريخنا وفكرنا وتراثنا وليس تراثنا روحيا فقط كما يحاول البعض أن يقول ، وليس عقيما وإنما هو حى متطور ، وقادر على أن يمدنا بالحيوية والحركة ، وإذا كان الفكر الغربى قد عنى بأساطيره وخرافاته فنحن أحق بأن تعنى بحقائقنا وقيمنا . وليس صحيحا على الإطلاق أن الأخذ بأسباب الحضارة يتطلب هدم التراث . وليس معنى فتح النوافذ للثقافات والأفكار أن نرى النور بأعين غيرنا .

وفى هذا المجال يمكن القول بأن نهضتنا قد أولت التراث اهتماما ضخما فقد أخذ يعمق طريقه ويحدث أثره فى بعث الإصالة والضياء .

التاريخ

مازال « التاريخ العربي الإسلامي » يمثل قطاعا خطيرا من مقومات فكرنا وأسسه التي طالما واجهت عواصف التغريب وحملات الغزو التي عملت على تحويلها عن قيمها ولبابها ، ولقد كان تاريخنا ولا يزال عاملا هاما في بناء ثقافتنا وخلق وحدة الفكر وتعميقها ، وهو في هذه المرحلة التي نمر بها اليوم - مرحلة ما بعد انتهاء الاحتلال للعالم العربي وبناء نهضته التي تزعج النفوذ الأجنبي على النحو الذي يتمثل فيه القضاء عليه مما دعاه إلى تعميق الغزو الفكري وتوسيع نطاق التغريب والشعوبية - ولا شك كان التاريخ عاملا هاما في بناء الفكر العربي الإسلامي وأداة من أدوات دفع هذه الأمة إلى الحياة والقوة والتطور .

ولقد كانت حملة التشكيك الضخمة التي وجهت للتاريخ العربي الإسلامي . خلال مائة عام مضت عاملا بعيد المدى في هبوط روح الإيمان بقدرتنا على إحراز مكاننا الحق في الحياة الإنسانية . فقد وجهت إلى تاريخنا سهام النقد وفرضت نظريات مريبة تحاول هدمه وإثارة الشبهات في بعض موافقة من أجل صرف الأنظار عنه ، أو خلق نظرة من الريبة والكراهية والتنفير منه . بينما غلت الدعوة إلى الاهتمام بالتاريخ الغربي والتوسع فيه وتقديمه في صور رائعة مغرية ، وقد أتاحت دعوة التغريب للعالم الإسلامي أن تقدم له عشرات الأبحاث والدراسات في تاريخ فرنسا وانجلترا وهولندا وعمت الصحف العربية والإسلامية في حملة متصلة لا تتوقف في دراسات متصلة لأعلام الوطنية والسياسة والفكر والاجتماع في الغرب ، تحمل في تضاعيفها التقدير والإعجاب والتحليل لحياة هؤلاء وآرائهم وأعمالهم على نحو يدعو إلى الاكبار والإجلال ، بينما لم يجد أعلامنا وأبطالنا ولا مواقفنا الخالدة ولا بطولاتنا مثل ذلك ، ولا أمكن أن يتفرغ لها كتابنا الذين أهمهم نابليون وبسمارك وتشرشل ووشنطون وماركس وفرويد .

بل أن الثورة الفرنسية لو أحصى ما كتب عنها في الصحف المصرية في خلال نصف قرن لزاد عما كتب عن الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ ولو أحصى ما كتب عن نابليون لزاد عما كتب عن مصطفى كامل ومحمد فريد .

أما فى الجزائر والمغرب وتونس فإن الموقف يكون أشد عنفا ، فقد حيل بين هذه الأجزاء من الوطن العربى أن تتصل بالتاريخ العربى الإسلامى ولقد اتصلت دعوات التاريخ وتعمقت لدراسة العصور الأولى ، فحرص النفوذ الأجنبى فى العالم العربى على دراسة الفرعونية والبابلية والأشورية وحضارة الرومان واليونان وتاريخهما ثم حضارة الغرب منذ أول عهد النهضة وثورات انجلترا وفرنسا وأمريكا . ولسنا نعارض فى دراسة حضارات العالم أو تاريخ البشرية فذلك مصدر من مصادر الثقافة لا حد له ، ولكننا ننظر إلى الهدف منه ، حين يصادر تاريخ الأمة العربية والدولة الإسلامية ويجدد أو يحرف أو ينظر إليه إلا من خلال تاريخ الملوك والصراع بين الأمراء والحكام ، وفق مخطط يستهدف المقارنة التى تفضى إلى احتقار تاريخنا والإعجاب بتاريخ الأمم الغالية المسيطرة الحاكمة ، ومن هنا تنشأ روح الموالاة للغاصب والسير فى ركابه ، والأغضاء والنفرة من تاريخنا وأمجادنا التى لا تبدو فى نظر الأجيال إلا صورة من الصراع والخصومة والمواقف المشتبهة أو الغامضة .

وليس شك أن فى تاريخ كل لغة ودولة مواقف نقص وقصور ولكنها فى مجالها لا تستطيع أن تقضى على عظمة هذا التاريخ ومكانته ودوره وأثره فى المدينة الإنسانية والحضارة البشرية .

* * *

وقد واجه « التاريخ » العربى الإسلامى محاولة ضخمة ذات شقين للقضاء عليه أو التشكيك فيه (الأولى) وجهت إلى منهجه . و (الثانية) وجهت إلى مضمونه .

فقد هاجمت الحملة أسلوب كتابته وعمدت الثانية إلى التشكيك فى بطولاته ومقوماته . وذلك بإبراز الروايات الضعيفة وإذاعتها ، أو اختيار مواقف معينة أو شخصيات ذات طابع خاص لدراسة التاريخ العربى الإسلامى من خلالها أو إتخاذها نموذجا له .

وقد اعتمد الغربيون من المستشرقين فى هذا على كتابات قديمة ومؤلفات كتبها من قبل قدماء الشعوبيين فى حملتهم الضارية على العربية والإسلام وكانت قد قوبلت بردود علمية ومسنده من كتاب ومفكرين لهم خطرهم ومكانهم شارك فيها الجاحظ وأبو حيان التوحيدى وغيرهم .

ومن مقدمة ما اعتمد عليه دعاة التغريب فى محاولة تصوير تاريخنا العربى الإسلامى تلك الكتب التى لم تؤلف للتاريخ والتى تناولت الشعراء والقصاصين ومجالس الشراب واللهو ، وفى مقدمتها « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى وألف ليلة ورباعيات الخيام وتراجم السهروردى وابن عربى وابن الراوندى وما نسب إلى المعرى وأبو نواس وبشار ابن برد والضحاك ومن خلال هذه النصوص حاول بعضهم تصوير العصر بصورة الشك والمجون على النحو الذى نقله طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء .

وفى الجانب الآخر وجه الهجوم العنيف إلى كل من كان ذا فضل أو عبقرية فى التاريخ العربى الإسلامى كالمتنبى الذى وصف بأنه من غير أب ، وابن الرومى الذى وصفت عقليته بأنها فارسية والمعرى الذى نسبت رسالته الغفران إلى الرهبان أو ابن خلدون الذى وصف بأنه تلميذ اليونان .

هذا فضلا عما أضيف إلى تاريخنا العربى الإسلامى من إسرائيليات وأقاصيص وأكاذيب فقد كتب أغلبه فى ظل الدولة العباسية التى كانت فارسية النزعة ذات سيطرة على فكرها وكتابها ، وكانت تحمل البغض للامويين والعرب ، وقد غلب الشعوبيون على كتاباتها ولفقوا الأحداث والأقاصيص ، وكثير من الكتاب والمؤرخين قد اتصلوا بالأمراء والملوك والولاه والخلفاء ، وكان بعضهم فى ظل هذا المذهب أو ذاك من مذاهب الفكر التى كانت فى حقيقتها أحزاب سياسية كالمانوية والبابكية والخزمية وغلاة الشيمة واتباع الشعوبية وقد كان أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى من أقذع الناس لسانا يخشاه الأمراء ويرد موائدهم بملابسه القذرة ورائحته النتنه فلا يستطيعون رده أو مخاصمته خوفا من لسانه وقلمه ، وكان إلى ذلك شعوبيا ومتهماً فى عرضه وخلته وعقله، ومع ذلك يصبح كتابه الأغانى مرجعاً يحرص المستشرقون واتباعهم على أن يكون مصدراً تاريخياً من مصادر الحكم على القرن الثانى والثالث فيوصف بأنه عصر فسق ومجون ، ويتخذ من ثلاثة أو أربعة من الشعراء الزنادقة المنحلين رمزاً للعصر كله ، دون أن تضاف إلى ذلك حلقات العلم أو دراسات أهل الفضل وحفظه القرآن والحديث والشريعة وهم الذين هم يمثلون القطاع الأكبر من المجتمع .

وقد قدم كتاب الأغانى للملوك متعة ، وكتب أساساً ليكون عامل ترف للامراء ، ولا شك أن بروز الدعوة فى فكرنا العربى الحديث إلى إعادة ما سطره الشعوبيين من اتهامات ومغالطات للتاريخ الإسلامى إنما برز فى ظل هدف كبير من أهداف التغريب والغزو الثقافى وحمل لوائه دعاة وجهوا لهذا العمل .

واتخذت لهم حركة التغريب مذاهب فى الفكر الغربى تهاجم التاريخ عموما ولا تعترف به ، وتستمد مفاهيمها لمهاجمته من مذهبها فى النظرة المادية الداروينية والتفسير المادى للتاريخ وهى ليست إلا نظرية من نظريات عدة يضطرم بها الفكر العربى فى عداء التاريخ وخصومته أو الإيمان به وتقدير مكانة ، ولكن دعوة التغريب تطمس دائماً هذا الجانب وتفرض أن هذا هو الرأى ، وكذلك فعلت حين هاجم فكرنا العربى الإسلامى بعض كتاب الغرب ، ثم أولاه التقدير عدد آخر من كتاب الغرب ، ومع ذلك فقد أذيعت نظريات خصوم فكرنا ووسع نطاقها واحتفل بأحد دعاتها « رينان » فى الجامعة المصرية فى القاهرة ، بينما نظر فى إغضاء إلى الذين انصفوا فكرنا وتاريخنا .

* * *

ونظرية التغريب إلى التاريخ العربى الإسلامى تحاول أن تشكك فى التاريخ وتحوطه بعوامل التهوين ونحن لا ندعو إلى تقديس التاريخ أو وضعه فوق النقد وإنما ندعو إلى النظر المنصف الذى لا يحمل فى أعماقه الحقد أو الخصومة .

ولذلك فإننا نقبل نقد التاريخ العربى الإسلامى وإعادة كتابته وتصفيته من كل ما علق به من زيوف ولكن ليس بأيدى دعاة التغريب وإنما بأيدى المنصفين ، وهنا يبرز علم الجرح والتعديل فى معرفة الرجال الذين يتصلون بهذه الأعمال الخطيرة البعيدة المدى فى إرساء مقومات فكرنا العربى الإسلامى ، فإننا فى أساس النظرة المنهجية نؤمن بالتحقيق العلمى الذى يجعل من أول مفاهيمه وأكبر مقوماته « الرجل » الباحث ومدى إيمانه بأمته وفكرها فإذا كان من دعاة التغريب أو فى تاريخه ما يشوب فإن كل ما يقوله فى تاريخنا يحمل على محمل الاتهام والجرى فى ظل حركات الشعوبية والتغريب .

ومن هنا كانت دعوة بعض دعاة التغريب إلى النقد التاريخى تتصل أول ما تتصل بالكتاب الذين يحملون لوأها ، وإذا كان أمامى كاتبين أحدهما مؤمن بالفكر العربى الإسلامى صادق فى نظرته ، لم يتأثر دعوى التغريب والشعوبية وآخر عرف بماضيه فى متابعة مفكرى الغرب والدعوة إلى القضاء على مقومات فكرنا فى الدين أو اللغة أو التاريخ فعلينا أن نقبل من الأول ونرد الثانى .

ويقرر دعاة مذهب التغريب فى النظر إلى التاريخ العربى الإسلامى أن مذهب تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ، ومذهب أسباغ الدين على طور من أطوار التاريخ خطأ ويرون أن الأمم فى بعض ظروف ضعفها تحاول وهى بسبيل استرداد مجدها القديم أن تكبر من تاريخها وماضيها وتجل أصحابه وتتخذهم مثلا عليا . وعندنا أن هذا ليس عيبا وأن مراحل الضرورة تحتاج فعلا إلى إستغلال التاريخ كقوة دافعة دون أن يكون ذلك على حساب حقائق التاريخ نفسها أو تحريفها .

ولكن دعاة التغريب الذين يعرفون ذلك لا يتوقفون عن الإسراع فى ضرب هذا الهدف من أهداف الأمم التى تحاول أن تتخذ من تاريخها وأمجادها قوة لليقظة والحركة ومقاومة الغاصب . وإذا هم يسرعون فيوجهون الضربات لهؤلاء الكتاب من ناحية ، ويقدمون صوراً لها قوة الذيوع والانتشار تحمل صورة التدمير للعصور الزاهرة والبطولات والمواقف الحاسمه .

وهذا ما حدث بالفعل ، فإننا فى الثلاثينات حاولنا أن نجعل من تاريخنا العربى الإسلامى وسيلة لدفع الأمة العربية والعالم الإسلامى إلى اتخاد بطولات تاريخه سبيلا لمقاومة الغزو ولاستعادة الثقة فى أمتنا وقيمنا ومقدراتنا ، بعد أن حاول النفوذ الفكرى الغربى المجسد فى التغريب أتهامنا بأننا لم نكن إلا أمماً تجتاحها الدول من فرس وروم وعرب — أى والله والعرب اعتبرهم التغريب غزاه — .

هنا قام أمثال الدكتور طه حسين لحاول أن يصور العصر الثانى والثالث للهجرة على أنه عصر شك ومجون : فإذا قام من يعارضه كالمؤرخ الإسلامى رفيق العظم هاجمه فى عنف ، وقال له أن التاريخ منفصل عن الوطنية ومنفصل عن الدين . وأن محاولة تقديسه

محاولة مضللة وأنه لا بد من النظر إلى التاريخ نظرة مجردة ، تشيع فيها الشكوك والاتهامات .

والواقع أن الأمم فى علاقتها بالتاريخ تمر بمرحلتين (١) الضرورة والبناء وفيها يصبح التاريخ وسيلة فعالة وسلاحا هاما ، وهذه هى مرحلة الضرورة التى تقاوم بها الأمة الغزو الفكرى والتغريب والشعوبية ونحن فى العالم الإسلامى والعربى نمر الآن بهذه المرحلة .

(١) مرحلة الاستقرار : وهذه يعاد خلالها النظر فى التاريخ فيصفى من كل عوامل الخطأ والتزييف على النحو الذى يخلق منه تاريخاً علمياً .

ولذلك فإن دعوة الأمم إلى طعن تاريخها وتمزيقه وتعريته وإثارة الشبهات حوله فى ظل معركة البناء ومرحلة الضرورة ، لا شك أنه عمل من أعمال الشعوبية ، ونحن فى هذا أيضاً لا نأخذ نظرية من عشرات النظريات فى الفكر الغربى لتكون قاعدة نحكم على أساسها أو تفرض علينا ، دون تقدير لعدة عوامل ؛ أهمها : أن مقومات الفكر العربى الإسلامى تقوم على أساس امتزاج عناصر اللغة والدين والتاريخ والتراث ولا يمكن فصل عنصر منها فالدين مرتبط باللغة ، والتاريخ مرتبط بالدين وكذلك شأن الثقافة والتراث وهذا الفصل عمل وهمى إذ لا يمكن فعلا فصل القيم المشابكة الممتزجة أساساً .

ومن هنا حمل طه حسين على أحمد زكى (باشا) فى دعوته إلى إحياء أمجاد العرب ، وحمل لواء تأكيد فرية حرق العرب لمكتبة الاسكندرية ، وعندما تحول الدكتور هيكل عن هذه المفاهيم ودعا إلى إحياء الفكر العربى الإسلامى كوسيلة من وسائل النهضة وأعترف بأنه حاول أن يوقظ مصر والعالم العربى عن طريق الفكر الغربى ثم عن طريق الدعوة الفرعونية فشل فى كليهما ولم يجد سبيلا لليقظة إلا عن طريق الفكر العربى الإسلامى ، عندما فعل هيكل هذا هاجمه طه حسين بعنف واتهمة بقصر النظر[1] .

* * *

ولقد كانت حملة دعاة التغريب على « تقديس التاريخ » لا تهدف إلى تنقية التاريخ

---

(١) مقدمة كتابه منزل الوحى .

وإنما التشكيك فيه ، وعلى أساس قانون الجرح والتعديل لايدخل هولاء الدعاة فى نطاق الموثوق بهم ، فقد كانت مؤلفاتهم كلها وكتاباتهم تنصب على اتهام الفكر العربى الإسلامى وانتقاصة . ففى « الشعر الجاهلى » سخر من القرآن والتوراة ، وأعلن شكوكه فى كثير من حقائق الإسلام والكتب المقدسة . وفى « حديث الأربعاء » حاول أن يصور العصر الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون ، وفى «هامش السيرة» حاول تغليب الأساطير على أصول السيرة ، وفى «مستقبل الثقافة» دعا إلى الارتماء فى احضان الغرب والأخذ بمذاهبه فى الحياة والفكر « مايحب منها ومايكره ومايحمد منها وما يعاب » فالكاتب الذى يحطم أيدى أمته حين تتمسك بتاريخها لتقاوم به الغزو الفكرى الغربى والنفوذ الإستعمارى فيتهم تاريخها ويعلن ان التاريخ يجب أن ينظر فيه على أساس الشك والنقد واعتبار أبطاله أناس عاديون يجرى عليهم ما يجرى على الناس ، هذا الكاتب لا يستطيع أن ينال ثقة أمته ولا يأخذ فى فكرها مكانا عليا .

* * *

وقد هاجم رفيق العظم فكرة اعتماد الدكتور طه على أخبار القصاص فى تصوير العصر الثانى والثالث للهجرة بأنه عصر شك ومجون ، حين أشار إلى أن مثل هذه من كتب القصاص وضعت فى ظرف اراد به الخلفاء صرف الناس عن أخبار الخلافة والسياسة . ومثل ألف ليله وليله وقصة عنترة العبسى وواضعها مجهول وأخبار الفتوحات . وقد تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام وغير ذلك فكان منها الغث والثمين ومنها الملفق والقريب من الصحة — وقد غالى بعض الأخباريين فى ايراد أخبار المجون والهتك والانغماس فى الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من كل معنى الأدب ، ولا أظننى مخطئا إذا قلت أن ما نقل من هذا القبيل عن أبى نواس وأضرابه من شعراء ذلك العصر — وهو ما اعتمد عليه طه حسين — انما هو تلفيق قصصى يراد به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون

وأما لسد نهم العامة إلى تلك القصص المخزية والروايات الملفقة . والذى جوز الشك فى قصة ابن عبدوس يجوز الشك فى صحة أكثر القصص والروايات التى نقلت عن أبى نواس وغيره من شعراء المجون وثبت أنها قصص موضوعة ليس لها قيمة تاريخية فلا يصح أن تتخذ مثالا صادقا لذلك العصر [١] » . .

ولقد حفلت الأبحاث التى كتبها المستشرقون والمبشرون ومن لف لفهم من كتاب الغرب باتهامات وإثارات للتاريخ الإسلامى والعربى تتعلق بشخصية النبى ومعاركه وحياته الاجتماعية وتتصل بمختلف أعلام التاريخ العربى الإسلامى، وقد قامت هذه الكتابات المتعصبة على أساس من اتجاه كتابها ومفاهيمهم ، وقد أصبح هؤلاء معروفون فى مجال الفكر العربى الإسلامى .

ولا يخفف من غلوأيهم إلا أننا نجد هناك من كتبوا عن التاريخ العربى بإنصاف وتقدير .

ومقطع الرأى فى هذا هو أن الدول الإستعماريه ذات النفوذ السياسى أو الدينى تحاول أن تجد من كبار الكتاب فى الغرب دعاة لها وأدوات لغزوها الفكرى فتتيح لهؤلاء رحلات قصيرة إلى الشرق، تكون وسيلة لكتابات مضطربة غامضة فيها حملات تتسم بالقصور عن الفهم والدرس،لأنها لم تمكن كتابها من تحقيق فكرى أو بحث علمى. وفى هذا يقول مستر جب فى كتابة (المحمدية) أن مؤلفات المبشرين عن الإسلام والعرب تصدر عن أولئك الذين يحكم تفكيرهم الاعتقاد بان الإسلام دين منحط وأن بعضهم جرى بقدم فى تفهم الإسلام ، ومع ذلك فلا تزال الأحكام السابقة والآراء المغرضة تلازم موقفهم من الإسلام .

وفى الناحية الأخرى يبرز كتاب منصفون لا يتصلون بالنفوذ الإستعمارى وأدواته ، فيكتبون بناء على دراسة أو بحيث عميق ومن هؤلاء جوستاف لوبون واميل درمنجم وتوينبى وغيرهم [٢] .

* * *

ولسنا هنا فى سبيل إحصاء الاتهامات والأخطاء أو الشبهات والشكوك التى واجه

---

(١) اقرأ المعركة بكاملها فى كتابنا (المعارك الأدبية) .

(٢) انظر كتابنا « الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى » .

بها كتاب غربيون — واتباعهم من دعاة التغريب والشعوبية — التاريخ العربى الإسلامى وذلك له مكانه فى دراسة متخصصة ، غير أنه يمكن رد هذه الاتهامات والشبهات إلى عدة عوامل:

(١) القصور فى الدراسة أو الاعتماد على مراجع شعوبية أو تغريبيه .

(٢) التحيز لوزارات المستعمرات والخارجية فى الدول الإستعمارية .

(٣) الموالاة لدعوات الغزو الفكرى المنطوية خلف اليهودية العالمية أو الشيوعية أو الشعوبية والتغريب .

(٤) محاولة خدمة نفوذ الأديان أو الكنائس الغربية .

والمعروف أن هذه الجهات جميعها ترصد مبالغ ضخمة فى ميزانياتها كل عام لعمليات التبشير فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وخاصة (أواسط أفريقيا وجنوب شرق آسيا) وأنها قد خدعت كثيراً من الكتاب فى العالم العربى لكتابة أبحاث لها طابع معين ، هذا فضلا عن دعاتها وأتباعها المنبثين فى كل مكان ، ومايصدر باسمهم من صحف زاهرة ، أو مؤلفات أنيقة .

واجه الفكر الغربي قضية كتابة التاريخ وتقييمه على أنماط مختلفة ، وفي ظل نظريات متعددة ، كان مصدرها ، العصور والدعوات والتيارات . وكانت هذه النظريات في الأغلب مرتبطة بدعوة أو مذهب ، كانت للفلاسفة نظرتهم إلى التاريخ ، وهي نظرة تهدف إلى الإقلال من قدرة وقد بلغت في المغالاة إلى درجة إسقاطه نهائياً ، وعدم الاعتماد عليه ، فديكارت أبي الفلسفة الحديثة يدعو إلى صرف النظر عن كل ما قاله السابقون ، بينما ليبتز ينظر إلى التاريخ نظرة التقدير كما أن علماء الاجتماع لهم نظرتهم وكذلك علماء النفس والتربية .

وهناك النظرة الماركسية إلى التاريخ القائمة على التفسير المادي للتاريخ ، حيث يرى كارل ماركس أن العوامل الاقتصادية هي العامل الأول والمباشر لكل حوادث التاريخ ، وأن الانقلابات والاستعمار والثورات ترجع إلى أسباب اقتصادية .

كما جرى الخلاف حول التاريخ ، وهل هو علم أفن ؟ وقالوا إن العلم وحده هو عرض نصوص الأحداث وتحقيقها ، أما الفن فهو إضافة رأي المؤرخ ، وتحليله لكل موقف من المواقف أو حادث من الحوادث .

وهناك نظرية تقول أن التاريخ سلسلة من سير العظماء ، وأن التاريخ من صنع الصفوة الصالحة من الذين يؤلفون زعامة جماعية مستمدة من نفوذهم الشخصي ، ونظرية أخرى تقول أن العظماء نماذج كاملة للبيئة التي يعيشون فيها وأن الإنسان خاضع لمحيطه .

وجرى الخلاف حول علمية التاريخ أو توجيهه ، فقد أيد البعض الرأي القائل بأنه لابد من النظر إلى التاريخ نظرة علمية صارمة ، دون النظر إلى ما ينجم عن ذلك من أثر في الغض من قدر التاريخ ، ورأى البعض الآخر أن التاريخ ضروري لبناء الشباب .

وجرى الخلاف حول قومية التاريخ أو دوليته ، وقالوا إن قومية التاريخ قد وصلت في أوربا إلى حد بث الأحقاد ، وأن النظرة الدولية تعتبر العالم كله أمة واحدة ، وبذلك تختفي

العواطف القومية وتضحى البطولات الخاصة فى سبيل النظـرة الواسعة ، وجرى الخلاف حول كتابة التاريخ ، فحمل البعض على المؤرخين واتهموهم بالنظرة الشخصية ، وأنهم يلونون التاريخ وفق مزاجهم الشخصى . ودعا البعض إلى التفسير البيولوجى للتاريخ وقال أنه وحده التفسير الأصيل ، وقال مثل ذلك أصحاب التفسير المادى وهناك من يدعو إلى التفسير الدينى والمناخى .

وهاجم كثيرون التاريخ جملة، وقالوا أنه أشد فتـكا بالأمم من الأوبئة مثل بول فاليرى ؛ ويرى فرويد أن التاريخ سلسلة أزمات فى نفوس أفراد أدت إلى الإنقلابات الهائلة .

* * *

أما « التاريخ العربى الإسلامى » فقد واجه رأيين مختلفين : الأول ، وهو الذى حمل لواءه الدكتور طه حسين — معتمداً على نظرية أستاذه دوركايم — منذ الثلاثينات وما زال خلفاءه يحملون لواء دعوته . ويرى أصحاب هذا الرأى أن التاريخ لا يقدس ولا تسبغ عليه صفة الجلال ، ولا يتصل بالدين ، وليس أبطال التاريخ العربى الإسلامى إلا أناساً ينطبق عليهم ما ينطبق على الناس .

وترى هذه المدرسة أن الاتجاه القومى فى كتابة التاريخ خطأ ، وأنه دعوة إقليمية ، وفيه تمجيد للماضى وخضوع له ، لأنه يريد إحياء الأمجاد وأنه يرى الماضى القومى لب التاريخ ، وبذلك يتأرجح أسلوبه بين النقد والتصديق .

وترى هذه المدرسة أن يتخذ التاريخ وجهة إنسانية ، دون اهتمام بالأمة العربية أو العالم الإسلامى ، وأن التاريخ وسيلة للنظرة الشاملة إلى البشرية وتطورها ، وأن اتجاهه إلى الاهتمامات القومية ينقص من روح البحث العلمى ويجعله أشبه بالدعاية .

وترفض هذه المدرسة النظرة التقليدية ، التى توصف بالتقبل الإلهى وتدعو إلى معاملة

الدين الإسلامى كظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الإجتماعية ، ولذلك فإن الجانب الإلهى يجب أن يوضع موضع البحث الواقعى ، كما تبحث أى حقيقة اجتماعية أو فكرية(١) .

وعندهم أن الدراسات التاريخية لا تزال خاضعة لتأثير المؤرخين العرب القدماء ، سائرة على منهجهم فى طريقة البحث والمعالجة والتفكير ، ويرى دعاة هذه النظرة أن المؤرخ الحديث لا يزال يسرد التاريخ العربى سرداً ، يظهر أمجاده بألوان ساطعة قافزاً الفترات المضطربة فيه ، وهو ما يسمى بالرومانتيكية الإسلامية ، أو أن يعرضه عرضاً متسرعا سطحيا وأن الدراسات الجديدة فى التاريخ أقرب إلى السطحية ، وأنها تستثير حماسة الشباب وتبعث فى نفوسهم الغرور .

وتحمل هذه المدرسة الدعوة إلى نقد التاريخ والكشف عن أخطائه ، وإزالة طابع القداسة عنه . وتلك دعوة علمية أصيلة لا نرفضها ، بل نرحب بها ونعتز ، ولكننا لا نسلمها إلا لمن ينطبق عليهم قانون الجرح والتعديل ، فإذا ما قام كاتب أو جماعة للتصدى لهذا العمل ، فلابد أن تتوفر فيهم روح الإيمان بمقومات الفكر العربى الإسلامى وأن لا يكون من بينهم من أسقطهم تاريخهم الفكرى ، بحكم أنهم من دعاة التغريب أو الشعوبية .

ولكننا نرى ما ارتأيناه من أن تاريخنا العربى الإسلامى يحمل صفحات مشرقة ، وأن ما به من أخطاء أو ثغرات لا تغض من قدره ، ولا تضعف مكانته ، ولا تصرف العرب والمسلمين عنه ، وهو قادر إذا قدم بإنصاف أن يعزز دعوة بناء الأمة العربية والوحدة الفكرية والدعوة الإنسانية .

* * *

أما المدرسة الثانية فهى لا تدعو إلى تقديس التاريخ ، ولكنها تدعو إلى اعتباره قوة ذات فاعلية فى بناء الفكر العربى الإسلامى الجديد ، وخلق نهضة ثقافية وروحية تعين على وحدة الفكر فى الأمة العربية والعالم الإسلامى .

---

(١) قسطنطين زريق ونبيه أمين فارس .

وترى هذه المدرسة أنه لا تعارض بين الروح القومية والأسلوب العلمى فى دراسة التاريخ ، وأنه فى الإمكان أن يكون التاريخ حافزاً للهمم دون أن يكون عبثاً يضيق النظرة ، ويصرفها عن مهام الحاضر .

وعند هذه المدرسة أنه اليوم فى مجال التحدى ورد الفعل — حيث تقوم الدعوات التغريبية والشعوبية محاولة تجريد التاريخ العربى الإسلامى من كل أمجادة وبطولاته ، فإن الأمر يتطلب إبراز هذة الجوانب والاعتزاز بها ، على أن يكون هذا الاعتزاز بعيداً عن الإغراق ، وأن هذا التاريخ فى جوهره إنما يمثل حركة ضخمة شملت جانباً واسعاً من هذا العالم الإنسانى إمتد من الصين إلى الأندلس ، فى مرحلة طويلة امتدت أربعة عشر قرناً ، وكان لها أثرها فى الفكر الإنسانى والحضارة البشرية ، فضلا عن مفاهيمها وقيمها ومثلها الجديدة القائمة على الحق والعدل ، والتى تمثل أمة لها رسالة حية ما تزال متفاعلة مع الفكر الإنسانى ، وقد كان دور « العالم العربى الإسلامى » بناءاً ، وكانت حركته متطورة متحررة فى سلسلة متصلة الحلقات .

وتعتبر هذه المدرسة أنه من الضرورى اليوم فى مرحلة بناء النهضة الجديدة للعالم العربى الإسلامى موالاة التاريخ اهتماماً كبيراً حيث لا سبيل لانطلاق أمة دون فهم واع لتاريخها وأنه لا حاضر لأمة لا ماضى لها .

ويرى الدكتور عبد العزيز الدروى أن فهم الأمة لذاتها ومجابهتها المعضـــلات القائمة والاستعداد للمستقبل الذى تنشده لنفسها ، يعتمد إلى حد كبير على فهمها لتاريخها فهماً صحيحاً ، وأنه لا يمكن لأمة أن تجد سبيلا للانطلاق ، وعونا على النهضة الصحيحة دون فهم واع سليم لتاريخها .

* * *

ومن رأينا أن كون التاريخ عاملا فى مرحلة بنـــاء الأمم على بث الروح الوطنية فى الشعوب دافعاً إلى الثقة بالنفس على استئناف دورها فى الحضارة لا يحول دون تنقية هذا التاريخ من كل ما يعترض النظرة العلمية السليمة ، وأن ما فى التاريخ العربى الإسلامى من جوانب ذاخرة بالبطولة والكرامة والسماحة قادر إذا حررت حواشيه من كل ما يتعارض مع

الروح العلمية التى بذر بذرتها الفكر العربى الإسلامى أساساً وحمل أمانتها — على أن يحقق هدف بناء فكر الأمة .

إنما الذى يحاط دائما بالحذر ان تجرى المحاولات للتشكيك فى الحقائق الثانية أو محاولة تصوير بعض الجوانب على نحو يبث فى النفس الهزيمة أو الغض من القيم الأساسية أو أن يجرى دراسة التاريخ العربى الإسلامى لخدمة مذهب من مذاهب السياسة أو الفكر والاقتصاد .

فلا بد أن يكون هناك قدر واضح من الاعتراف بمكانة التاريخ فى فكرنا العربى الإسلامى ودوره ومهمته وأثره فى هذه المرحله الدقيقة ، وان يصحب القدرة فى مجال التحقيق التاريخى إيمان صادق بفكر هذه الأمانة وتشرب كامل لروحها ، وتحرر كامل من الخضوع لتيارات التغريب والشعوبية والغزو الثقافى .

ومن هنا لاينفصل النظر إلى التاريخ عن النظرة إلى الأمه ومقوماتها ولاعلى الفكر العربى الإسلامى ككل ، فلايخضع التاريخ لمذهب ما ولا يكون التحقيق العلمى عاملا من عوامل تجريده من روحه . ولا شك أن صدق النظرة سيحول دون استغلال الشكوك أو الخصومات أو مثالب بعض الشخصيات لخلق روح الاستهانه أو الغض مما يحمل التاريخ العربى الإسلامى من بطولات وإيجابية وتقدم .

وليس يستطاع أن يقال أن تاريخ أمة من الأمم قد خلا من مثل هذه الشكوك أو الخصومات أو المثالب وتحرر منها ، فالإنسان هو الانسان ازاء الملك والحكم وليست العبرة بالأحداث العابرة توضع موضع الاهتمام لتبدو ذات أثر أكبر من واقعها بينما تترك الظواهر الكبرى فى حياة الأمة دون التركيز عليها .

فالتاريخ علم وفن وتوجيه ، ولا يمكن تحريره من هوى الكاتب الذى لا بد أن يكون صادق الايمان بفكره وامته أساساً وإذا كان من الضرورى بناء إيمان الأمه بماضيها بما يدفعها إلى العمل ، فإنه من الضرورى أيضا دراسة الأحداث وانتقادها لاستخلاص العبرة منها فى نزاهة كاملة .

ومن هنا لابد من تأكيد الرابطة بين التربية والتاريخ والعلاقة الوثيقة بينهما ، فالجانب الإيجابي المضيء منه يعطى قوة الدفع ، والأحداث التى يتصل فيها الخير والشر تدرس بروح علمية وانصاف لتعطى العبرة لا لتمثل التشهير .

ومن هنا يكون وضوح الموقف من مسائل متعددة تحاول التغريب والشعوبية أن تثيرها. ومن هنا يكون صدق النظرة إلى ما يثار من أن فلانا التركى الأصل أو الفارسى ، فى محاولة لتشوية مكان العرب أو الغض من قدرهم ، ولاشك أن النظرة الحقيقية هى أن البيئة هى التى تخلق العظماء والأعلام وليس الجنس ، فإن الفكر العربى الإسلامى هو الذى خلق الفارابى والغزالى وابن رشد وليست التركية أو الفارسية أو غيرهما ، إذ الواقع أن الإنسان ابن بيئته ومجتمعه واللغة التى يتعلم بها ، وأن العربية اللسان فمن تكلم العربى فهو عربى . وليس بين الاسلام والعربية صراع ولكنهما شقين لحقيقة واحدة ، وقد حاول التغريب وحاولت الشعوبية أن تمزق وحدة الامتزاج بين مقومات الفكر العربى الاسلامى من أجل الغض من شأن هذا البناء الانسانى المتكامل بحيث لا تعارض بين حافز التاريخ والأسلوب العلمى ، فلا تعارض بين عربية التاريخ واسلاميته .

ونظرتنا أننا لانجعل التاريخ عبئا ولا نتحرر منه ، ولا ننفصل عنه ، وحيث أن التاريخ ذخيرة أمجاد وذكريات وسجل بطولات وتخليد معارك وشهداء ، وحضارة وفكر، فإنه عامل من أكبر العوامل فى بناء الأمة النفسى والاجتماعى ، ولايمنع ذلك كله من دراسة التاريخ وفق روح علمية منصفة ، على أساس أن التاريخ عامل من عوامل وحدة الفكر التى هى العامل الأكبر فى بناء شخصية الأمه ووحدتها .

* * *

ومن الجدير بالنظر أن منطق الفكر الغربى فى النظرة التاريخيه ليس ملزما أن نتخذه منهجا لنا ويمكن الاستئناس به حيث يبـــدو منهج التاريخ الاسلامى العربى مختلفا مع منهج التاريخ الغربى وفى هذا يقول مستر جب :

« إن التاريخ الاسلامى سار فى وجهة معاكسة للتاريخ الأوربى على نحو يثير الاستغراب، كلاهما قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ولكن

بينهما فرقا أصيلا بينما خرجت أوربا على نحو متدرج لا شعورى وبعد عدة قرون من النهوض الناجم عن غزوات البرابره ، انبثق الإسلام انبثاقا مفاجئا فى بلاد العرب وأقام بسرعة تكاد تعز على التصديق فى أقل من قرن من الزمان امبراطورية جديدة فى غربى آسيا وشواطىء البحر الأبيض » .

ولاشك أن هذا الاختلاف يجعل استغلال المذهب الغربى فى تفسير التاريخ العربى الإسلامى عمل غير طبيعى ولامنصف . ومن هذا تبدو فلسفة التاريخ العربى الإسلامى على قاعدة تحرير التاريخ العربى الإسلامى من :

(١) عوامل الفخر بالجنس أو ادعاء بطولات والنظر بحذر إلى كتابات المستشرقين وخصوم الفكر العربى الإسلامى .

(٢) ابراز جانب الجماعات واندفاعاتها القوية فى مجال الحرية والدفاع عن الكرامة .

(٣) وحدة الفكر العربى الإسلامى أساس من أسس النظرة فالعروبة والإسلام شقان لحقيقة واحدة .

(٤) ليس العامل الاقتصادى وحده هو الذى يوجه التاريخ ولكنه عامل لايمكن انكاره أو تجاهله بالإضافة إلى العوامل الروحية والسياسية وعوامل المناخ .

(٥) لاتقديس للتاريخ ولا احتقار له .

(٦) نظرتنا التاريخية انسانية تمتزج بروح بناء وحدة فكر الأمة ورد طعنات خصومها .

(٧) روح النزاهة والأنصاف والإيمان بمقومات الفكر العربى الإسلامى هى أساس النظرة التاريخية .

(٨) تحرير التاريخ من محاولات التزييف مع اليقظة لمحاولات التحريف .

(٩) ليس التاريخ هو تاريخ العظماء ولا العصور وإنما تاريخ الأمة وبطولاتها ومواقفها .

(١٠) أثر الفرد فى البيئة ، وأثر البيئة فى الفرد كلاهما يسيران جنبا إلى جنب فى النظرة التاريخية . فالبطولة والجماعية كلاهما مؤثران فى التاريخ .

(١١) النظرة التاريخية شاملة تضم الأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعمرانية .

(١٢) التفسير الدينى والبيلوجى والمادى جميعها أسس فى النظرة إلى التاريخ دون أن تنفرد واحدة منها .

(١٣) الارتفاع عن النظرة الماديه المحضه والروحية المحضه .

اللغـــة

واجهت اللغة العربية أضخم معارك التغريب والشعوبية ، التى كانت بحق الرباط الأكبر بين العالم العربى من جهة كوحدة قومية وبين الأمة العربية والعالم الإسلامى كوحدة فكر وتراث وثقافة . وكانت حدود المعركة هى القضاء على الفصحى وتغليب العاميه والكتابة بالحروف اللاتينيه ، أو اضعاف الفصحى ، وإزالها من مكانها بفرض العاميه فى مجالات ثقافية مختلفة ، وأهمها القصة المسرحية والاذاعية .

وقد واجهت اللغة العربية هذه المعركة الداخلية فى نفس الوقت الذى عمل النفوذ الاستعمارى الغربى على حصرها فى العالم العربى وإزالتها عن مكان الصداره فى العالم الأفريقى والآسيوى، حتى لاتصبح فى ظل مقوماتها وقدرتها لغة عالمية للعالم الاسلامى كله ، باعتبارها أساساً لغة الفكر والثقافة ، فقد حال الاستعمار دون انطلاقتها ، وقد كان لها من قبل جولة الاحتلال الغربى ، مراكز ومعالم أساسية تنبعث منها ، متصلة بالاسلام نفسه فى توسعه وانتشاره وقد استطاع النفوذ الاستعمارى أن يقاومها ويحل محلها لغته،فاصبحت اللغة الانجليزية هى اللغة الأولى والسائدة فى آسيا واللغة الفرنسية هى اللغة الأولى السائدة فى إفريقيا ، وأمكن تغليب اللهجات الإقليمية واللغات المحلية أيضا لتكون تالية للغات الأجنبية وبذلك انحدرت اللغة العربية إلى الدرجة الثالثة واقتصرت على أن تكون لغة الثقافة فى أضيق الحدود .

وفى العالم العربى حرص النفوذ الاستعمارى على أن تصبح لغته هى اللغة الأساسية فى دراسات المدارس والجامعات ، وأبعدت اللغة العربية عن مناهج الدراسة وبلغ ذلك درجات من القوة والضعف حسبما شاء الاستعمار ،وقد وصل ذلك أقصى درجات العنف فى الجزائر حيث ابيدت اللغة العربية كلية ، ولم تعد تمثل الا حلقات صغيرة من المناهج باعتبارها لغة أجنبية ، أما اللغة الرسمية الأساسية فهى الفرنسية وفى مختلف أجزاء أفريقيا المحتله سيطرت

اللغة الفرنسية وأصبحت لغة أساسية هى لغة الدولة ، والتعليم ، وكذلك حدث فى الهند والمناطق التى احتلتها بريطانيا فى العالم العربى كمصر والعراق وفلسطين والسودان .

وقضية تغريب اللغة العربية ذات تاريخ طويل وجذور ممتدة ، وقد اتخذت أساليب متعددة ، ومحاولات متوالية ، لفرض العامية واللغة المحتله بالحملات المنظمة عليها وامتهانها وتصويرها بصورة العجز والقصور عن مسايرة الحضارة والعصر ، أو الإستجابة لكلمات المدنية .

وقد أثيرت حملات متعددة تهدف إلى المقارنة بينها وبين اللغة اللاتينية استهدفت الدعوة إلى أن تتخذ اللغة العربية نفس الطريق الذى اتخذته اللاتينية ، ويتحدث عدد كبير من مفكرى الغرب من مستشرقين وعلماء عن تطور اللغة العربية فيرون أن مصلحة المتحدثين بها هو فى تغليب اللهجة فى كل قطر حتى تصبح لغة إقليمية ، كما فعلت أوربا باللغة اللاتينية حين أوردتها المتحف وأقامت من لهجاتها لغات .

ولطالما ألح هؤلاء الكتاب على هذا المعنى وأكثروا من ترديده وانخدع به بعض كتاب العرب غير مقدرين الفارق الكبير بين اللغتين وتطورها . وإن اللغة العربية هى لغة أمة واحده تحمل ثقافه وفكراً مازال حيا متفاعلا لم يتوقف أو يتجمد ، وأن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى إلى حدود إيران ، وهى فى هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والتراث والقيم أوثق ارتباط ، وقد أثمرت هذا «الفكر العربى الإسلامى» الذى تضمه ألوف الكتب والمجلات والمخطوطات المنثورة فى مختلف مكتبات العالم ، وإن هذا الفكر الذى هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا إنما يقوم على « القرآن » الذى هو الرابطة الكبرى وان فى الدعوة إلى تغليب اللهجات الإقليمية من شأنه أن يقضى على هذا التراث الحى كله ، وأن يفرق هذه الأمة وبذلك نضيع تاريخا متصلا امتد أربع عشر قرناً .

وقد بدأت الحمله على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضى وأمتدت على أيدى كتاب ومفكرين أجانب ثم حمل لواءها كتاب من بلادنا . وقد تبلورت هذه الحملة فى عبارات مستر ولكوكس عام ١٨٩٢ فى خطاب ألقاه فى نادى الأزبكية بالقاهرة جعل عنوانه «لما لم توجد قوة الإختراع لدى المصريين الآن» وأجاب على هذا السؤال بأن السر فى تأخرهم هو « اللغة العربية » وإن المصريين لو اتخذوا لهم لغة « إقليمية » كما فعلت بريطانيا مثلا لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا .

وتابعه القاضى « ويلمور » عام ١٩٠١ بحمله أخرى دعا فيها إلى ماسماه « لغة القاهرة » واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية ، وفى المغرب وجه المستشرق ماسنيون الدعوة عام ١٩٢٩ إلى الكتابه بالحروف اللاتينية، وقال إن اللغة بذلك تصبح ناشطة قادرة على أن تجارى الزمن ودعا العرب فى شمال إفريقيا وفى سوريا — وكانتا محتلتين بالقوات الفرنسية — إلى هذا العمل ، وتابعه فى الدعوة من بعد (المستشرق م . كولان) حيث دعا إلى العامية فى المغرب .

ومضى بعض كتابنا الذين كانو يحملون أمانة الفكر لأوربا فتابعوا هذه الدعوة « التغريبية » فدعا لطفى السيد وسلامه موسى وعبد العزيز فهمى فى مصر والخورى مارون غصن فى سوريا وكثير غيرهم إلى العامية والحروف اللاتينية .

* * *

وقد وجدت الفصحى نصراء من أهلها ومن غير أهلها .

فقد أشار مستر جويدى المستشرق الإيطالى معلقا على حديث كبير من الكبراء له فى تغيير أسلوب اللغة القديمة وتتبع الأسلوب الغربى فى كتابه « الحروف اللاتينية » : « أنا على عكس هذا الرأى ، أرغب فى أن لاينسى الكتاب الحاليون العلاقة بالماضى ، لأن فى الماضى مجداً كبيراً ، وهذه اللغة قد لعبت دوراً خطيرا فى التاريخ العالمى » .

أما أرنست رينان وهو الكاتب الفرنسى الذى لم يكن من نصراء الفكر العربى فإنه يقف من اللغة العربية موقفا منصفا . يقول : « إن من أغرب ماوقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية فقد كانت هذه اللغه غير معروفة بادىء بدء ، فبدأت فجأة فى غاية الكمال سلسة أى سلاسة ، غنيه أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى . ومن أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمه من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت اخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم علمت ظهرت لنا فى حلل الكمال إلى درجة انها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى أنه لم يعرف

لها فى كل أطور حياتها لاطفوله ولا شيخوخه .

ويقول رانكه الفيلسوف الألمانى : إن الثقافة الإنسانية تعتمد على لغتين كلاسيكيتين هما العربية واللاتينيه . وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينيه ، فقد نفثت اللغة العربية فى الشرق روحا فنيه ، ولايمكن فهم المصنفات الأدبيه الفارسية أو التركية بدون العودة إلى الكلمات العربية ، وخاصة أنه وحى القرآن الكريم الذى لايجارى ، يعد بلا مراء أساس العقيدة الإنسانية والثقافة البشرية .

ويرى الدكتور المستشرق عن الكريم جرمانوس [1] إن للغة العربية سنداً هاما ابقى على روعتها وخلودها ، هو « الاسلام » فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفه ، على نقيض ماحدث للغات القديمة المماثله ، كاللاتينيه حيث انزوت تماما بين جدران المعابد وكادت تنقرض .

وقد كان للاسلام قوة تحويل جارفة أثرت فى الشعوب التى اعتنقته حديثا ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق فى خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافا من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء ، ومن هذه اللغات التى تأثرت بها الفارسيه والتركيه .

والعنصر الثانى الذى أسهم بنصيب ملحوظ فى الأبقاء على اللغة العربية هو مرونتها التى لاتبارى . فالألمانى المعاصر مثلا لايستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التى كان يتحدث بها أجداده من ألف عام ، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم لغتهم التى كتبت فى الجاهلية قبل الاسلام .

ولولا تطور اللغة العربية الدائب لما استطاعت الأجيال الجديدة أن تعى لغة أجدادهم، والمرونة التى تنطوى عليها الضاد لم تنشأ جزافا وإنما هى نتيجة حتمية لطبيعة اللغة العربية حيث أن ماتتميز به من موسيقية واضحه وقابليه للتزاوج مع اللغات الأجنبية جعل منها لغة حية مرنة متطورة .

وقد بز علماء فقه اللغة العرب زملاءهم العلماء الغربيين ذكاء وبراعة ، وأصبح من البديهيات

(١) كتابه الأخير : « بين فكرين » عام ١٩٦٣ . والعبارات ترجمة غالى شكرى

إن مفكرى الاسلام كانوا أساتذة الأوربيين فى القرون الوسطى ، فى مبادىء العلوم والطب والفلسفة ، لكن إتساع أفق علماء اللغه العرب لم ينوه إليه كثيراً ، رغم أنهم اكتشفو منذ ألف سنة قواعد كان يجهلها الغربيون .

وقد استطاع «الجاحظ» أن يكشف فى كتابه «البيان والتبيين» الأسباب الفزيولوجية للتغيرات السريعة فى الأصوات، إذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفم والحنجرة وضبطهما . ونتيجة ذلك أن الكلمة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة حسب اختلاف الشعوب ، كما لاحظ أن ثمة عيوبا طبيعية فى حواس الكلام ، من شأنها أن تؤثر فى النطق وأن اختلاف الأحوال الجوية يؤدى إلى اختلاف فى الكلمات .

وقد استطاع « واصل بن عطاء » مؤسس حركة المعتزله ، وكان هذا العلامة لايستطيع نطق حرف الراء لذلك كان يقوم بابدالها بمرادفات خالية منها . كان يقول ملحد بدلا من كافر والحنطه بدلا من البر وهكذا ، كما نسب تفخيم الحروف كالقاف والصاد واللام إلى تشويه فى الفم أو فساد اللغة .

ولست بحاجة إلى الاشارة بمؤلفات الأصمعى وسيبويه والسجستانى وغيرهم للتدليل على أن العلماء العرب قد سبقوا الغرب فى هذا المضار .

وفى رأيى أن هذه « الطبيعة الذاتية » التى طبعت عليها اللغة العربية جعلتها فى مركز الانفراد والتباين وسط اللغات الأوربية .

ولا شك أن اللغة العربية هى من صميم الدعوة القومية المعاصرة فى البلاد العربية ، فهى أداة الربط التاريخية بين شعوب هذه المنطقة .

واللغة العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف الصوتيه وبكثرة الحروف الساكنة وباصلاح الحروف المتحركة وتطبيق قواعد النحو على الكتابه العربية يرجع عهدها إلى القرن الثامن الميلادى وقد روجعت تلك القواعد بدقة وعناية مع مراعاة طبيعة اللغة العربية فاصبح من المتعذر تعديلها أو تبديلها .

ففى خلال أربع عشر قرنا أخذ الكتاب والقراء فى الأقطار الكائنة من صفاف

الهندى شرقا إلى شواطىء المحيط الأطلسى غربا يتطلعون بأبصارهم إلى ذلك الأدب الخاضع لتلك القواعد التحقيق والأملائية الدقيقة .

* * *

وكما أثرت اللغة العربية فى الفارسية والتركية فقد أثرت فى اللغات الأوربية وكان أثرها بعيداً فى اللغة الأسبانية ، فقد استمرت اللغة العربية ثمانية قرون فى الأندلس أقامت حضارة ضخمة ، فكان من الطبيعى أن تؤثر فى اللغة الأسبانية والبرتغالية وقد أحصى العلامتان دوزى وانجلمان مدى ذلك الأثر كتاب سماه (مفردات الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ، طبع فى ليدن١٨٦٩) وقد أجرى الأسبانيون عدداً من التصفيات للغة العربية ومع ذلك فلا يزال ١٧ فى المائه من كلماتهم عربيا ، وقد أثرت العربية فى اللغات الفرنسيه والإنجليزية والألمانية وحوت اللغة الإنجليزية أكثر من ألف كلة عربية ، وهناك اليوم ما لا يقل عن ٢٧٠ كلة من أصل عربى ما تزال تستعمل فى اللغة الانجليزية يوميا . وقد بدأ تسرب الكلمات العربية إلى اللغات الأوربية منذ عام ١١٥٠ .

ويقول الدكتور على مظهر أن من يتتبع الألفاظ العربية التى دخلت على غيرها من اللغات يرى أنها لم تترك لغة من لغات أوربا الأولها فيها أثر ، ففى الأسبانية والبرتغالية والفرنسية والانجليزية والغالية القديمة وفى الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية فى شمال أوربا وفى الروسية والبولندية واللغات الصقلية وفى الايطالية وبعض لهجات فرنسا وإيطاليا . كما أن عثور الباحثين فى جهات البلطيق فى شمال أوربا على سكة اسلامية عربية هى من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا إلى تلك الأرجاء يوما من الأيام[(١)] .

ولطالما كتبت أبحاث عن اللغة العربية ومفاضلتها مع اللغات المختلفة فى كثير من المعانى ، وقد ألف (الياس انطون الياس) كتابا باللغة الأسبانية ذكر فيه الكلمات التى من أصل عربى ، قال فيه « أدى بى البحث إلى الحكم بأن « العربية » هى أقدم لغة حية » وقد أرجع كثيراً من الكلمات الانجليزيه واللاتينية واليونانية وغيرها إلى أصلها العربى وقد ضم معجم

(١) مجلة المعرفة — مايو ٩١٣٣ .

وبستر الانجليزى الذى صدر عام ١٩٣٥ بمراجعة الدكتور فيليب حتى (٦٠٠ ألف كلمه) ماخوذة من اللغة العربية منها ٥٠٠ كلمة من الألفاظ المستعملة فى الكتابة والأحاديث العادية والنصف الآخر فى الشئون الفنيه . وقد أكمل هذا البحث معجم (دوزى) ومعجم فيشر الكبير ، وقد أشار الدكتوز لويجى رينا لدى الايطالى إلى أن اللغة العربية تركت أثراً كبيراً فى اللغتين الصقلية والإيطالية ، وإنه لايزال الجزء الأكبر من الكلمات العربية الباقيه تفوق الحصر ، وميزة هذه اللغة أنها دخلت بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار .

* * *

وهنا يبدو الفارق البعيد بين اللغة العربية كلغة حية وبين اللغة اللاتينية التى اضطرت إلى أن تختفى ، وجملة الرأى فى ذلك أن اللغة اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة وبقيت كلغة للكنيسة والعلماء ، أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ولم تكن اللاتينية لغته الأصلية وإنما كانت أخرى كالساليه والسكونيةوالجرمانية الهنديةامتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات إلا بتمادى الزمن وتنوع الكتبه وفتح المدارس وتأليف الكتب ، وهذا هو رأى الأب انطون صالحانى اليسوعى (١) .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن اللغة اللاتينية لم تكن لغة الغرب كله ، وهى لم تستطع التغلب على « اليونانية » لأن اللغة اليونانية ارتبطت بحضارة أرقى من حضارة الرومان ،

فلما انشطرت الامبراطورية إلى شطرين : الامبراطورية الشرقية والامبراطورية الغربية ، كانت اليونانية فى الشرق واللاتينية فى الغرب .

هذا فضلا عن أن اللغة اللاتينية كانت لغة ارستقراطية لا يمارسها ولا يحسنها الا النخبة الممتازه ولم تتغلغل فى طبقات العوام (٢) .

* * *

ولست فى مجال الافاضة فى تصوير أثر اللغة العربية فى ثلاث خطوط متوازية :

---

(١) مجلة المشرق م ٢٣ (شباط ١٩٢٥) .

(٢) ساطع الحصرى (آراء فى اللغة والأدب).

الأول : هو تراجع اللغات السريانية والقبطية والبربرية واللاتينية والارامية .

الثانى : التأثير الضخم فى اللغات الحية الفارسية ووالأرديه والتركية والسواحلية فقد إتخذت معظم هذه اللغات الحروف الأبجدية العربية حروفا لها واستعارت كثيراً من عبارتها وجملها . وأن ثلاثة أرباع الكلمات فى اللغة الهندوستانية مأخوذة من اللغة العربية وقد أخذت لغة شبه جزيرة الملايو الحروف الأبجـدية العربية واستعارت لغات السودان الجنوبى كثيراً من كلمات اللغة العربية . وقد أشار المستشرق برون إلى أثر اللغة العربية فى اللغه الفارسيه بقوله : انه من الصعب أن تكتب لغة فارسية خالية من اللغة العربية كما من الصعب أن تكتب لغة إنجليزيه خالية من اللغة الإغريقية واللاتينية .

الثالث : أثر اللغة العربية فى اللغات الفرنسية والإنجليزيه والأسبانية والبرتغالية ؛ ففى اللغتين الأسبانية والبرتغالية عدد كبير من الألفاظ والاصطلاحات وكذلك الألمـانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية فى شمال أوربا وفى الروسية والبولندية واللغات الصقلية الأخرى وفى الإيطالية وفى لهجاتها كلهجة مدينة نابولى . وقد أشار سيد بليو إلى أن الـكلمات العربية التى دخلت اللغة الفرنسية أكثر مما دخل منها فى اللغة اللاتينية .

ويقول لويجى رينالدى أن اللغة العربية قد تركت عدداً عظيما من الـكلمات فى اللغتين الصقلية والإيطالية ، وأن كثيراً من الـكلمات الصقلية التى من أصل عربى انتقل إلى اللغة الإيطالية ، وأن وجود هذه الـكلمات فى اللغة الإيطالية ليشهد بما كان للمدنية العربية من نفوذ عظيم فى العالم المسيحى .

وتوجد فى اللغة الأسبانية وحدها أكثر من ألف وخمسمائة كلمه عربية .

ودخلت اللغة البرتغالية ثلاث آلاف كلمة عربية فضلا عن أن ربع اللغة الأسبانية مأخوذ من اللغة العربية ، وقد امتد هذا الأثر إلى لغات البرازيل المأخوذة من اللغة البرتغالية .

وقد أحلت الكنائس المسيحية فى العالم العربى اللغة العربية محل اللغة القبطية والسريانية وجعلتها لغة الصلوات واعتمد البروتستانت ترجمة الانجيل إلى اللغة العربية .

ويقول دكتور براون : إننا نجد أن لغات الشعوب التى اعتنقت الإسلام قد غمرها منذ البداية سيل من الألفاظ العربية تكون من العبارات الفنية المتعلقة بالدين واللغة . ولو أن أحداً أراد أن يكتب بالفارسية بحيث تكون كتابته خلوا من الألفاظ العربية لتعسر عليه الأمر ، وقد حاول الأمير جلال مثل هذه المحاولة حين ما ألف كتابه (خسروان نامه) أى كتاب الملوك سنة ١٨٨٠ م ولكنه باء بالفشل ، والشاهنامه نفسها وقد ألفها الفردوسى منذ ألف سنة تقريبا وقصد متعمداً — كما تدلنا على ذلك المقارنة بينها وبين الشعر المعاصر لها — أن يصوغها فى أقدم العبارات والأساليب لا يستطيع أن يدعى أنها خالية من الألفاظ العربية كما يظن بعض الناس ممن لا قدرة لهم على التحقيق والتمحيص .

والمسلمون فى قارة الهند (الهند وباكستان) يعتبرون اللغة العربية لغتهم الأولى واللغة الأوردية إنما هى مزيج من اللغة العربية واللغة السنسكرتية مع قليل من الفارسية والتركية .

ولا شك أن محاولة الاستعمار والتغريب فى وقف نمو اللغة العربية فى العالم الاسلامى إنما كان يهدف أساساً إلى (١) الفصل بين العرب والمسلمين (٢) عزل الإسلام نفسه عن النمو (٣) محاولة خلق ثقافتين عربية وإسلامية، وذلك بالفصل بين الثقافة العربية الإسلامية الواحدة التى كان قوامها أساسا القرآن واللغة العربية والفكر الإسلامى .

وقد أشار القس صمويل زويمر منذ أوائل هذا القرن إلى هذه المعركة الصامتة التى كان الاستعمار قد أعد خططه لها ، واستطاع أن يحقق فيها نجاحا فائق الحد ، حين قال .

« يوجد لسانان لهما النصيب الأوفر فى ميدان الاستعمار المادى ومجال الدعوة إلى الله وهما الانجليزى والعربى ، وهما الآن فى مسابقة وعناد لا نهاية لهما لفتح القارة السوداء (أفريقيا) مستودع النفوذ والمال ، يريد أن يلتهم كل منهم الآخر ، وهما المعضدان للقوتين المتنافستين فى طلب السيادة على العالم البشرى ، أعنى النصرانية والإسلام » .

والواقع أنه لم يكن فى استطاعة العالم الإسلامى أن يقف فى وجه النفوذ البريطانى الذى أوقف اللغة العربية عن النمو والتمدد فى المناطق التى فرض عليها سلطانه ، أما فى العالم العربى فقد أمكن أن تقاوم اللغة العربية وتدفع عنها سلطان اللغة الأجنبية إلى الحد الذى حماها من التقلص .

وقد اتسعت الحملة على اللغة العربية فى فارس وتركيا وأفريقيا والهند وأمكن عن طريق حملة التغريب أن تغير تركيا حروفها العربية وتستبدل بها حروفا لاتينية ، وجرت فى إيران محاولات من أجل احلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية وردت هذه المحاولة ، وفى الهند فرض الاستعمار سلطانه فنحى اللغة العربية وحصرها فى المساجد والصلوات وفى أفريقيا فرضت اللغة الانجليزية سلطانها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أن التغريب قد أولى اهتماما كبيرا لدراسة اللهجات وأصولها ، وألفت مؤلفات عديدة عن عاميات مصر وتونس وغيرها وأدخلت دراسات اللهجات كأبحاث علمية إلى الجامعات ومجامع اللغة .

* * *

وقد أعان انتشار الإسلام على نمو نفوذ اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة والعبادة ، وبالرغم من كل الحملات وعمليات التوقيف، فإن العربية ما تزال حية قادرة على النمو والتطور والاستجابة للعلوم الحديثة والحضارة وكلما ازدادت دعوة الوحدة العربية قوة زادت نماء ، وكلما اتسع نطاق الترابط والاخاء بين أجزاء العالم الإسلامى أمكن أن تصبح لغة عالمية للعالم الإسلامى أو اسبرانتو الشرق ، وفى الباكستان تتردد الدعوة دائما إلى اتخاذها لغة الدولة ، وفى أندونسيا وإيران تجد الثقافة فى اللغة العربية أساساً لا سبيل إلى تجاهله أو تجاوزه .

وإذا كانت اللغة العربية هى اللغة القومية لمئة مليون مسلم من العرب فإنها لغة الفكر والثقافة والدين لستمائة مليون ونصف مليون مسلم (وهو مقدار المسلمين اليوم) .

وهى لغة جليلة القدر ، لا نقولها من باب الاعتزاز بلغتنا بل نقولها بلسان الباحثين والعلماء ، فعدد كلمات اللغة الفرنسية ٢٥ ألف وكلمات اللغة الانجليزية مائة ألف أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة ومعجم لسان العرب يحتوى على ٨٠ ألف مادة (لا كلمة) .

ومواد اللغة العربية تتفرغ إلى كلمات ، فإذا فرضنا أن نصف مواد المعجم متفرقة بلغ عدد ما يشتق منها نصف مليون كلمة ، وليس فى الدنيا لغة اشتقاقية غنية إلى مثل هذا الحد(١) .

ومن خصائص العربية أن جميع مشتقاتها تقبل التعريف إلا فيما ندر وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين . وللفعل العربى صيغ متعددة تبلغ الاثنى عشر صيغة ، كل منها يمتاز بمعنى خاص متصل بمعنى الفعل الأصلى .

وتمتاز بضروب من النمو فى مجال الاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية ، كما تتميز بأنها أضخم اللغات ثروة وأصواتا ومقاطع وحروفا وتعبيرات حتى أنها تفوق اللغة الانجليزية فى عدد الأصوات إذ بها ٢٨ حرفا غير مكررة فى حين أن اللغة الانجليزية بها ٢٦ حرفا ومنها مكرر .

* * *

وإذا كان الاستعمار قد قطع الطريق على نمو اللغة العربية وتوسعها بين مسلمى العالم ، فإن منطق القوة هو الذى فرض اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية . وقد أشار جاك بيرك إلى تجربة اللغة العربية فى الجزائر فقال : « أن أقوى القوى التى قاومت الاستعمار الفرنسى فى المغرب هى اللغة العربية ، بل اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات فهى التى حالت دون ذوبان المغرب فى فرنسا ، كيف كان ذلك ؟ لقد كان للمستعمر قوة مادية مدهشة واقتصاديات مدهشة ، ومدنية ، ومع ذلك يلاحظ أن شيخ علماء الجزائر الذى كان يعتبر نفسه رجلا غير سياسى ، وكان يتجنب السياسة ، كان هذا الرجل من أعظم رموز مقاومة الاستعمار ، فإن صحت هذه الدعوى المعنوية الثقافية كانت أقوى العوامل فى النهوض الحقيقى بشعب الجزائر » وهذا الشيخ الذى يشير إليه « بيرك » هو العلامة « عبد الحميد بن باديس » .

---

(١) إبراهيم مصطفى : مجلة الأزهر ١٨٩٢ .

وبعد : فما تزال اللغة العربية تقاوم عمليات التغريب فى داخل الوطن العربى وخارجه ، وستظل حيه لن تموت حتى تتحقق نبوءة جول فيرن وكان جول فيرن قد كتب فى إحدى قصصه أن سياحا ذهبوا فى أجواف الأرض تحت قصر البحر العميق ، واخترقوا طبقات القرى الأرضية حتى وصلوا إلى وسطها ، ولما أرادوا الرجوع إلى وطنهم فكروا فى ترك أثر يحفظ ذكرهم ويدل عليهم إذا وصل علماء الأجيال المستقبلة إلى مكانهم ، فاتفقوا فيما بينهم أن ينقشوا على الصخور أسمائهم باللغة العربية ، ولما سئل جول فيرن عن سر اختياره اللغة العربية فقال : إنها لغة المستقبل ولا شك فى أن غيرها يموت وتبقى هى حية . .

الأدب

يمثل « الأدب » عصارة التعبير عن النفس الإنسانية العربية فى اتصالها بالـكون والحياة ، ومن هنا كان له طابعه « الذاتى » الذى يتخلف فيه أدب كل أمة عن الأخرى باختلاف الثقافات والمفاهيم والبيئات والمشاعر، ثم هو من ناحية أخرى له طابعه «الإنسانى» حيث يصـــدر عن النفس الإنسانية التى تتشابه فى مقوماتها وتـكوينها وتأثرها بالـكون والحياة .

والأدب العربى على هـــذا المفهوم تعبير عن النفس الإنسانية العربية التى عاشت فى هذه المنطقة من العالم « العربى الإسلامى » والتى كونتها الثقافة والفـكر العربيين الإسلاميين ، ومن هنا كان أدبها منذ قبل الإسلام يحمل طابعاً متميزاً ، وقد وضحت ملامح هذه الصورة بعد الإسلام وتعمقت واتسعت آفاقها فى ظل مفاهيم الفـكر العربى الإسلامى الذى كان عصارة الفـكر الإنسانى متمثلا فى ثقافات الرومان والهنود والفرس واليونان مرتبطاً بأساس الفـكر العربى الإسلامى النابع من الـكتب السماوية والأديان المنزلة والتى تبلورت فى القرآن والإسلام وحملت طابع التوحيد ، وبناء شخصية الإنسان على قاعدة الامتزاج بين العقل والقلب والروح والعلم والدين والدنيا .

ومن هنا كان للادب العربى طابعه الواضح الذى اختلف أختلافا أساسياً عن الأدب اليونانى ، ثم عن الأدب الغربى فيما بعد ، ولقد شهد الباحثون للأدب العربى ومن غير أهله بأصالته وقدرته على تصوير النفس الإنسانية العربية على نحو رفيع ، وأنه رسم صورة واضحة عميقة لشمائل الإنسان العربى فى حروبه ومعاركه وكرمه وأريحيته وفى شجاعته ومواجهته للأحداث .

ومن هنا عرفت أصالة هذا الأدب فى أداء رسالته حتى واجهته أزمة الفـكر العربى

الإسلامى التى مر بها فى فترة الضعف والاضطراب (ولا سيما فى فترة القرون الأربعة الأخيرة (١٥١٧ — ١٩١٧) غير أن الفكر العربى الإسلامى قد استيقظ قبل نهاية القرن التاسع عشر ، ثم تعمقت يقظته حتى أوقت على مظاهر الحياة والحركة بدعوة جمال الدين الأفغانى إلى تحرير الأسلوب وهجر « السجع » والتقليد والزخرف بعد منتصف القرن السابع عشر .

ولم يلبث الأدب العربى أن اتصل بالأدب الغربى اتصالا مضطربا ، لم يقم على أساس الامتصاص أو الاقتباس ، وإنما قام على أساس الغزو ، فإن حركة الترجمة والنقل التى بدأها رفاعة الطهطاوى فى أوائل القرن التاسع عشر والتى حققت نتائج باهرة فى خلال ثلاثة عقود حيث استطاعت أن تترجم وتنقل وتكمل أكثر من ألف مجلد من مختلف الفنون والعلوم والآداب لم تلبث أن تحولت تحولا خطيراً مضطرباً حينما استطاعت حركة التغريب فى أواخر عصر إسماعيل إلى أن تقذف بطائفة من كتاب الشام الذين هاجروا إلى مصر والذين كانوا يعرفون اللغة الفرنسية إلى تمييع الاتصال الفكرى بين الأدب الغربى والأدب العربى حين نقلت هذه الطبقة أكثر من عشرة آلاف قصة داعرة وماجنة وقذرة من الأدب الفرنسى إلى الأدب العربى، وبذلك استطاع التغريب أن يهز قوائم الأدب العربى ومقوماته ومفاهيمه على نحو خطير . فقد كانت القصة الغربية المكشوفة هى أبرز هذه الألوان التى ترجمت ، وكانت تنشر فى مختلف الصحف والمجلات ، وكانت تطبع فى كتب وتوزع بقروش قليله . ومن هنا أمكن أن تصل إلى مختلف الطبقات وأن تؤثر أثاراً لا حد لها فى :

١ — الأدب العربى ، فقد أضافت صوراً بالغة الإثارة للجنس والمرأة والعلاقات بين المرأة والرجل على نحو لم يكن طبيعياً أو موجودا فى البيئة العربية ، فضلا عن تعارضه مع أسلوب الأدب العربى فى مواجهة علاقات الحب والعاطفة وروابط المرأة والرجل . حيث تبدو دائما فى صميم الأدب العربى العبارة العفة والإشارة الرمزية والغزل الفنى والتسامى بالعاطفة دائما إلى خلق الفارس بالإضافة إلى طبيعة التضحية والوفاء والإيمان بالالتقاء بين الرجل والمرأة فى حدود الأنظمة والشرائع .

وقد أدخلت هذه القصص على الأدب العربى صوراً غريبة عليه وعلى النفس الإنسانية العربية أساساً ، فإن معظم القضايا والمشاكل التى تعرضها هذه القصص لم تكن موجودة فى بيئتنا وإذا وجدت فإن حلولها فى هذه القصص لا تتسق مع مفاهيمنا وقيمنا فى حلول المشاكل والقضايا فى ضوء الفكر العربى الإسلامى .

٢ — اللغة العربيه : واجهت أزمة خطيرة . حيث كانت هذه القصص تترجم بأسلوب عامى ، وعلى نحو يزدرى بالفصحى ، ويستعمل كلمات وأساليب وتعابير غاية فى الضعة مما أنزل اللغة العربية عن بلاغتها وأسلوبها السهل الممتع .

٣ ـــ كان لهذه القصص أثرها السيء البعيدة المدى فى التربية والأخلاق والفضائل والقيم ، فقد اهتزت هذه جميعها تحت تأثير الكشف عن الجوانب المضمرة على نحو صريح ، مع العربية ، مما لم يكن متفقا مع القيم العربية ، ومن هنا بدت الرزيلة والفاحشة والجريمة والآثام أموراً مقبولة لا غرابة فيها ، مباحة وليست ممنوعه أو محظورة أو معدودة فى موضع الخطأ أو الحرام .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل بدأت تدخل الأدب العربى فلسفات المذاهب الأدبية الغربية ونظرياته المشتقة من مفاهيمه وقيمه ، هذه الفلسفات التى تجعل من الكشف عن جوانب الجنس فى الأدب الغربى أصولا معترف بها تدرس فى الكليات والجامعات ، لا على أنها نظريات ولكن على أنها أسساً أصولية وقواعد أساسية للادب .

ونحن نعرف أن الأدب الغربى قد قام أساساً معتمداً على الأدب اليونانى وفى ظل مفاهيمه وأساطيره ونظرته التى تؤمن بعبادة الجسد ، وتحض على إطلاق الغرائز ، ولا تجعل للروابط بين المرأة والرجل حدوداً ، فالحب هو تلك الانطلاقة المتصلة بالغريزة والشهوة والتى تصل فى حرية إلى أبعد غاياتها وفق فكر إغريقى له مقوماته فى تعدد الآلهة .

* * *

وعلى هذه الأسس قام الأدب الغربى التى اتخذ من الأدب اليونانى أسسه ودعائمه ، وكان بطبيعته ممثلا للنفس الإنسانية الغربية فى موقفها من الكون والحياة ، وهو موقف يقوم على أساس الصراع بينها وبين الطبيعة ، وفق نظرة مادية لا تعترف بوجود الله

وترى أن الإرادة الفردية الخاصة هي التي تقرر القدر وأنها تتصرف في حرية مطلقة ، وهي تواجه مشكلة المجتمع العربي القائم على النظرة المادية الصرفة ، وعلى أجواء لها طابعها المختلف عن أجواء بلادنا وطبيعتها وطقسها ، حيث تبدو هناك صوره العواصف والبرد والجبال والأمطار والثلوج ، وحيث ترى هناك العلاقات بين المرأة والرجل لها طابعها المتحرر المكشوف المنطلق القائم على الوثنية وحرية العلاقة الجنسية ، وحيث المجتمع يكشف عن صورة الحرمان والشقاء النفسي والقلق والتطلع إلى اللذات وفي عشرات من هذه القصص : البؤساء لهيجو والنور والظلام لتولستوى وتاييس لا ناتول فرانس؛ لا نرى صورة مجتمعنا ولا صورة النفس العربية ولا مفاهيمها ، وكلها تصف أعراض الألم والجوع وقسوة النفس الأوربية والصور المفزعة والآلام البشعة والاضطرابات العقلية والتحلل على نحو لا يعرفه مجتمعنا وحيث تبدو مشكلات القصص الغربي وعقدها مختلفة تماما مع مشكلاتنا .

وليس في مجتمعنا ـ وبالتالى ليس في أدبنا ـ صورة تأسيس مثلا في المتاجرة بالغرائز في ظل الرهبانية وتمجيد الوثنية والأبيقورية واللا إدرية ، وليس لدينا مثل هذه الحيرة ، وليس في مفاهيمنا مثل قول المؤلف « للجسد أن يستسلم للشهوات ثم تبقى النفس طاهرة » .

فالشك والعهر وانكشاف الغريزة ، وتحريك الشهوات على هذا النحو لا يمثل مجتمعنا ولا يمثل النفس العربية . ومن هنا يبدو مدى الأثر الذى كان لحركة التغريب في تفريغ هذه الشحنة الضخمة من القصص الغربي فوق أديم الأدب العربي .

وقد كان هذا الأثر بعيد المدى في تدمير القيم العربية الإسلامية وتطويع الأدب العربي للغزو الفكرى الغربي . وقد وصف الدكتور حسين الهراوى أهداف القصة الغربية في مجال الترجمة إلى الآب العربي فقال : أنها تمثل انتهاك الحرمات ووصف المخازى وتغلب المادة على انقاض الأخلاق . فهي في أساسها تهدف إلى تسلية الجماهير فضلا عن ازدراء روابط الزواج والأسرة .

وقال المازني أن القصص التى ترجمها الدكتور طه حسين كان همه فيها مدح الخيانة

والاعتزاز بالخونة وتصوير الخلاعة والمجون فى صورة جذابة ، ويجمع الباحثون إلى أن تأثر الأدب العربى بالأدب الغربى تم على هذا النحو الذى فرض عليه فى مجال الترجمة للقصة ، ثم فى مجال تعريب هذه القصة وتمصيرها برفع أسماء الأشخاص والأماكن الغربية وإحلال أسماء أشخاص وأماكن عربية بدلا منها مع الاحتفاظ بجوهر القصة .

كما كان ذا أثر نفسى بعيد المدى فى تعميق مفاهيم التغريب إذ كون تياراً جديداً خطير الأثر فى مجال التربية والاختلاق والتكوين النفسى والاجتماعى ، وكان لاختلاط قيم الغرب ومفاهيمه الوثنية والمادية وصوره وأهواءه النابعة من بيئته وأهوائه مع المفاهيم العربية فى محاولة ضخمة لتدمير المقومات الأساسية للامة العربية .

ومن هنـا برز فى الأدب العربى طابع جديد بعيد عن أصالة صورة النفس الإنسانية العربية .

— ٢ —

وكان من أخطر النظريات التى فرضت على « الأدب العربى » نظرية « لا أخلاقية الادب » حيث أخذ الغربيون نظرية أرسطو فى الادب القديم من فصل بين الأدب والأخلاق حين قال إن جمال الأدب لا صلة له بالأخلاق ، وأنه معنى منعزل لا شأن له بأية قيمة خارجية ، وأنه لا دخل للمبادىء فى الأدب ، وقد أعان الأدب الغربى على اعتناق هذا المذهب الاساسى المادى الدورانى الذى أقام عليه بنيانه فى الفـكر والاجتماع والنفس والتربية . وإن هذه العلوم كلها كانت تهدف إلى « تعرية » الإنسان وتصويره بصورة الدوافع الغريزية والتخلص الـكامل من كل ما يقال عن الاخلاق أو الدين أو القيم .

وقد حمل لواء هذه الدعوة أصحاب المذهب الطبيعى الذى يتزعمه أميل زولا(١)

---

(١) محمد مندور — مذاهب الأدب .

والذى يؤمن بأن المسيطر على البشر هو حقائق حياتهم العضوية كالغرائز وحاجات البدن المختلفة . أما الروح فظاهرة ثانوية لا سلطان لها على البشر . ومن هنا فهم يردون تصرفات الإنسان إلى عمل الغرائز الغامضة . ويتصل هذا المذهب بظهور نظرية فرويد المتصلة بالغرائز وحيوانية الإنسان ، وقال أصحاب هذا المذهب أن من حق الأديب أن يصف كل ما يقع للانسان دون أى اعتبار لقيم الأخلاق ومصلحة المجتمع ويرسم إميل زولا فى قصته (جرمينال) أقسى صورة للغرائز الحيوانية .

وقد سيطرت هذه النزعة على الأدب العربى تحت ضغط حملات التغريب وفرضها بعض «قادة الفكر» على دراسات الأدب ، وتكون جيل كامل من الأدباء يجرى فى مجرى التقليد والتقيد بنظريات الأدب الغربى فى دراسات الأدب العربى ويفرضها فرضاً عليه .

ومن هنا تعمق هذا الاتجاه فى الأدب العربى فى ظل مفاهيم كأنها مشروعة ، وظهرت القصة العربية خاضعة لشعارين أساسيين :

١ — النظرية الطبيعية فى الأدب .

٢ — نظرية فرويد فى اعتبار الغرائز هى الدوافع الأساسية لتصرفات الإنسان فى مجال الحب والحياة والعمل .

٣ — مذهب الفن للفن .

وقد استهدفت دعوة التغريب من ذلك تحويل الأدب العربى عن أضخم مجال من مجالاته وهو مجال المقاومة والحرية والوطنية إلى مجال « الذاتية » المتصلة بالغريزة ، المتحررة من قيود الأخلاق .

ويقول محمد مندور فى هذا : أن الوصف فى الشعر لا يخضع لمعايير الأخلاق فلا يوصف بأنه أخلاق أو لا أخلاق ، وعنده أو مذهب الفن للفن لا يعارض الأخلاق لأنه يسعى إلى خلق الجمال فى ذاته وتحرير الفنون ، وأن المذهب الواقعى لا يناهض الأخلاق لأنه وإن كان يحرص على تصوير الجانب المظلم المسف من طبائع البشر إلا أنه لا يخلو من حنو على

هذا الجانب ، وقال: أن هدف الأدب هو فهم النفس البشرية وتحليلها ، وأن الأدب الحديث أدب تحليل لا أدب توجيه ، ومن هنا لا عبرة بارتباطه بالأخلاق . وأن الفن غاية فى ذاته ولا محل للحكم عليه حكما أخلاقيا ؛ ولا شك أن هذه المفاهيم غربية خالصة ولا تتصل بفكرنا العربى الإسلامى أدنى اتصال ، وإذا كانت تعلن فى هذه المرحلة من حياتنا وينادى بها مندور وغيره من الكتاب دعاة التغريب فإنما تهدف إلى صرف الأدب العربى عن مفاهيمه الأساسية وأهدافه الأصيلة وعن مواجهة معركته مع الغزو الغربى فى مختلف صوره ومظاهره .

ولقد كان الأدب العربى دائما هادفا وواقعيا ولكنه كان أخلاقى النظرة ، وليس هناك تعارض بين الكشف عن النفس الإنسانية وتصويرها فنيا مع بقاء خط النظرة الأخلاقية ولكن هذا لا يصدق إلا إذا تحررت النظرة من دوافع التغريب والشعوبية .

أما الإلحاح على النظرة الجنسية وإبرازها وتعميقها على النحو الذى نراه فى الأدب العربى المعاصر فإنه ليس أمرا طبيعيا فى ذاته وليس ممثلا للنفس العربية بمقوماتها ومفاهيمها .

فالصورة التى يرسمها الأدب الجنسى اليوم فى ظل مفاهيمه الواقعية والطبيعية هو فى الواقع بعيد عن الواقع ، إذ يبدو مغرقا فى الرزيلة وتدمير القيم . فالصورة التى يحملها هى صورة إنسان حيوانى الطبع ، تتسلط عليه الغريزة ، وتدفعه فى عنف عاصف . وجموح وإسفاف .

ولا شك أن تعميق هذا التيار على هذا النحو إنما هو عمل تغريبى موجه ، يهدف إلى تدمير القيم الأساسية للنفس الإنسانية العربية فضلا عن تعارضه مع دعوى التحرر والوحدة والإيجابية والتقدمية وهى عناصر بناء الحضارة العربية الجديدة .

وليس صحيحا أن المجتمع العربى قد بلغ هذه الدرجة من الإباحة والكشف كما تصوره هذه الآثار المنسوبة إلى الأدب العربى ، فما تزال قيم الشرف والكرامة والأريحية والعفة من أبرز مقومات حياته وفكره ، فضلا عن أن أساس البناء فى الفكر العربى الحديث يختلف تمام الاختلاف عن أساسه فى الفكر الغربى الذى يجعل المادة والغريزة أساسه ، ذلك أن فكرنا يجعل من عناصر العقل والروح والعاطفة والغريزة والدين والمادة ممتزجة أساساً له ، فضلا عما عرف عنه من طبيعة « السوية » والاعتدال ، والوسط بين الانحراف والجمود وموازاة الروح والحس .

القوميـــــــــــــة

(العروبة والإسلام)

أخطر قضية تواجه فكرنا العربى الإسلامى المعاصر هى قضية « تجزئة المفاهيم » ذلك أن فكرنا يؤمن بترابط عناصر الدين واللغة والتاريخ والتراث والتقائها وامتزاجها فى بوتقه واحدة . وأية ذلك أنك لا تستطيع أن تتحدث عن اللغة العربية منفصلة عن الدين والتاريخ والتراث . وحيث لا يمكن فصل الدين عن التاريخ أو اللغة أو التراث . أو فصل التاريخ عن الدين وهكذا . . ومن هنا تبدو « وحدة الفكر » لا وحدة الجنس .

وفكرنا العربى المعاصر إسلامى بطبيعته ، من حيث أن الإسلام ليس دنيا فحسب ، ولكنه دين وزيادة . ومن هنا يبدو خطأ كل الذين حاولوا أن يطبقوا رأى الفكر الغربى فى « الدين » على الإسلام .

ذلك أن نظرية « الدين » التى كونها الفكر الغربى ، ونقلها دعاة التغريب والشعوبيون إلى فكرنا العربى محاولين فرضها على الإسلام ، هذه النظرية زائفة ، لأنها لا تتخذ تجربتنا ولا حياتنا أساساً لها . وهى بعد منسوجة على مقاس « دين » معين ، دين كريم نبع فى الشرق ، وزحف على الغرب ، فاعتبره الفكر الغربى دخيلا ، وحين قبله لم يسلم به كاملا ولم يأخذ به وحده ، ولكنه أضاف ما قبل منه إلى وثنيته الاغريقية ، ومن هنا نشأت المسيحية الغربية التى عاد الغرب فأنكرها فى ظل حركة الاحياء والنهضة وفى ظل غلبة مفهوم المادية الدارونية وسيطرتها على جميع مفاهيم الفكر الغربى التى تقوم اليوم أساساً على المفهوم المادى سواء فى الفلسفة أو التربية أو الاقتصاد أو الاجتماع أو النفس .

ومن هنا كان الغرب منسجما مع فكره ، حين اتخذ المادية الدارونية قاعدة له وأقام عليها كل فكره . هنا بدت وحدة الفكر عنده واضحة . ومن هنا كانت نظرة الغرب

إلى « الدين » مستمدة من تجربته من المسيحية الغربية التى ابتدعها والتى وقفت أمام نهضته وقاومت حريته فى التطور العقلى والعلمى .

ومن هنا يبدو الخطأ الواضح والخلط المبين فى الحديث عن « الدين » مستمدا من نظرية الغرب ، فليس الإسلام أساساً دينا فحسب ، وليس هو دين الروحانية التى يمكن أن تؤخذ لجانب مماثل للمادية الغربية كما يحاول التغريب أن يصوره . وإنما كان الإسلام دين وفلسفة وحضارة ومجتمع . ومن هنا تظهر روحه واضحة متصلة فى مختلف مقومات الفكر العربى ، فمن قال أن الإسلام دين فحسب فقد قصد جانبا واحداً ، ووقف عند « جزئية » من جزئيات الإسلام .

والغربيون واتباعهم من دعاة التغريب والشعوبية على أن الإسلام « دين » يتمثل فيه الجانب الروحى وحده وهم بذلك يقعون فى خطأ لا حد له ، حين يتعرضون لعديد من قضايا الفكر والقومية والتربية والأدب .

والحق الذى يجب أن يكون معروفا فى هذا المجال : أن الدين جزء من الإسلام ، ولذلك يجب أن يصرف النظر نهائيا عن هذه النظرية المغلوطة والمفهوم الخاطىء وهو أن كلمة الإسلام تعنى الدين كما تعنى المسيحية أو اليهودية أو غيرها .

وتفصيل ذلك أن الإسلام إلى جانب أنه دين للمسلم فهو فكر وثقافة وحضارة شارك فيها العالم الإسلامى كله بمختلف أجناسه وأديانه وعقائده ، فقد انصبت كل هذه الثقافات الهندية والفارسية والرومانية والمسيحية والاغريقية فى بوتقه الفكر الواحد الذى صاغ منها هذه المفاهيم . والمسيحيون فى العالم العربى مشاركون فى هذا الفكر واللغة والتراث ولذلك فكل مسيحى تتكون ثقافته من تعاليم دينه المسيحى وثقافة الإسلام ، هذه القيم الفكرية التى هى قيم كل مسلم ومسيحى ويهودى ، فضلا عن تشابه القيم الروحية بين الإسلام والمسيحية فى أن كلاهما رسالة السماء وهدفها الحق والخير والعدل والحرية .

ومن هذه القيم والمعانى التى تبلورت فى بوتقة الفكر العربى الإسلامى تبدو وحدة الفكر مقدمة على وحدة الجنس وهى التى تصوغ « روح الأمة » ولقد افصح الكثيرون من الكتاب المنصفين عن هذا المعنى . ومن هنا يبدو الخطر البالغ الذى نواجهه فى تجزئة المفاهيم ، فإن وحدة فكرنا هنا تتمثل فى امتزاج القيم واندماجها ، فنحن نؤمن بالروح والمادة

والعقل والقلب والدين والدنيا ، وليس فكرنا العربى الإسلامى روحيا خالصا ، وليس ماديا خالصا ، ومن هنا تبدو خطورة الفصل بين القيم أو تجزئة المفاهيم ، فلقد كانت نظرتنا إنسانية شاملة . تمتزج فيها العروبة والإسلام ولا ينفصلان .

ولم تكن نظرية الفصل بينهما إلا من مؤامرات التغريب والشعوبية التى تستهدف دائما تجزئة المفاهيم والفصل بين القيم . ولقد كان علينا أن نواجه دائما المفهوم الغربى لكل قضية من قضايانا ، وأن يفرض علينا هذا المفهوم على أنه المفهوم الصحيح ، لقد مر العالم العربى بمراحل متعددة فى العمل من أجل تحرير نفسه وبلاده وفكره من النفوذ الغربى ، مر بمرحلة الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية والوحدة العربية . ومهما يكن من أهداف ودوافع وراء إثارة عشرات الدعوات والقضايا فى افق العالم العربى والإسلامى ، فإن الفكر العربى الإسلامى كان دائما قادراً على هضم هذه الدعوات وتقبلها دون أن يدعها تمزقه أو تحقق هدفها التغريبى فى القضاء عليه .

ولقد اصطدمت دعوات الفرعونية والفينيقية والبابلية والاشورية والبربرية أعواما طويلة ثم اكتشف الفكر العربى الإسلامى أنها جميعا جذوراً عربية فقد كانت كلها موجات خرجت من الجزيرة العربية وانبثت فى الافاق .

وربما كانت دعوة التغريب بمخططاتها الداعية إلى القضاء على وحدة العالم العربى الإسلامى قد قضت بالتفرقة بين العرب والترك وإثارة دعوات مسمومة فى كلا الجانبين مما استهدف تدمير هذا البناء الشامخ الذى كان يتمثل فى الدولة العثمانية التى كانت تمثل وحدة العالم الإسلامى .

وإذا كانت الأمة العربية قد وجدت فى دعوة القومية التى تأثرها العالم إذ ذاك وسيلة للترابط بين أجزاء الأمة العربية فى مواجهة النفوذ الأجنبى واتخاذه « عدة مقاومة » لعوامل التمزيق والتجزئة ، فإنها بذلك قد فوتت هدف النفوذ الأجنبى من اتخاذ هذه الدعوة وسيلة للصراع بين العالمين العربى والإسلامى . غير أن النفوذ الأجنبى فى مجال الفكر أراد أن يفرض على « القومية » مفهومه الغربى لها حتى يثير من جديد خلافات جذرية بين العروبة والإسلام ، محاولا أن يجعل منهما قضيتين منفصلتين . ومن هنا كانت

الدعوة الضاغطة الزائفة ذات المنابر والأقلام المشبوهة ، وهى التفسير الغربى للقومية ، والذى يقول « قومية من غير دين » أو أن الدين ليس مقوما من مقومات القومية . والدين هنا هو « الإسلام » .

وإذا كان من حقنا أن نجرى مع الفكر الغربى فى حلبة الفكر الإنسانى فإن من حقنا أن يكون للقيم مفهومها المستمد من فكرنا وتاريخنا وتجربتنا . وأن لا يفرض علينا مفهوم الغرب لها . ومن هنا بدأت مراجعة النظرية التى تقول بأن اللغة والتاريخ من مقومات القومية ، وأن الدين ليس مقوما .

ونحن نعرف لماذا جحد الغرب دينه وأبعده عن مقومات القومية ، ولذلك فإن رأى الغرب فى دينه أساساً لا ينطبق علينا ، والإسلام الذى يراد أن تطبق عليه النظرية ليس دينا فحسب ، وإنما هو فكر وثقافة ، وأنه لا سبيل إلى الفصل بينه وبين اللغة والتاريخ . بل إن هذه اللغة تكاد تكون مرتبطة به ارتباطا جذريا وكذلك التاريخ فإنه من العسير جداً أن يفصل عن اللغة العربية كما لا يمكن أن ينفصل التاريخ واللغة عن الإسلام الذى يكاد يكون مادة هذا التاريخ ، وروح هذه اللغة ، كما يكاد يكون كتابه « القرآن » أكبر مصادر اللغة فى منطوقها وعلومها .

ومن هنا تبدو حقيقة ما ذهبنا إليه من أن القومية العربية تقوم أساساً على وحدة الفكر لا وحدة الجنس . ومن هنا يسقط الرأى القائل بأن الدين ليس مقوما من مقومات القومية ، بالنسبة للاسلام لأن الإسلام ليس دينا ولأن الفكر العربى الإسلامى مترابط فى مفاهيمه إلى الحد الذى لا يمكن الفصل فيها بين اللغة والدين والتاريخ والتراث . والفكر العربى الإسلامى هو الذى أعطى الأمة العربية قوتها ، وهو الذى دفعها إلى الآفاق وحقق لها بناء هـذه الحضارة العظيمة وقيام الدولة الضخمة فى أقل من قرن من الزمان .

ومن هنا تبدو العروبة والإسلام كشقين لحقيقة واحدة ، وأن التغريب فى دعواه إلى تجزئة المفاهيم يحاول أن يقيم الشبهات والشكوك ، ولقد كانت العروبة والإسلام متفقتان منذ قرون على مفهوم واضح عميق مستمد من مقومات الفكر العربى الإسلامى ، ولقد كانت روح الإسلام فى تاريخ العرب قوة دافعة فى النضال ومقوم أساسى لبناء المجتمع : عقيدة جهاد

وقوة عمل ، وحركة دافعة متطورة لا تجمد ولا تتوقف ولا تنطوى على نفسها ، وقد كان الإسلام قابلا للتطور لا يقف فى وجه الحضارات والنهضات بل يواجهها بآفاق مفتوحة يأخذ وتعطى، ولم يعرف الإسلام بغض العناصر الأخرى وقد اتسعت آفاق عالمه لمن لا يؤمنون به فعاشوا فى سماحة غير مكرهين على رأى أو عقيدة ، وليس دليل على هذه السماحة من وجود أقلية عربية غير مسلمة لا تحس بالضغط ولا الاضطهاد ، لأنها مشاركة أساساً مشاركة فعلية فى مقومات الفكر العربى الإسلامى تعتنقه فكراً لها وتراه بعد الدين عقيدة فكر وأيدلوجية حياة .

ومن هنا يبدو ذلك التماثل الفكرى والوحدة الثقافية إزاء كل مواقف التاريخ وأحداثه .

فالعروبة والإسلام ممتزجان مرتبطان كوجهى عملة واحدة وإذا كانت العروبة جسما فإن روحه الإسلام بهذا المفهوم :

ويصور هذا المعنى كاتب مسيحى معروف فيرى أن الفكرة القومية المجردة فى الغرب منطقية إذ تقرر انفصال القومية عن الدين ، لأن الدين دخل على أوربا من الخارج فهو أجنبى عن طبيعتها وتاريخها ، وهو خلاصة من العقائد الأخروية والأخلاق لم ينزل بلغاتهم القومية ولا أفصح عن حاجات بيئتهم ولا امتزج بتاريخهم . فى حين أن الإسلام بالنسبة إلى العرب ليس عقيدة أخروية فحسب ، ولا هو أخلاق مجردة بل هو أجلى مفصح عن شعورهم الكونى ونظرتهم إلى الحياة وأقوى تعبير عن وجوه شخصيتهم التى يندمج فيها اللفظ بالشعور والفكر والتأمل بالعمل والنفس بالقدر وهو فوق ذلك كله أروع صورة للغتهم وأدبهم وأضخم قطعة من تاريخهم القومى ، فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذاً كعلاقة أى دين بأية قومية ، وسوف يعرف المسيحيون العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يقظتها التامة ويسترجعون طبعهم الأصيل ، إن الإسلام لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها حتى يفهموها ويحبوها فيحرصوا على الإسلام حرصهم على أثمن شىء فى عروبتهم[1] » ومن هذا النص ومثله كثير يتأكد به المفهوم القائل بأن وحدة الفكر العربى الإسلامى هى التى ربطت العربى غير المسلم بالمسلم العربى فى قيم أساسية ومقومات أصيلة وأن محاولة فرض المضمون الغربى أو المفهوم الغربى للقومية هو إحدى محاولات التغريب والشعوبية .

---

(١) ذكرى الرسول العربى : ميشيل عفلق .

فالفكر العربى الإسلامى يشمل العروبة والإسلام والمسيحية جميعا ، وأن نصرانية الدين لا تحول دون إسلامية الفكر ، وأن العروبة لا تصارع الإسلام ولا تقف فى الوجه المضاد . وأن التجربة الغربية للدين والقومية قد تؤخذ مأخذ الاعتبار ولكن لا تؤخذ مأخذ التطبيق ،فإن مفاهيم فكرنا العربى الإسلامى تختلف فى جذورها عن مفاهيم الفكر الغربى أساسا .

والإسلام لا ينفصل عن اللغة والتاريخ والتراث فى الفكر العربى الإسلامى ولا يمكن أن يكون هناك فكر عربى منفصل عن الفكر العربى الإسلامى ولا تاريخ عربى منفصل عن الفكر العربى الإسلامى ولا تستطيع اللغة العربية أن تنفصل عنه أيضا .

فلا تاريخ للعرب إلا التاريخ العربى الإسلامى والإسلام هو ميدان التاريخ العربى والإسلام هو صانع العروبة ومقيم أسسها .

وآية وحدة الفكر العربى والإسلامى هو ذلك الانفعال الوجدانى الواحد أمام الأخطار والأحداث والتاريخ والغزو الصليبى والفكرى؛ وقد أفصح حبيب كحالة عن وحدة الفكر بين الإسلام والمسيحية حين قال « كما التقت النصرانية والإسلام فى طريق الدين ، فقد التقتا أيضا فى الأدب والشعر والعلوم والفنون ، وفى كل ما يدعم صرح الحضارة فقد تعاون المسلمون والنصارى تعاونا وثيقا فى هذا المضمار .

وقد كان بين النصارى شعراء أفذاذ وعلماء جهابذة كبار وأدباء وكتاب ساهموا كثيرا فى رفع منارة الشعر العربى ، ونقل العلوم والفنون إلى العربية ، وكانت لهم مكانة رفيعة فى قلوب الخلفاء . وفى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصبيعة الشىء الكثير عن هذه المحاسن وذلك التماسك والتكاتف فالأخطل وآل بختيشوع سلالة جورجيس ، وآل حنين سلامه حنين ابن إسحق ، ويوحنا بن ماسويه وابن البطريق ويوحنا الدمشقى[1] » .

---

(١) مجلة حضارة الإسلام (يناير ١٩٦١) .

— ٨ —

نظرية الأجناس : السامية والآرية

من أفكار التغريب التى استأثرت بقدر كبير من التوجيه والاهتمام ، فكرة الأجناس السامية والآرية ، ومحاولة إعطاء الأجناس الآرية كل مزايا النبوغ والعبقرية وشجب هذه المزايا عن الأجناس السامية ، وذلك فى مجال الانتقاص من الامة العربية وفكرها وثقافتها ، ومحاولة الفصل بين العرب والفرس والهنود الذين جمعتهم ثقافة واحدة ، باعتبار أن الفرس والهنود من الجنس الآرى ، وأن العرب من الجنس السامى ، وإقامة الحجة على أساس أن العبقرية والنبوغ تتبعان العرق والدم وهى دعوة عنصرية أساساً لم يثبت سلامتها علميا ولا تاريخيا .

وقد حاول فريق من كتابنا الربط بين العبقرية أو العظمة عند طائفة من الشعراء وبين الجنس ، ناسبا سر عظمتهم إلى أجناسهم الآرية . فابن الرومى من أصل رومى وبشار بن برد من أصل فارسى ، إذن فعبقرية كل منهما يمكن أن تعزى إلى دمهما الآرى ، وابن الرومى قد تفرد بفن جديد من فنون الوصف فى شعره لم يسبقه إليه شاعر آخر فلا بد أن يكون مصدر ذلك عقليته الآرية . هكذا قال سليمان البستانى فى الإلياذة وقال العقاد : أما بشار بن برد فقد جدد أساليب الشعر تجديدا لم يكن أساسه الخيال ، ويرجع ذلك فى تقدير إسماعيل مظهر إلى عقلية آرية موروثة عن أب فارسى جعلته ينزع إلى الواقع المحسوس .

وقد جرى هذا القول فى ظل تيار تغريبى كان قد بلغ مداه فى الثلاثينات من هذا القرن حيث أثيرت هذه النظرية ووسع نطاقها من أجل اتهام العرب والمسلمين بالقصور عن عقلية الغرب ، ووصفت العقلية السامية بالغيبيات والإسراف فى الخيال . وقد استهدفت هذه النظرية أساساً هدم كيان الشخصية العربية القائمة على أساس الفكر العربى الإسلامى وقيمه وتراثه فى ميادين اللغة والتاريخ والدين .

وقد حمل لواء هذه الدعوة فى أول الأمر كاتبان غربيان هما جو بينو وريناں ، وتقوم

النظرية على وجود فوارق طبيعية بين اللغات السامية والآرية ، وقد أسرع النفوذ الغربى والمخطط الاستعمارى يعمق هذه النظرية ويوسع نطاقها ويبنى عليها فكرة اختلاف العقل والفكر وتميز الرجل الأبيض الآرى الذى حمل لواء الحضارة، وترى هذه النظريه أن هناك اختلافات جوهرية : جسمانيةوذهنية بين الأجناس البشرية وبين الآريين والساميين بالذات.

وقد اتصل هذا بمحاولة لتفسير التاريخ تفسيرا يقوم على أساس محتوم هو انتقاص كل سامى ورفع كل ما هو آرى ، واتصل هذا بالأدب العربى ، فجرى البحث عن شخصيات ليست عربية أساساً لمحاولة إبراز النظرية من خلالها .

وقد أشار الكونت دى جو بينو الفرنسى عام ١٨٥٨ أنه ما دام هناك شعوب عليا وما دام قانون الطبيعة يعطى الغلبة للآرى المتفوق فإن من حقه أن تكون له السيطرة وأن يقبض بيده على مقدرات العالم . وريتان أول من قرر بأن الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى ، ويقول ليون غوتييه تلميذ رينان أن العقليه السامية وبالتالى العقلية العربية هى عقلية مفرقة فى مقابل العقلية الآرية وهى عقلية مجمعة أو موحدة ، وأن الفكر الآرى عقلانى تفسيرى وأن الفكر السامى غيبى معجزى .

* * *

ولا نطيل فى تصوير تطور هذه النظرية فليس هذا مكانها ، وإنما نحن نعرض لها هنا فيما يتصل بالفكر العربى الإسلامى ، ولقد أثبتت الأبحاث المنصفة أن هذه النظرية لم تكن فى الواقع نظرية علمية وإنما كانت نظرية سياسية أريد بها تثبيت قوائم الاستعمار عن طريق الفت فى عضد الملونين فى آسيا وأفريقيا ومحاولة تحطيم معنوياتهم الفكرية فى مجال الغزو الثقافى والفكرى الذى أطلق عليه « حركة التغريب » .

ولقد عورضت هذه النظرية معارضة علمية من كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم ، وآخر ما كتب فى هذا كتاب : نحن الأوربيون (we uropeans) الذى كتبه جوليان هكسلى و ا . هادون وقد استعرض نظرية الجنس والسلالة ، وعارضها بالنظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الإنسان وما يكتنف تكوين الأمم من العوامل ، وخلص إلى القول بأن نظرية الجنس والسلالة ليست سوى علم مزعوم تستتر

وراءه غايات سياسية . وقد أشار كثير من العلماء إلى أن حضارة مصر وفينيقية وبابل والصين هى من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ،ومع ذلك فإن الأجناس الآرية لا علاقة لها بها . وشهد الكتاب بأن الحضارة التى أنشأها من يسمون بالشعوب السامية أعظم أثرا وأطول عمرا من الحضارة التى أنشأها ما يسمى بالأجناس الآرية ، وضرب المثل أيضا بأن بلاد السويد والنرويج والتى يعدأهلها المثل الأعلى للجنس الآرى لم ينشئوا حضارة ما ، وأن الحضارة الحديثة قد قامت دعائمها فى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وشعوبها ليسوا من الجنس الآرى بل إن بعض العلماء قد ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن وجود جنس آرى بدائى موضع شك عدد كبير من العلماء ، وأن الأمر فى هذه النظرية يرجع فى الأغلب إلى ما وجد من مشابهات بين اللغات الهندية واللغات الأوربية قبل نحو مائة وخمسين عاما . وقد أكد العلماء على أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل ، وأن اللغات قد تنتقل من أمة إلى أمة دون أن تكون منهما علائق نسلية .

والرأى الآن أن« البيئة الحضارية» لا السلالة هى الأساس ، وأن الوراثة العرقية أو وراثة الدم لا تؤثر فى الاستعداد العام أو الذكاء الفطرى وأن العبرة بالبيئة ، فقد ثبت أن وحدة الموروثات فى التوائم التى خرجت من بويضة واحدة وبالتالى التى لها استعدادات عقلية واحدة ، لا تستلزم وحدة النتائج فى اختبارات الذكاء ، فى حين أن وحدة ظروف البيئة تحقق ذلك . ومن هنا وجد أن كثيراً من عباقرة ومفكرى الإسلام قد انحدروا من أصول غير عربية . وأن الأمم التى دخلت فى الإسلام لم تظل هى نفسها كما كانت من قبل ، فقد تحولت بفعل البيئة الجديدة والفكر الجديد إلى قوم جدد[1] .

ومن هنا كانت العبرة بالبيئة لا بالدم فإن من أقام فى بيئة معينة وعاش حياة مجتمعها وتكلم لغتها وأحس إحساسها كان منها باللغة والمكان والإحساس وهى فى مجموعها روابط أشد أصالة من روابط الدم ، وبذلك استحال أن تكون الأنساب اللغوية أنسابا للأمم التى تتكلم بها وأن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل أو النسل . وقد أسماها (جان فينو)

---

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا (مجلة العربى) تشرين الأول ١٩٦٠ .

خرافات ومزاعم باطلة وقال (دينكير ـ Donicker) فى كتابه : « الأقوام والعروق » إنه لا يوجد جنس — أى عرق — آرى ، وأن كل ما هنالك عبارة عن فصيلة لغات آرية والرأى مجمع على أن عقلية الإنسان ونفسيته من محصولات حياته الاجتماعية لامن موروثات دمه المادية وبالنسبة لابن الرومى أو بشار ، فقد نشأ كلا منهما فى بيئة عربية ، وابن الرومى لم يكن يعرف اللغة اليونانية وكذلك أبوه ، وقد تكونت عبقريتهما من عوامل البيئة وعناصر الشخصية[1] .

وأن تاريخ آدات الأمم الأوربية لا تخلو من ذكر أدباء وشعراء وعظام منحدرين من أنسال أجنبية عن الأمة التى نشأوا بها ومع ذلك لا يقدم مفكروا تلك الأمم على إرجاع مزاياهم إلى نوع الدم الذى يجرى فى عروقهم .

أما اتصاف العقلية الآرية بالبعد عن الخيال والنزوع إلى الواقع المحسوس ، فقد كذبه ما عرف من شعراء الفرس من علو فى الخيال ، وقد أورد ساطع الحصرى نموذجا لذلك فى مدحهم الملوك بأنهم يستطيعون اقتلاع النجوم من السماء ليرصعوا بها سيوفهم .

أما اتهام العقل السامى بالغيبيات ، فقد كذبته كل الأدلة ، وأن ما عرف عن ابن الهيثم وابن حزم وجابر بن حيان وغيرهم من منهج علمى — بهر الفكر الغربى حتى اليوم — يرد هذا القول ، وقد أدلى أرنست رينان بشهادة منصفة فى هذا المجال فقال : « أن للساميين عقلية عملية رياضية تنفى الأساطير والغيبيات » .

* * *

ويقول ساطع الحصرى فى دراسة له[2] فى هذا المجال : إن فكرة الجنس الآرى تولدت من اكتساب بعض التشابه بين اللغات الهندية واللغات الآرية فى أوائل القرن الماضى فقدقارن (شله جل ـ Cehlaogal)عام ١٨٠٨ اللغة السانسكريتية باللغة الألمانية فوجد بعض المشابهات فى أصولها فاستدل من هذه القرابة اللغوية على وجود قرابة نسلية

---

(١) الدكتور عمر فروخ — /ك/ ابن الرومى .
(٢) مجلة التربية والتعليم (بغداد) ١٩٢٨ م .

بين الأقوام الهندية والأقوام الجرمانية وأوجد بذلك فكرة العرق الهندو جرمانى .

استدلوا على وجود قرابة نسلية ليس بين الأقوام الهندية وبين الأقوام الجرمانية فحسب . بل بينها وبين سائر الأقوام الآرية ثم اختاروا كلمة(آريان) المذكورة فى الكتاب المقدس القديمة وانتشرت النظرية بتأثير بعض العوامل السياسية التى وجدتها ملائمة لأهوائها من جهة أخرى .

لكن الفكرة لم تتأيد قط بالتدقيقات العلمية الحقيقية،وإنما برهنت التدقيقات الواقعة على أن وحدة اللغه لا تدل على وحدة الأصل والنسل . وأن اللغات قد تنتقل من أمة إلى أمة عن غير أن يكون بها علائق نسلية . فالفرض القائل بقرابة تلك الأمم من حيث النسل والدم إنما هو فرض ، وأنه لا يستند على أسس علمية . وقال (ده نيكر) : فى كتابه الأقوام والأجناس : أنه لا يوجد جنس ـ أى عرق ـ آرى وأن كل ما هنالك إنما هو فصيلة لغات آرية وربما حضارة آريه .

وقال (مه بيه) فى كتابه لغات العالم : كثيرا ما نتكلم عن أقوام رومانية وجنس سلافى ونموذج آرى، ولكن هذه التعبيرات عارية عن معان واضحة صحيحة ، وقال (ماكس موللر) : « إن العالم الأتنولوجى الذى يبحث عن عرق آرى ودم آرى وعيون آريه وشعر آرى ، يرتكب هرطقة لا تقل سخافتها عن سخافة العالم اللغوى الذى يجرؤ على التكلم عن قاموس مستطيل الرأى أو نحو قصير الرأى .

وقال (مار) : إن الجنس الآرى من مخترعات اللغويين .

وجملة القول أن الحضارة العربية التى أنشأها العقل الموصوف بالسامى قد امتدت من الأندلس إلى الصين وكان لها طابعها المميز فى كل مجالات الإنشاء والبناء والعلوم ، وقد انصهرت فيها خلاصات الثقافات وعصارات الحضارات الهندية والمسيحية واليونانية والرومانية وحولتها إلى كيانها وصهرتها فى بوتقتها ، وأنشأت حضارة عرفت بالإيجابية والبناء ، وكانت آثارها واضحة فى جامعات القاهرة وبغداد وقرطبة وكانت هى الأساس الأول الذى قامت عليه النهضة فى أوربا .

× الفراعنة والفينيقيون روافد عربية .

وفى مجال « تزييف الحقائق » الذى رسمه الغزو الأجنبى للفكر العربى الإسلامى محاولة فرض نظرية « التأكيد على إقليمية الفكر » تحت اسم حضارات وثقافات قديمة ، مستهدفة ربط بعض أجزاء الأمة بها كالفرعونية والفينيقية والبربريه ، وقد جرى فى هذا التيار كثيرون غفلة منهم أو جهلا بالحقائق ، دون أن يتنبهوا إلى ما تهدف إليه هذه الدعوات . غير أن الحقائق لم تلبث أن انكشفت عن أن كل هذه التيارات ليست إلا روافد من نهر الأمة العربية الكبير .

١ — وفى أكثر من دراسة لباحثين فى التاريخ والآثار تأيد الرأى القائل بأن الفراعنة عرب ، وأن كثيرا من علماء الألمان يشاركهم أحمد كمال (باشا) الأثرى المصرى الأول ، وأحمد زكى (باشا) الملقب بشيخ العروبة . على أن المصريين جاءوا إما من برزخ السويس أو من جهة باب المندب ، وأن أهل مصر أصلا من عرب الشمال (الحجاز ونجد وبادية الشام) ويرى بروكش الألمانى وايبرى ولوث وليبلن النرويجى أن عرب الجنوب جاءوا عن طريق اليمن . ويزيد أحمد كمال باشا على ذلك بأن اللغات المصرية والإفريقية هى من أصل عربى ويقول « فاللغة المصرية ما هى إلا لغة قبائل الأعناء التى سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم ، هى أصل اللغة العربية بلا مراء » وقد أرجع كل كلمات اللغة المصرية القديمة إلى اللغة العربية وأكد نظرية مجىء المصريين الأقدمين من بلاد العرب من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر . وقال فى النهاية أن العنصرين المصرى والعربى يرجعان إلى أصل واحد ولغة واحدة .

وأشار جبر ضومط فى كتابه « فلسفة اللغة العربية » إلى رأى أحمد كمال باشا وقال أن الباحث العالم أظهر لنا عمق الاتحاد بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة وألف قاموساً كبيرا أورد فيه ألوفا من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية المصرية فى الغالب ، إما موافقة تامة أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والإبدال المعهود مثله فى اللغتين ، وقال إن أحمد كمال يرى أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالعلم الهيروغليفى ، ومن لوازم هذا أن أصحاب المدنية كانوا من العرب .

والمعروف أن أحمد كمال باشا وهو أول أثرى مصرى قد ألف قاموسا فى ٢٢ مجلدا ضخما قضى فى تأليفه ربع قرن ، وما زال مخطوطا لدى نجله الدكتور محرم كمال عالم الآثار الكبير ، وجملة قوله أن أغلب اللغة التى استعملها قدماء المصريين عربية الأصل لفظا ومعنى ، فضلا عن أنها شبيهة بالعربية التى نستعملها اليوم وأن لغة المصريين القدماء هى لغة جزيرة العرب لا تختلف إحداها عن الأخرى إلا بالإمالات وبعض المترادفات فهما لهجتان فى لغة واحدة .

وجمة القول فى هذا أن المصريين جنسا من العرب ولغتهم جزء من اللغة العربية .

٢ — أما « الفينيقية » فهى دعوى كالفرعونية تماما ، استغلها الغزو الثقافى الغربى لتمزيق وحدة الفكر العربى الإسلامى ، وقد كشفت أبحاث التاريخ والآثار معا على أن الفينيقيين عرب ، وأن فينيقيا لفظ يونانى معناه النخلة وضعه الأغارقة بعد أن زاروا هذه المنطقة الممتدة من أنطاكية شمالا إلى غزة جنوبا ، فقد هتفوا عند ما شاهدوا « النخلة » : « فينيكيا » وتناول شعرائهم وكتابهم هذا الاسم فتداوله ، وذكره هوميروس فى شعره وهيرودت فى كتاباته وبطليموس الجغرافى الفلكى فى أبحاثه .

وجملة القول فى هذا أن جماعة من عرب البحرين قحطانية الأصل هاجروا فى الخليج الفارسى قبل المسيح بألف سنة ، فأقاموا قريبا من مدينة بابل — على رواية أحمد زكى باشا — ثم ساحوا إلى الشمال إلى شاطىء بحر الشام فأسسوا طرابلس وبيروت وصور وصيدا وعكا وحيفا . وقد وجد الباحثون فعلا تشابها كاملا بين حضارة البحرين وحضارة لبنان وفلسطين مما أكد أن الحضارتين مرتبطتين برباط وثيق .

وقد ذكر هيرودت « المؤرخ » صراحة وبصيغة التوكيد أن الفينيقيين جاءوا من الخليج الفارسى واستقروا فى ساحل الشام ، وذكر استرابون « الأثرى » أن قبور البحرين مشابهة لأجداث الفينيقيين وبذلك تجمع مراجعات على التاريخ والآثار على أن اللبنانيين قحطانيون عربا من أهل الجزيرة العربية أصلا .

٣ — وبالنسبة للبربر نرى أغلب المؤرخين على الرأى القائل بأن البربر فى عمومهم أمة يمنية عارية قحطانية نزحوا من الجزيرة العربية إلى السودان والمغرب والأندلس وجزائر

البحر المتوسط ، وأن هذه الأمة العاربة القحطانية قامت بأول فتح عربى للمغرب ، ونشرت العمران بالدم العربى القح فى ديار المغرب وسجلت لأول مرة ونهائيا عقد ملكية المغرب للعروبة على حد تعبير (عثمان الكعاك) فى كتابه البربر ، حيث يرى أن النسابة للبربر (من ابن حزم إلى ابن خلدون) لا يجعلون للبربر عرقا فى غير حمير ، وأن البربر يكرهون جدا إلى اليوم أن يقال إنهم بربر ويسمون أنفسهم (أمازيع) أى أشراف . وقد رد كثير من الباحثين العرب والاجانب المنصفين الرأى القائل بأن البربر من أصل لاتينى ، وقالوا إنه لم يقم عليه دليل يؤبه له من العلم أو التاريخ .

ويقول المؤرخ « حسن السائح » من كتاب المغرب « إن الذين يدرسون اللغة البربرية يشهدون لها ، بأنه لا مجال للشك فى انتسابها إلى الأرومة السامية التى لا تجمع البربر والعرب جمعا لغويا فقط ، بل تجمع بينهما جنسيا وسلاليا وأن اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كأختها العربية وهى من اللغات السامية المعبر عنها فى تاريخ اللغات (Pratosemitique) وهى تتشابه مع العربية فى كثير من المفردات وأصل الاشتقاق ومخارج الحروف ، وقد لقحت هذه اللغة مرة أخرى بالقحطانية بعد جلاء يهود خيبر عن ضواحى يثرب وإقامتهم بشمال أفريقيا ، كما نقحت قبل ذلك بالعربية قبل الميلاد بخمسة قرون أى عام ٤٨٠ ق . م حيث هاجرت قبائل كنعانية عربية إلى بلاد أفريقيا » .

ومن هنا تبدو هذه الدعوات الثلاث وقد انهارت أمام الحقائق التاريخية التى تؤكد وحدة الفكر العربى الإسلامى بوحدة هذه الروافد مع نهر الأمة العربية الكبير .

● الفراعنة عرب عرباء : أحمد زكى باشا · ١٣ أكتوبر ١٩٢٩ المقطم .
● الفينيقيون ومفاخرهم : المقتطف مارس ١٨٨٨ .
● جبر ضومط : المنار م ١٥ .
● (كتاب) البربر : عثمان الكعاك :

موضوعات البحث

ثبت المراجع

موسوعة مقارنة الأديان (٤ مجلدات) .... الدكتور أحمد شلبي

كتب غيرت العالم ....

هؤلاء علمونى .... سلامه موسى

آراء فلسفية فى أزمة العصر ....

الماسونية .... الدكتور أحمد زكى أبو شادى

المادية الجدلية وفلسفة الماركسية ....

الإسلام والنصرانية .... محمد عبده

الصهيونية والماسونية ....

الخطر اليهودى وبروتوكولات صهيون .... محمد خليفة التونسى

آراء وأحاديث فى الوطنية والقومية .... ساطع الحصرى

اسرائيليات (كتاب الهلال) .... أحمد بهاء الدين

الفكر العربى ومكانه فى التاريخ .... ديلاس أوليرى

فى سبيل البعث .... ميشيل عفلق

المسيحية والقومية العربية ....

الاقليمية : جذورها وبذورها .... ساطع الحصرى

إتجاه الموجات العربية فى جزيرة العرب .... محب الدين الخطيب

فلسفة القومية .... أحمد خاكى

أضواء على التاريخ الإسلامى .... فتحى عثمان

فلسفة التاريخ .... غوستاف لوبون

أثر الشرق فى الغرب .... الدكتور فؤاد حسين على

المجتمع العربى فى العصور الوسطى .... ادوار وليم لين

الطاقة الإنسانية .... أحمد حسين

فلسفة الحضارة .... ألبرت اسفيتسر

نظرات فى الثقافة .... هارى شابيرو

الإسلام اليوم وغدا .... (مجموعة من العلماء)

التربية والأخلاق ... ... يعقوب فام
آراء فى التربية والتعليم ... ... ساطع الحصرى
العلم والديموقراطية ... . همايون كبير
المجتمع الإسلامى ... ... الدكتور أحمد شلبى
الاستعمار ... ... الأمير مصطفى الشهابى
الإسلام والقومية العربية (مجموعة أبحاث) ... ... الدكتور أحمد الحوفى
ديموقراطية جديدة ... ... أحمد جمال الدين
الدين والميثاق ... ... أحمد الشرباصى
مصير الأديان فى النظام الشيوعى ... ... سامى عاشور
بين الديانات والحضارات ... ... طه المدور
نشأة الدين ... ... على سامى النشار
من هنا نبدأ ... ... خالد محمد خالد
ايدلوجيه عربية جديدة ... ... مصطفى السحرتى
تقويم الفكر الدينى ... ... محمود الشرقاوى
تاريخ الإنسانية ... ... أحمد حسين
الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة ... ... مالك بن نبى
الاسلام بين الانصاف والجحود ... ... محمد عبد الغنى حسن
الإسلام فى التاريخ الحديث ... ... ولفرد كانتول سميث
ما هى القومية ... ... ساطع الحصرى
دراسات إسلامية (مجموعة أبحاث) ... ... باشراف نقولا زيادة
هذا العصر المنفجر ... ... قسطنطين زريق
الإسلام من خلال مبادئه ... ... علال الفاسى
الشرق الفنان ... ... دكتور زكى نجيب محمود
عبقرية العرب فى العلم والفلسفة ... ... دكتور عمر فروخ

الدوريات : مجلة الزهراء : محب الدين الخطيب (م من ١ — ٥)
مجلة المنار : رشيد رضا (٣٢ مجلد)
مجلة دعوة الحق (المغرب) . . . .